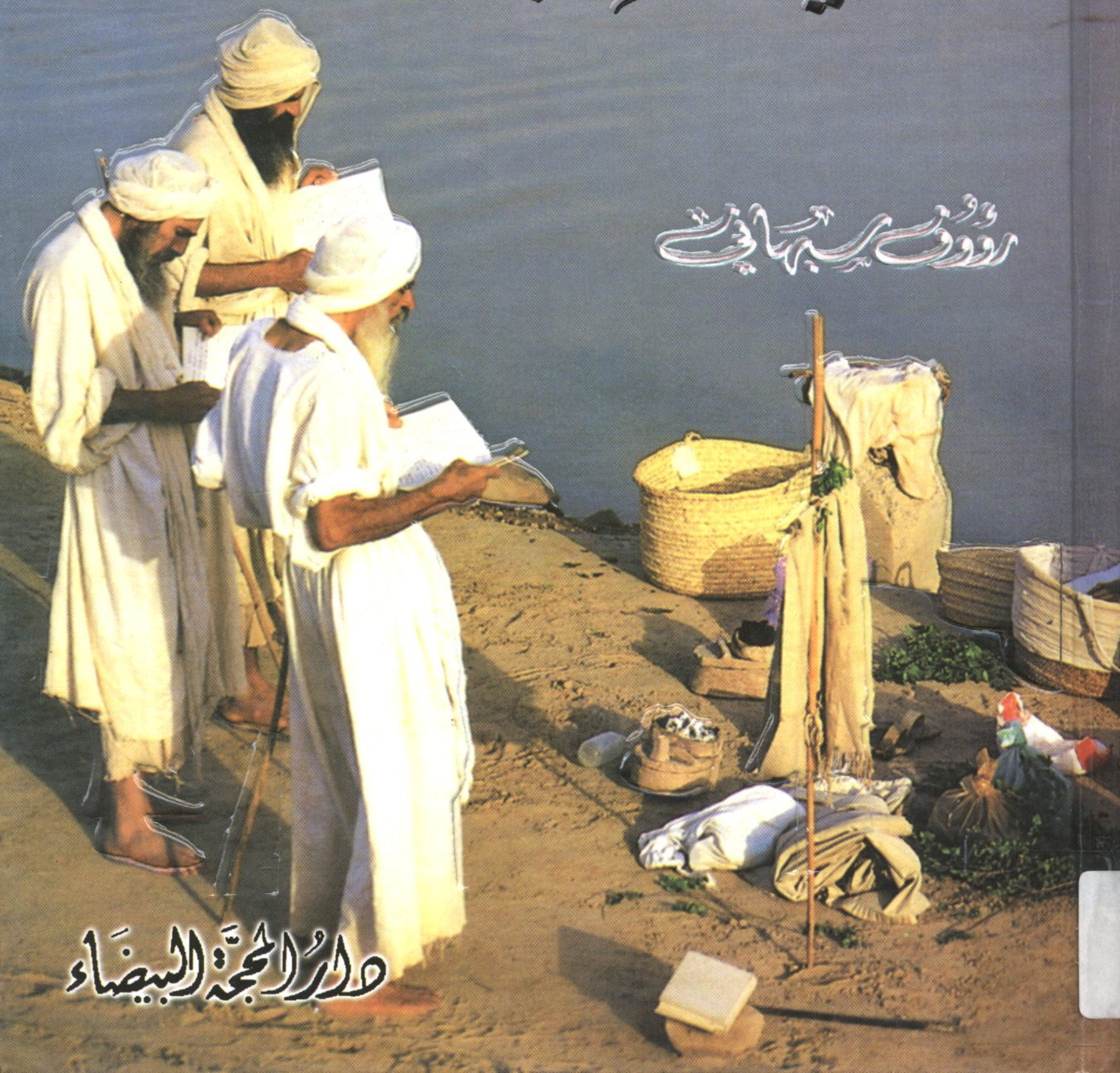
الصابئة المندائية

في إيران

رؤوف سبهاني



دار المحجة البيضاء

الصَّابِئَة المندائيَّة في إيران

رؤوف سبهاني

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

منذ فجر تاريخ الإنسانية وإطلالة البشرية على الحياة أخذ الإنسان يتساءل مستكشفاً ما يلاقيه من مخلوقات محيطة به ويتعمّق في سرّ الموجودات من حوله وصولاً إلى شريط متواصل من التفكير في أصل وجوده وأسرار خالقه ومظاهر الطبيعة من حوله وما تقدّمه من الخيرات أو ما تجليه عليه من الويلات.

من هنا تقدّم الإنسان يمخر بحر الحياة متوصلاً إلى معتقدات وأفكار أخذت في التزايد مع ازدياد تجاربه وخبراته في الحياة، من هنا ساهمت هذه المعتقدات في أن يكون سجل البشرية حافلاً بصنع التاريخ الإنساني فمن هذه المعتقدات ما كان سبباً في تطور الأمم وتقدّمها وفعاليتها وبناء الحضارة الإنسانية ومنها ما كانت متوهّمة لم تثمر عن بناء دول ومراكز وجود لهذه الأمم فسرعان ما ذوت واضمحلّت.

إنّ تزايد العقائد التي يتبناها الإنسان والتي تخوض غمار سرّ

الخلق وما وراء الطبيعة دفعته للتوصل إلى فكرة الخالق التي كانت مشتركة بين جميع الشعوب وإن اختلفت النظرة إلى الخالق من شعب إلى آخر. فلكل شعب كان يجسّد نظرته إلى الخالق بطريقة مختلفة. فهناك من وهب إيمانه إلى الطبيعة ومظاهرها كرمز للقوة والقدرة التي يتصف بها الخالق ومنهم من جعل الحيوانات والنباتات مظهراً للعبادة والتقديس.

وآخرون جعلوا الكواكب والنجوم مصدراً للاستلهام عجائب الخلق لما تكتنزه من تنظيم وتناسق عجيبين فكانت محطاً للعبادة والتقدير.

ولم يَكتفِ البشر باكتشاف مظاهر القدرة في الوجود لاتخاذها آلهة بل وصلوا إلى الأبطال والملوك.

وتابعوا الطريق فاصطدموا بثنائية التضاد التي ترتكز عليها أنظمة الحياة فجعلوا إلهاً للخير وآخر للشرّ وآخر للجمال وغيرها، وهناك من آمن بإله واحد لا شريك له. ولم يقف الإنسان في تعرّفه على نفسه وعلى خالقه ودنياه عند حدود وجوده بل تابع الغوص في الأضداد ليصل إلى إشكالية الوجود والعدم ليقع في جدلية الإيمان بالحياة الأخرى أو لا حتى اختلفت طريقة هذا الإيمان من عقيدة إلى أخرى.

والجدير بالذكر، أنه على مرّ العصور، كان لا بدّ لكل عقدية من مبشّر أو داع أو فيلسوف أو نبيّ أو رسول من الله. وإذا قمنا بالتنقيب في سجل العقائد وصفحات التاريخ نجد العقيدة الصابئية المندائية التي تستحقّ التوقف عندها والتساؤل كيف عالجت عقيدة الصابئة هذه

المفاهيم الوجودية؟ وأين موقعها بين هذه العقائد؟ كل هذه التساؤلات ازدادت وازداد معها فضولي للتعرف إلى أسرار هذه الفرقة التي لا يعرف القليل عنها سوى القليل من الناس، ولكن ذلك لم يدفع برغبتي في المعرفة إلى الوراء، بل ساقتني هذه الرغبة إلى التوغّل إلى المجتمع الصابئي، وبناء بعض العلاقات مع بعض الصابئين بهدف الحصول على المعلومات الدقيقة ولكن الذي فاجأني أن هذه العلاقات العقيدية قادتنا إلى حدّ الصداقة، وذلك لما يتحلّى به الصابئون من خصال حميدة وأخلاق دمثة. ولا ضير في أن استشهد بقول أحد رجال الدين المسيحيين في وصفهم إذ يقول: «يمتازون بعدة فضائل، فيها العفّة ولذا تراهم يُفَرَّقون عن غيرهم من سيمائهم فإنّ ملامح وجوههم تنطق بحسن آدابهم ،بشاشتهم تترجم عن نقاء سرائرهم ولسانهم يفصح عمّا في ضمائرهم، ومن فضائلهم أيضاً محبة بعض لبعض وهي فيهم على نوع لا يشاهد إلاّ في الرهبان».

من هنا، فكيف لا أبالي بطائفة فريدة من الناس، وكيف لا أبذل كل ما أملك من الجهد والطاقة والوقت والمال لأشبع ظمئي إلى المعرفة وليأنس عشاق العلم والثقافة بما استغرقه العمل المتواصل الذي تجاوز السنتين مليئ بجمع المعلومات والتدقيق بها والزيارات المتكرّرة والمقابلات الكثيفة مع أصحاب الشأن من الصابئة وما تخلله هذ التواصل من رجوع إلى الكتب ومن ثم تنسيق هذه المعلومات وصيغتها

وتنظيمها آملين الرضا من المولى عزّ وجلّ، ومتمنين الاستفادة للعقول والأفئدة العطشى التي لا يروى ظمأها لأنه ولدت لتنهل وتنهل من عطاء العلم.

المؤلّف

رؤوف سبهاني

لفظ الصابئة

إن فريقاً من العلماء فسّر لفظة الصابئة بما يتفق مع الرأي بما يتفق مع الرأي الذي أوردناه سابقاً ويعتمد القول أن الصابئة تركوا عبادة الأصنام ليعتقدوا بالتوحيد فيقال: «إن لفظة الصابئة مأخوذة من كلمة (سبأ) العربية بمعنى خرج من دين آبائه إلى دين آخر ومن صبأ النجم أي ظهر وكان يقال للرجل إذا أسلم زمن النبيﷺ قد صبأ أي خرج من دين إلى دين».

ويدعّم صحّة هذا التفسير أبو إسحاق الزجاج من قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ أي ما معناه «الخارجين من دين إلى دين» فيقال صبأ فلان يصبأ إذا خرج من دينه.

وقد ورد المعنى ذاته لكلمة صبأ في لسان العرب الذي يعدّ مرجعاً ومصدراً مهماً لتفسير الألفاظ فقد جاء في لسان العرب: وقد صبأ يصبأ صبئاً وصبوءاً. خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها.

وينضم إلى هذا الفريق بني جذامة إذ يظهر في حديثهم

تفصيل أعمق في هذا الباب من تفسير كلمة صبأ إذ كانوا يقولون لما أسلموا صبأنا، صبأنا وكانت العرب تسمي النبيﷺ الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ويسمّون من يدخل في دين الإسلام مصبوأ ويسمون المسلمين الصبأة وقال ابن الأعرابي: «صبأ عليه إذا خرج عليه ومال عليه بالعداوة»[1]، وقد ذهب أكثر الباحثين القدامى والمعاصرين إلى هذا المعنى.

أما الصابئة فينتقدون إعادة أمر تسميتهم إلى انتقالهم من دين إلى دين آخر ويعرفون أنفسهم باسم (مندائي) فلا بدّ أن تكون تسميتهم بالصابئين قد جاءت من الأقوام المجاورين لهم.

ويحاول المستشرق نولدكه أن يحلل كلمة صابئة مع ربطها باستخدامهم للماء فيقول: «إن كلمة صابئة مشتقة من صبّ الماء إشارة إلى اعتمادهم بالماء».

وتريد الليدي دراور قصدة المعنى السابق نفسه فتقول: «إنها مأخوذة من كلمة (صب) المندائية ومعناها الإرتماس والاغتسال بالماء الجاري»[2].

والتعريف الأصح يتلخص في اعتبار أن الصابئة مشتقة من الفعل صَبَبَ صبّ الماء ونحوه، يصبّه صبّاً فصبّ وانصب وتصبب أي أراقه

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١٠٦-١٠٩.
(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص٩.

وصببت الماء سكبته، ويقال صببت لفلان ماء في القدح ليشربه وماء صبّ كقولك ماء سكب.

والذي يدعو إلى تركيز اشتقاق كلمة صابئة على استخدامهم للماء أن الأقوام المجاورة لهم لاحظوا ارتماسهم بالماء وكثرة صبهم للماء على أجسادهم فسمّوهم الصابين أو الصابة.

وهذا يرتبط بعقيدة أساسية عندهم لأن الشعار الرئيس لديهم هو الإرتماس بالماء الجاري واغتسالهم بالماء رمز طهارتهم اليومية وتسمى هذه الممارسة (مصبته) أي التعميد.

ولكن علي عليه السلام يورد معنى آخر للصابئة لاشتقاقها من الصبّ فيقول واصفاً أبا بكر حين مات: «كنت على الكافرين عذاباً صباً».

وإذا أردنا العودة إلى الأصل اللغوي لمعنى كلمة الصابئة فيظهر لدينا أن لغتهم مندائية آرامية انطلاقاً من أن الفعل (صبا) الآرامي نعني به يرتمس ويتعمّد وهم يقولون في صيغة الأذان عندهم: «أنشب صابي بمصبته» أي أن كل من يتعمد بالمعمودية يسلم ويبين ذلك واضحاً حين يقولون في التعميد «(صبنيا بمصبته: أو بهرام ربه) أي تعمدنا بعماد إبراهيم الكبير)»[1]. كما أن لديهم الكثير من العبارات التي تذكر كلمة (المصبتة) في طقوسهم.

(١) المصدر نفسه، ص٨.

تاريخ الصابئة

إن تاريخ الصابئة حافل بالتنقلات والهجرات والمحن كما أنه تاريخ عارم بالأسرار والخفايا التي ما زال بعضها غامضاً بالنسبة لكثيرين. ويعتبر الصابئة النبي يحيى عليه السلام نبياً لهم لذلك يعدّون أنفسهم من أهل كتاب سماوي الذي تمثّل بالصحف التي جاء بها لذلك وقبل الخوض مع غمار تاريخ الصابئة لا بدّ من إضاءة حول حياة النبي يحيى عليه السلام .

كما تعرف أن ولادة النبي يحيى عليه السلام كانت بمثابة الأعجوبة والمعجزة وذلك لأن والده زكريا كان قد بلغ المشيب وامرأته كانت عاقراً فعندما رأى رزق الله سبحانه ينصّب دائماً ويومياً على مريم ابنة عمران دعا ربّه[1] قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2] ولم يكن من الله سبحانه إلاّ أن استجاب دعاءه ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]. عندها لم تسع زكريا فرحته

(١) الشيخ نزيه القميحا: قصص الأنبياء، ط٢، دار الهادي، ٢٠٠١م، ص٤٠٧.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٨.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٣٩.

وسعادته بالمولود المبارك وقد سمّاه يحيى «ذلك الاسم الذي لم يسبق له أن سمّي بهذا الاسم غيره واستفهم زكريّا متعجّباً كيف يكون له غلام وامرأته يائسة عقيمة وهو قد بلغ من العمر فأصبح شيخاً كبيراً»(١) فأجابه الخلاّق العظيم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(٢).

وإذا أردنا التفصيل أكثر في سرّ تسميته يحيى يمكن أن نورد ما قاله ابن كثير في تفسيره: «قال قتادة وغيره: إنما سمّي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان وروى العوني وغيره عن ابن عباس وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسّدي والربيع بن أنس والضحاك في هذه الآية: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بعيسى بن مريم». وقال الربيع بن أنس: «هو أول من صدق بعيسى بن مريم»، وفي قوله (سيداً حصوراً) قال قتادة: سيداً في العلم والعبادة وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلاّ يحيى بن زكرياً»(٣).

(١) قصص الأنبياء، ص٤٠٨.
(٢) سورة مريم، آية: ٧ إلى ١٠.
(٣) ابن كثير، قصص الأنبياء، ج١، ص٣٦١.

وقد ورد ذكر النبي يحيى في أناجيل عديدة وفي عدة مواضع منها ما جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا وفيها يرد ذكر ولادة النبي يحيى ومكانة النبي زكريا فعندما نقرأ نصوص هذه الأناجيل نشعر كأننا نقرأ القرآن ولكن بتسميات مختلفة وصياغة أخرى وجاء في نص إنجيل لوقا ما يلي: «كان في أيام هيرودوتس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من حزمَة أبّيا وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدّمين في أيامهما فبينما هو يكهن في نوبة فرحته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخّر وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور فلما رآه زكريا لأن طلباتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتمسيه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس ويردّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلاههم ويتقدّم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيّئ للرب شعباً مستعداً فقال زكريا للملاك: «كيف أعلم هذا؟ لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها، فأجاب الملاك وقال له: أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلِّمك وأبشِّرك بهذا»(١).

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح، ص٨٩.

وبما أن الصابئة يعتبرون أنفسهم من قوم النبي يحيى عليه السلام فمن الطبيعي أن تأتي كتبهم على ذكره في مواضع كثيرة منها:

جاء في كتاب (دراشة اديهيا): «ولد يحيى من أمه «انشبي» وكان زكريا و «أنشبي» طاعنين في السن ولكن ما حدث هو هذا: لقد شربت انشبي ماء فحملت من ذلك الماء ورأى أحد الكهان اليهود فيما يرى القائم بأن زكريا سيكون أباً وسيكون ابنه نبياً فانتظر اليهود يحيى ليقتلوه وبعد تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع دقائق(١) ولدت «أنشبي» وليدها وجاء «أنوش أثرا»(٢) وأخذ الطفل وحمله إلى الفرات «زيوا»(٣) ووضعه تحت شجرة تحمل ثمراً تشبه الأثداء أخذ يحيى يتغذّى من حليبها مدة ثلاثين يوماً أرسل «أنوش أثرا» بعدها امرأة تدعى «سوفان لوليتا» للعناية به وفي اليوم الواحد والثلاثين قدم أحد «الأثرى» لتعميده في (اليردنة)(٤) وعلمه بعد ذلك الأبجدية وجلب كتاب الأرواح(٥) ووضعه بين يده وعلمه القراءة والتلاوة وحين بلغ يحيى الواحدة والعشرين من عمره عمّده جمع من «الأثري» وجعلوه (ترميذه) ثم علّموه جميع الطقوس والشعائر الدينية وأمروه أن يرافق «أنوش أثر» إلى أورشليم

---

(١) يقول الصابئة المندائيون: إن الله أراد أن يميّز يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهما السلام فجعل مدة حملهما أكثر من تسعة أشهر.

(٢) روح من أرواح الحياة وأنش يعني رجلاً، وأثراً يعني كائناً سماوياً.

(٣) النهر السماوي الذي يقابل اسمه الفرات الدنيوي.

(٤) اليردنة في الأصل نهر الأردن، وأصبحت تطلق كاسم لأي نهر.

(٥) سدرة اونشماثة.

ليكون هناك نبياً وجاؤوا بزورق استقله الإثنان في نهر الأردن ووصلوا إلى أورشليم وحين وصلا نادى «أنوش أثرا» بصوت عال: «مَنْ مِنَ الموجودين قد فقد طفلاً فليأت وليطالب به وسمعت خادم «أنشبي» النداء ورأت الفتى فذهبت إلى سيّدتها وزفّت إليها الخبر قائلة «تشبه عيناه عيني أنشبي» ووجهه يشبه وجه «زكريا» وكانت «أنشبي» متقدِّمة في السن تقية طاهرة وكان زكريا شيخاً أيضا وحين قالت الخادم: أنني رأيت فتى في زورق في النهر يشبهكما نهضت «أنشبي» وجرت مسرعة إلى النهر دون أن ترتدي عباءتها وتغطِّي رأسها ولما شاهد زكريا ذلك غضب لنزقها وطلّقها، ولما شاهد شامس ذلك قال له: «إني لأعجب لك أن تطلّق زوجك دون ما سبب لقد خرجت فرحة حين علمت أن ابنها على قيد الحياة» فأجاب زكريا: «سامحني يا مولاي لقد ذهبت شبه عارية فطلّقتها دون أن أعرف سبب فعلتها».

وجاءت «أنشبي» إلى النهر واندفعت نحو يحيى فعانقها وقبّلها فوبّخه «أنوش أثرا» لتقبيله امرأة يهودية[(١)] أجاب يحيى: «سامحني أيها المولى لقد وضعني الأب»[(٢)] في رحم هذه المرأة تسعة أشهر فهي أمي وقلب كل ولد يحن إلى أمه. قال أنوش أثرا: «ذلك حق يجب على المرء أن يكرِّم والديه». ذهب يحيى عليه السلام بعد ذلك إلى أورشليم وفتح عيون

---

(١) يكره الصابئة اليهود كراهة مطلقة، لقيام اليهود بقتلهم ولردهم عن العقيدة التي جاء بها النبي يحيى.

(٢) المقصود (بالأب) هنا (الحياة).

العميان وشفى المرضى وجعل الكسيحين يمشون على أرجلهم وغضب الكهان وجاؤوا إلى يحيى وأمروه بمغادرة أورشليم في الحال. رفض يحيى ذلك وتحداهم قائلاً: «جردوا السيوف واضربوني وهاتوا النار وأحرقوني والماء أغرقوني» أجابه الكهان: «نحن نعلم يا يحيى أن السيوف لن تنالك وأن النار لن تحرقك وأن الماء لن يغرقك». وحين بدأ يحيى بتلاوة «الكنزاربه»[1] تكلّمت طيور الهواء مسبّحة بحمد الله وفتحت الأسماك أفواهها بالدعاء (الياة العظمى)»[2].

إذا تأمّلنا هذه القصة في الكتب الصابئية نلاحظ أن هناك تسميات غريبة وحتى الحوادث أكثر غرابة فيما يتعلّق بكيفية جعل أم يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكيفية ولادته وما تمّ تصويره من تضحية الأم التي أدّت بها إلى طلاقها ولكن هناك رموز عديدة ومعاني مرتبطة بعقائد صابئية تمّ إدخالها في قصة النبي يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ ممّا يدلّ على تمسّك الصابئة بتبعيتهم للنبي يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهناك بعداً إنسانياً حرصت الرواية على تبيانها من خلال حنين يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أمّه على الرغم من كل الضغوطات الخارجية كونها يهودية.

ولا بأس في أن نذكر كتاباً آخر من الكتب الصابئية التي تطرّأت إلى ذكر ولادة النبي يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد جاء في كتاب «كنزاربا»:

---

(١) الكتاب المقدس للصابئين المندائيين.
(٢) أساطير صابئية: ص ٢٣- ٢٤.

«وفي ذلك العهد يولد ابن اسمه يحيى بن أبو صارا - زكريا - ويأتيه في شيخوخته ويكون عمر أمه أنشوي مائة سنة، حينما تحمل به وتلده في هرمها وأما يحيى، فسوف ينشأ في أورشليم لأن الإيمان يكون في صدره وسوف يطوف الأردن ويعمد الناس مدّة ٤٢ سنة قبل أن يأتي العالم عطارد المتجسّد وبعد ولادة يحيى في أورشليم، بينما يطوف صقع الأردن ويعمّد سوف يأتي مشيها[١] ويتقدّم بتواضع، ليصطبغ وينتفع بحكمته، لكن مشيها سوف يعبث بمذهب يحيى، ويغيّر عمار الأردن»[٢].

نلاحظ أن هذه الرواية قدّمت إيضاحات مكانية وزمانية يتخلّلها عقائد فلكية (يعمد الناس ٤٢ سنة قبل أن يأتي العالم عطارد المتجسّد) وأيضاً أماكن تدخل كل صميم تاريخهم (أورشليم، الأردن..).

هذه بعض الروايات المقدّسة عن ولادة النبي يحيى ولكن فيما يتعلّق بوفاته فمل تنساها الكتب المقدسة الصابئية حيث يتم وصف حالة يحيى قبل الموت ووصاياه فماذا جرى؟

«إنه أحسَّ بدنو أجله، فقال لزوجته؛ ماذا أنت صانعة من بعدي؟ قالت: أنقطع عن الطعام والشراب تعجيلاً لأجلي، حتى أذهب وأنضم إليك فقال يحيى: بل ستأكلين وتشرين ثم لا تخطريني ببالك.

---

(١) المسيح.

(٢) مجلة المشرق، لسنة ١٩٠١.

قالت: سأعتزل الغسل، ولا أضفر شعري ما بقيت حتى أذهب، فقال يحيى: إنك لن تمضي ما تقولين، بل ستغتسلين وتضفرين شعرك وأصير عندك نسياً منسياً. قالت: سأنقطع في خبائي، لا أرى إنسياً حتى أموت وأنضمّ إليك، فقال يحيى: بل ستنقادين لإلحاح ذوي القرابة والأصدقاء فيخرجونك من خبائك وتسلينني. قالت: وما عسى أن أزيد على ذلك؟ قال: كل ما تكلّمت به إنما هو خفة وزعونة، إن خير ما تعملينه من بعدي: الابتهال إلى الله، ودعوة العلماء ليأكلوا مما تذبحينه لأجلي، فيصلّوا عليّ وتبقين أنت على بشاشتك وما أن أتمّ يحيى حديثه مع زوجته حتى وافاه مندادهي (أبوه) متمثلاً بصورة فتى وطلب إليه أن يعمده فوعده يحيى أن يعمل ما يريده في الغد، فلما كان الغد وافاه مندادهي، وهو يصلي، فظنّ أنه جاء ليتعلّم الصلاة، ولكنه أخذ قبساً ورمى به يحيى فنام ودعا (مندادهي) الله جلّ جلاله أن يجعل النهار أربع ساعات فأجابه الباري إلى دعائه، فلما استيقظ يحيى من سباته بعد مضي أربع ساعات، ذهب إلى الماء الجاري فاغتسل وصلّى، وعندها طلب إليه الفتى (مندادهي) أن يعمّده، فنزل يحيى إلى النهر، وأمر الفتى أن يتبعه، فأخذ ماء النهر يرتفع بالتدريج، حتى غمر ثياب يحيى فأسرع يحيى إلى اليابسة، فنزل الماء، ولما عاد يحيى إليه، عاد الماء إلى الارتفاع، وتكرّرت الحال ثلاث دفعات، فلما كانت المرة الرابعة، أسرّ مندادهي إلى الماء أن لا يرتفع، فظهرت طيور وأملاك ترفل بحلل بيض، وأحاطت بيحيى ومندادهي، فأدرك يحيى السر، وصاح: (تبارك اسمك يا مندادهي)،

وقبّله من جبينه، فظهر مندادهي بمظهره السماوي، فأراد يحيى أن يلمس يده، فردّ عليه الملاك (إن تمسّها تموت)، فردّ يحيى إنه يتمنى ذلك الموت؟ ليذهب إلى عالم الأنوار (اكمي دنهوره) فأعطاه مندادهي يده، فلمسها يحيى، فسقط جسده للحال ميتاً ورجلاه في الماء، وسائر جسده خارجه، ولحقت نفسه بنفس مندادهي وبينما الروحان تسبحان في الفضاء، رأت روح يحيى جسده مطروحاً على الأرض، تنهشه الطيور من كل جانب، وتأكل الأسماك به من جانب آخر فتأوّهت، فسألها مندادهي عن السبب؟ فأجابت إنها خلّفت وراءها أطفالاً كانت تودّ أن تقوم بأودهم، فردّ الملاك عليها: «ما لهذا تأوّهت، ولكنك نظرت إلى حنتك تنهشها الطيور والأسماك فجزعت، ولكني سأجعلها في حرز حريز، وعندها أخذ مندادهي حفنتين من التراب، وألقاهما على جثة يحيى، فكانت قبراً له. واستمرت الروحان في السير سوية حتى بلغتا نهر (دخشاشة)، وهو النهر الذي يفصل بين المطراني والفردوس، فركبتا زورقاً انتهى بهما إلى عالم الأنوار فأقام يحيى في قصر مندادهي»[1].

نلاحظ من خلال هذه الرواية التي تتحدّث عن وفاة النبي يحيى تواتراً كثيفاً لبعض الرموز المقدّسة عند الصابئة مثل: الماء - عالم الأنوار الملاك - المطراني ... لذلك يمكننا تقدير مدى ارتباط الصابئة بالنبي يحيى عليه السلام وتقديسهم له وتصويره كمثال للحكمة والصبر.

---

(١) مجلة التراث الشعبي: ٦/٧، ص٦٥.

على كل حال، فهذا ما تذكره الكتب المقدّسة عن وفاة سيدنا يحيى، أما كتب التاريخ فلم تغفل عن ذكر النبي يحيى عليه السلام إذ تتحدّث عن أن «هيرودتس الحاكم الروماني أراد الزواج من ابنة أخيه، فأباح اليهود له ذلك، فاستنكر النبي يحيى عليه السلام هذا الزواج ورفع صوته مطالباً بمنعه فطلبت (يهروديا) والدة العروس (سالومي) من ابنتها إقناع هيرودتس بقطع رأس النبي يحيى عليه السلام والتخلّص منه فذبح يحيى عليه السلام وجيء برأسه على طبق من فضة إلى حفل ماجن راقص، وكؤوس الخمرة تدور على الأصفياء والفتيات والعرايا راقصات مغنيات»(١).

إذا أردنا أن نقارن النصوص الصابئية بالنصوص الإسلامية نجد اختلافاً كبيراً. أما النص التاريخي فهو قريب إلى هذه النصوص الدينية التي جاء فيها حول وفاة النبي يحيى وسبب موته أنه روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أنه قال:

«إنّ ملكاً كان على عهد يحيى بن زكريا عليه السلام لم يكفه ما كان عليه من الطروقة حتى تناول امرأة بغياً، فكانت تأتيه حتى أسنّت، فلما أسنّت، هيّأت ابنتها، ثم قالت لها: إني أريد أن آتي بك الملك فإذا واقعك فيسألك ما حاجتك فقولي: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا عليه السلام. فلما واقعها سألها عن حاجتها، فقالت: قتل يحيى بن زكريا عليه السلام فلما كان في الثالثة بعث إلى يحيى فجاء به فدعا بطست

(١) المرجع نفسه.

ذهب فذبحه فيها وصبّوه على الأرض فأخذ الدم يرتفع ويعلو وأقبل الناس يطرحون عليه التراب فيعلو عليه الدم حتى صار تلاً عظيماً ومضى ذلك القرن فلمّا كان من أمر بخت نصّر ما كان رأى ذلك الدم فسأل عنه فلم يجد أحداً يعرفه حتى دلَّ على شيخ كبير، فسأله فقال: أخبرني أبي عن جدي أنه كان من قصّة يحيى بن زكريا عليه السلام كذا وكذا وقصّ عليه القصة والدم دمه قال بخت نصّر: «لا جرم لأقتلنّ عليه حتى يسكن فقتل عليه مقتلة عظيمة حتى سكن الدم»[1].

(١) الشيخ نزيه القميحا، قصص الأنبياء، دار الهادي، ط٢، ٢٠٠١م، ١٤٢٢هـ، ص٤١٧-٤٢٠.

الصابئة في فلسطين

قبل الخوض في حياة الصابئة في فلسطين وأسباب هجرتهم منها إلى العراق وإيران والواقع والاضطهاد الذي كانوا يعيشونه هناك لا بدَّ من الإضاءة على واقع النبي يحيى هناك وعلاقته بالأسينيين ومسيرته في فلسطين.

بداية لا بدّ من تعريف من هم الأسينيون: هم طائفة يهودية أصبحت فيما بعد مستقلّة عن عامّة اليهود وانفردت بعقائد وأفكار خاصة بها وبالتالي أقامت هذه الطائفة في الصحراء بعيداً عن الناس.

وحينها قام النبي زكريا إسوة بغيره بأن يلحق ولده يحيى بطائفة الأسينيين عندها نشأ يحيى بينهم وهناك عرف باسم يوحنا المعمدان. «وخلال بواكير رجولة عيسى بدأت إشاعة مؤدّاها أن يوحنا قد انشقّ عن جماعة الأسينيين وأنه كان يعيش وحده في البرية، وقد ارتدى ثوباً بسيطاً من وبر الجمال، مع نطاق من الجلد حول خصره، وبدأ يعظ الجماهير مباشرة، ولم يصبر على فترة التدريب الطويلة، التي كانت ضرورية لأي شخص يرغب في العضوية الكاملة في إخوان الأسينيين

وهكذا كانت حركته الجماهيرية»[1] وهكذا تابع مسيرته ساعياً إلى اجتذاب الناس واستقطاب جمهور كبير غير آبه لقانون السلوك الأسيني المتمثّل بالسرية التامة وعدم البوح بأسرار جماعة الأسينيين حتى لو عذّب المرء حتى الموت.

وقد نتج عن مخالفة هذا الشرط تسلّل الرومان والأعداء من اليهود لإفشال حركته عندها عرف يوحنا بما يتمّ التخطيط له من قبل الأعداء فوصفهم بالأفاعي وبالتالي تغيّرت عقائد كثيرة في دعوته واختلفت عن العقائد اليهودية في كثير من الأفكار فأصبحت دعوة النبي يحيى عليه السلام دعوة عقيدية جديدة حيث انضمّ إليه الكثير من أبناء البلاد من وطنيين وأصحاب عقائد قديمة ومن اليهود حتى والجدير بالذكر أن السيد المسيح انضمّ إلى الدعوة الجديدة «فقام نسيبه يوحنا بتعميده في مياه الأردن»[2]. من هنا نشعر أن فلسطين أثناء مسيرة النبي يحيى عليه السلام بدأت تنقلب رأساً على عقب وتحدث فيها تغيرات جذرية وإذا تتبعنا الأحداث التي جرت بعد ذلك يتبينّ لنا واقع الأسينيين والصابئة في فلسطين وماذا حدث معهم فيما بعد.

وكان يوحنا بعلمه وحكمته يعلم ماذا ينوي الأفاعي فعله وأنهم سينجحون قبل أن يشرع في القتال ولذلك استبق الأمور وعمّد عيسى

(١) عيسى يبشر بالإسلام: ٥٦.
(٢) مخطوطات البحر الميت: ٣٣.

فكانت معموديته مصدر قوة له، وأتاحت له كثيراً من الارتياح على الرغم من أنه كان متأكداً أن دعوته لا تنتهي بانتهاء حياته.

وبالفعل حدث كما توقّع يوحنا فقد قام اليهود بالحيلة والخداع بتقوية شوكتهم عن طريق قيامهم بالتعاون مع الملك هيرودتس بقطع رأسه وقد سبق ذكر كيفية وفاته بالتفصيل في الصفحات السباقة. «وكان يحيى واضعاً كل الاحتمالات فهو قام بتعميد عيسى وإدخاله في حركته وبتحضيره ليتسلّم المهمة من بعده وبالفعل فقد تولى عيسى المهمّة وأكمل مسيرته من بعده»(١).

الصعوبات بدأت بعد موت يوحنا فأخذ عيسى يواجه رفضاً من قبل أتباع النبي يحيى عليه السلام ولم يعترفوا بعيسى وذلك لاعتقادهم بأنه «خرج عن الدين وقاد الناس إلى دين آخر وباح بالعقائد الباطنية وجعل الدين أكثر يسراً»(٢).

وفي هذا الصّدد تعبّر بعض النصوص الصابئية عن سبب رفضهم لعيسى حيث جاء على ديوان (حران كوتيه)(٣) وصفاً لعيسى عليه السلام: «قد حرف لكلمات النور وأبد لها بالظلام وغيّر دين أولئك الذين كانوا على ديني وبدّل جميع الشعائر (ابيداثا) وأقام هو

---

(١) عيسى يبشّر بالإسلام: ٥٨.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون: ٤٢.

(٣) من الكتب المقدّسة عند الصابئيين.

وإخوانه في جبل سيناء ودعوا لأنفسهم جميع الناس وجلبوهم لدينهم وأطلقوا عليهم اسم كريستيانا وسموا على اسم مدينة الناصرة (نزرته مدنتا)[١]. وعلى الرغم من كل المتاعب التي تعرّض لها يوحنا ومن بعده عيسى إلاّ أن عقيدة النبي يحيى التي كانت متميّزة انتشرت على الصعيد البشري واتسعت على الصعيد الجغرافي حتى أصبح اليهود يعانون خوفاً وحذراً من أن تشكل هذه العقيدة خطراً على العقيدة اليهودية لذلك أخذ اليهود يعدّون العدّة بكل ما لديهم من قوة وحيلة فتكاثرت قوى الشرّ الوثني الروماني واليهودي فأقامت المذابح للصابئين وبدأ الواقع المرير يغزو الصابئة في فلسطين فذبح عشرات الألوف منهم لذلك فرّوا بدينهم متجهين نحو الشمال.

بهذا نكون قد أعطينا لمحة سريعة عن بداية انطلاقة عقيدة الصابئة وتفرعهم كقوم للنبي يحيى عليه السلام في فلسطين. أما كيف كان واقعهم في فلسطين وما الأسباب التي دفعتهم إلى أن يهاجروا إلى العراق وإيران، فهذا ما سنعرفه في السطور القادمة. من هنا سنحاول عرض حالة الصابئة في فلسطين التي هي في نفس الوقت سبب هجرتهم إلى العراق وإيران.

---

(١) الصابئة المندائيون: ٤٦.

أسباب الهجرة إلى العراق

بعد أن قوي عماد عقيدة النبي يحيى عليه السلام في فلسطين التي استقطبت جمهوراً كبيراً خاف اليهود وباقي الأعداء وصاروا يأخذون حذرهم لذلك بدأوا بتحركهم التعسفي الذي تزامن مع اضطهاد المسيحيين والمسلمين أيضاً لهم لذلك يعدّ «الصابئة قوم اعتادوا العيش تحت الاضطهاد من قبل الأديان الثلاثة فكثرة النصوص المندائية ضد اليهود تشير إلى عذاباتهم من أهل هذا الدين المجاور لهم ببابل»(١) كما اعتبرتهم المسيحية نصارى منحرفين لا بدّ من إرجاعهم إلى الجادة الصحيحة «وأصدر فقهاء المسلمين فتاوى قتل جماعي بحقهم أبرزها فتوى تحسب ببغداد والقاضي والفتية أبي سعيد الحسن بن يزيد الاصطخري (ت ٣٢٨هـ) أيام القاهر العباسي»(٢). وروى الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) في سياق ترجمة الاصطخري: «أفتاه بقتلهم لأنه تبينّ له أنهم يخالفون اليهود والنصارى وأنهم يعبدون الكواكب فعزم الخليفة على ذلك حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له قدر فكفّ عنهم»(٣).

ونزيد في هذا الصّدد «أنّ رمز الحياة العظمى عند الصابئة هو (الماء الحي) أو الجاري أو ما يسمونه (يردنه) ويقول الصابئون إنها تعني

---

(١) الكنزاربا (طبعة استراليا) ملحق، كلمة عن الدين المندائي لليدزبارسكي، ص٦٨٠.
(٢) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٣٢.
(٣) البغدادي، تاريخ بغداد، ٧، ص٢٦٩- ٢٧٠.

(نهرا) أو ماء جارياً. ويمكن أن يكون المعنى الحقيقي لهذا اللفظ قد جاء من (نهر الأردن) إذ ليس من المصادفة وجود هذا اللفظ في لغة الصابئة وإنما جاء معهم من موطنهم الأصلي أي فلسطين»[1] وهو المكان نفسه الذي يقوم فيه النبي يحيى بتعميد المؤمنين بعقيدته حيث قتله اليهود وقتلوا اتباعه.

وفيما يتعلّق بلفظة الأردن أو (يردنه) فهي تعود إلى معنى الكلمة المذكورة التي اعتبرتها دراور دليلاً على نزوح الصابئة من فلسطين حيث تقول: «إنها تعني نهراً جارياً وليس له علاقة بنهر الأردن في فلسطين فالأردن والنيل يسمّى عند الصابئة آردنه أو أردن وقد سمعت لفظة أردن تسمية للنيل من أحد يهود العراق وفي الرطنة تطلق الكلمة على أي نهر»[2].

ونزيد لتبيان واقع الاضطهاد الذي عاشه الصابئة في فلسطين، فكما عرفنا أنهم كانوا يعتبرون النبي يحيى نبيّهم وتُبَيِّنُ الليدي دراور «أنهم كانوا يجيبون السائل بأن يحيى نبينا كما أن نبيكم عيسى أو محمد»[3].

وفي الحقيقة لقد ملت مرة للاعتقاد بأنه كان اقتباساً من

---

(١) يطلق الصابئون هذا اللفظ على الأنهار.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، مقدمة المترجمين، ص٣٥- ٣٦.

(٣) دروس يحيى.

المسيحيين، إلاّ أنني اقتنعت بالتدريج بأنه ليس مجرّد إقحام بل قد كانت ليحيى علاقة حقيقة (بالناصورائي) الأصليين، الاسم الذي كان يطلق على أصحاب هذه العقيدة في الأيام الأولى الذين سنتحدّث فيما بعد عن نموذج منهم تعرّض للتعذيب من اليهود.

وكما عرفنا أن يحيى ذبح من قبل اليهود في فلسطين في وقت كانت فكرة النقمة على كل من يخرج من دين إلى دين آخر شائعة جداً وحتى من الأديان القديمة فعندما جهر النبي إبراهيم عليه السلام بدعوته قام المشركون باضطهاده بل بمحاولة حرقه بالنار وكذلك حينما ظهر خاتم الأنبياء محمد قام الجاهليون بمحاربته ومحاولة قتله فهاجر بدينه إلى المدينة وهذا ما حصل مع الصابئة الذين حاولوا الخروج عن اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. وما حدث مع الصابئة من تعرّضهم للذبح من قبل اليهود جعل منهم ألدّ أعداء اليهود يخالفونهم في كل شيء حتى إنهم يقيمون على الأحزان بمناسبة غرق المصريين، الذين كانوا يلاحقون النبي موسى ويطلقون على يوم غرقهم اسم «عاشورية». ولم يكتفِ اليهود فقط بذبح الصابئة بل أيضاً المسلمون حيث جاء في رسالة رئيس ديوان الجوالي محمد بن يحيى بن فضلان (ت ٦٣١هـ) الخاصة بأهل الذمة إلى الناصر بالله العباسي فقرة تذكر بفتوى الاصطخري في الصابئة: «الصابئة قوم من عبدة الكواكب يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة) لا ذمّة لهم وكان في قديم الزمان لهم ذمة فاستثنى القاهر بالله أبا سعيد الاصطخري في أصحاب الشافي في حقهم فأفتى

بإراقة دمائهم وأن لا تقبل منهم الجزية فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار فأمسك منهم وهم اليوم لا جزية عليهم ولا يؤخذ منهم شيئاً وهم في حكم المسلمين والآمر أعلى»[1].

الأدلة على هجرة الصابئين من فلسطين إلى العراق

- من أهم الأدلّة على ذلك ما جاء في الكتب المندائية المقدّسة من مصادر عقيدتها ما يؤكّد هجرتهم ففي كتاب (حران كويثا)[2] أي حران السفلى أو الداخلية نطالع قصة هرب الناصورائي[3] من اضطهاد اليهود

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٧٠.

(٢) في اللغة المندائي (حران السفلى) وتوجد نسخة منه في مكتبة المتحف العراقي.

(٣) الناصورائي: كلمة تعني أولئك الكهان الصابئين الذين يملكون المعرفة الحقيقية الدينية (الناصيروتة) وتتلخّص معتقداتهم وهي معتقدات الدين الصابئي بصورة عامة بما يأتي:

أ. الاعتقاد بكينونة عليا سامية لا هيأة لها يكون التعبير عنها عادة في خلق العوالم الروحية والأثيرية والمادية وأن خلق مثل تلك العوالم قد أنيط بمخلوقات نجمت عن الخالق وبإرادة منه.

ب. الاعتقاد بثنائية الكون وازدواج الشيء وضدّه وتلازمهما كالنور والظلام والخير والشر ووجود كون منظور وكون غير منظور شبيه له.

ج. عدّ الروح منفيّة أسيرة في الجسم وأن موطن تكوينها وأصله هو الكينونة العليا فهي تعود إليها بعد تحرُّرها من الجسم.

د. الاعتقاد بتأثير النجوم والكواكب في مصائر جميع مظاهر الحياة ومن جملتها البشر إضافة إلى أنها أماكن للمطهر بعد الموت.

هـ. الاعتقاد بوجود أرواح غير مرئية منقذة تساعد الروح البشرية في رحلتها إلى العالم الآخر.

و. وجود لغة طقسية مملوءة بالرموز والاستعارات تمثّل أفكاراً وصفات قابلة للتجسّد.

ز. الاعتقاد بوجود أسرار دينية لمساعدة الروح أو ضمان بعثها من جديد في جسم أثيري ثم صعودها من عالم المادة إلى عالم الأنوار.

ح. الالتزام بسرية عظمى والاعتقاد بأن هناك أسراراً دينية، لا تباح معرفتها إلاّ للقلّة من المكرّسين دينياً فالصابئون إذاً ينقسمون إلى قسمين: =

لهم في القدس (أورشليم) وكيف بحثوا عن مأوى لهم في جبال ميديا (طور أدمداي) وكيف أن اليهود قد عوقبوا بتخريب أورشليم سنة ٧٠م. وبعد هجرتهم إلى حران حيث وجودوا أخواناً لهم في الدين ثم من هناك بدأت هجرتهم الثانية تحت رعاية الملك البارثي الصديق (ارطبانوس) ويسمونه (أردوان ملكه) إلى القسم الأدنى من بلاد ما بين النهرين حيث أقاموا لهم مراكز في مكان يدعى الطيب (طيب ماثه)[١] بين واسط وخوزستان. ويتطرق الكتاب أيضاً إلى ذكر مواقفهم أثناء الفتح العربي ومنها أن تقدّم مجموعة من الصابئين برئاسة أحد كبار كهنتهم المدعو (دانقا) لمقابلة القائد العربي فعرضوا عليه أمر الصابئين وكانت النتيجة أن القائد العربي اعترف بدينهم وعدّهم أصحاب كتاب وبقوانين المسلمين يؤدّون الجزية. ويقول الأستاذان نعيم البدوي وغضبان رومي وهما من أبناء الصابئة ومترجماً كتاب الليدي دراور (الصابئة المندائيون): «وتكمن أهمية هذه الوثيقة التاريخية في تأكيدها للروايات الشفوية التي يتناقلها الصابئون اليوم وهي أنهم هاجروا إلى موطنهم الحالي في العراق من حرّان وكانوا قبل ذلك في فلسطين»[٢].

ويزيد الدكتوران مراد كامل ومحمد حمدي البكري فيما يتعلّق

=١- فئة الناصورائيين وهم المسؤولون عن حفظ الدين وإقامة الشعائر.

٢- المندائيون العامة.

(١) الطيب مدينة أثرية في الجنوب الشرقي من مدينة العمارة.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون: ١٥.

بسكناهم وهجرتهم فيقولون في بحثهما (تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي) ما يأتي: «واللهجة المدعية (المندائية) واسمها مشتق من الكلمة الآرامية (مدعا) ومعناها المعرفة ويسمى أصحابها بالصابئين أو المندعين (المندائيين) وهم طائفة من القبائل الآرامية التي كانت تسكن منطقة الأردن ثم هاجرت منها إلى العراق»(١).

ذكرنا آنفاً أن الصابئة هاجروا إلى حران ثم إلى العراق وهناك انقسم الصابئة إلى فرق بقي هناك نوع من الخلاف والغموض حول طبيعة هذه الفرق والفرق بينها حيث أن الكثير منهم يفصل بين الحرانيين والصابئة المندائيين معتبراً أن الحرانيين قد اتخذوا اسم الصابئة لأسباب غير واضحة فنرى (النديم) «يتراجع عن الخلط بين الحرانيين والصابئة المندائيين رغم أنه نقل قصّة عن أبي يوسف أيشع القطيعي النصراني أشارت إلى حادثة غريبة تؤرّخ إلى سبب اتخاذ الحرانيين اسم الصابئة بعد أن خيّرهم الخليفة عبد الله المأمون بين الإسلام أو الالتحاق بدين من الأديان الكتابية واختاروا الدين الصابئي لذكره في القرآن بناء على نصيحة أحد العارفين»(٢).

ونرى علماء آخرين يفرّقون بين الطائفتين حسب الدين مع ذكر أشياء قليلة تتوافقان عليها فقد روى أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ):

---

(١) مجلة المقتطف، ج١، ص١١٥، لسنة ١٩٤٩.

(٢) سعد الأشعري، المقالات والفرق، ص٣٨٩.

«إن هؤلاء الحرانية ليسوا الصابئة بالحقيقة بل هم المسمّون في الكتب بالحنفاء والوثنية فإن الصابئة هم الذين تخلّفوا ببابل من جملة الأسباط والناهضة في أيام كورش وأيام ارطحشست إلى بيت المقدس ومالوا إلى شرائع المجوس فصبّوا إلى دين بختنصر فذهبوا مذهباً ممتزجاً من المجوسية واليهودية كالسامرة بالشام وقد يوجد أكثرهم بواسط وسواد العراق بناحية جعفر والجامدة ونهري الصلة منتمين إلى أنوش بن شيث ومخالفين للحرانية عائبين مذاهبهم لا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة حتى أنهم يتوجهون في الصلاة إلى جهة القطب الشمالي والحرانية إلى الجنوبية»[(١)].

«ولعلّ محمد حسين الطباطبائي أول المحدّثين من فقهاء المسلمين من ميّز بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين» فهو يرى أن «عقيدة الصابئة مزيج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرانية»[(٢)].

ونجد السيد محمد حسين فضل الله يقسّم الصابئة إلى فرقتين يوضح الفرق بينهما من خلال الأصل الديني الذي يتفرعان منه حيث «يعدّ عن مؤرّخين وكتّاب مهتمين الصابئة فرقتين هما: المنديا أو نصارى يوحنا المعمدان وصابئة حران الوثنيين ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى مثل بحث «الصابئة المندائيون» الليدي دراور إلى أن «الصابئة

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص٢٠٦.

(٢) الأديان والمذاهب بالعراق، ص٣٤.

الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا»[(١)] .

ويربط المسعودي (ت ٣٤٦هـ) بين الصابئة القدماء الحرانيين وبين المندائيين الحاليين ثم اختصاص الآخيرين باسم الكيمياويين مشخصاً مؤسسهم الأول في الديار الهندية قال: «رجل يقال له بوداسف أحدث مذهب الصابئة وقال: إن معاني الشرف الكامل والصلاح الشامل ومعدن الحياة في هذه السقف المرفوع وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات وهي التي برزوها من أفلاكها وقطعها ومسافاتها اتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم من آثار من امتداد الأعمار وقصرها وتركيب البسائط وابنساط المركّبات وتتميم الصور وظهور المياه وفيضها وفي النجوم السيارة وفي أفلاكها التدبير الأعظم فاجتذب جماعة من ذوي الضعف في الآراء فيقال إن هذا الرجل أول من أظهر مذهب الصابئة من الحرانيين والكيماويين وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرانيين في نحلتهم وديارهم بين واسط من أرض العراق نحو البطائح والآجام»[(٢)] . إذاً نلاحظ هنا أن معيار التفريق هو في السكن والنحلة.

– أما باقي الأدلّة على هجرتهم إلى العراق فنجد أنهم اتخذوا

(١) فضل الله، من وحي القرآن، ٢، ص٦٩.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ١، ص٢٦٣.

أسلوباً من التقنية يتمثّل بالكتمان واستخدام اللغة المندائية التي تختلف عن لغة مواطني العراق «وذلك للحفاظ على كيانهم الديني من الأديان الأخرى فنجدهم يهمسون بلغتهم للردّ على سخرية جاهل ينال من عقيدتهم أو معتدٍ قصد ديارهم لفرض ما لا يريدون وما لا يطيقون فكثيراً ما يحدث الاعتداء عليهم لقلّتهم ولشبهات عقائدية تدور حولهم أقلّها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم أو يزهقون أرواح المحتضرين منهم وهذا ما يشاع عنهم بجنوب العراق»[1].

والذي وراء غموض لغتهم الآرامية هي اللغة السائدة في فلسطين في ذلك الزمن ولا زال الصابئة يستخدمونها حتى يومنا هذا فهي لغتهم الدينية التي حافظوا عليها منذ نزلوا أرض العراق.

- وما يدّل على تواجدهم بالعراق «وجود مقابرهم فيها وبالأهواز والدول التي هاجروا إليها مؤخّراً»[2].

- الجدير بالذكر هو أن أشكالهم لهم تميل إلى الأجسام الطويلة والقوية واللون الأبيض وهي الصفات نفسها التي يتّصف بها سكان فلسطين وتختلف عمّن يجاورهم من الأقوام منهم وضعوا في الكتب المقدّسة بأنهم من القوم الجبارين أو العمالقة الأشدّاء.

هناك مصادر تذكر بأنه «كانت تقطن ضفاف دجلة والفرات

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١.

جنوب العراق ونهر كارون غرب إيران جماعة عرقية ودينية تعايشت مع سكان المنطقة ولعبت دوراً مهماً في عملية الإنتاج الاجتماعي»(١). فمعتنقي هذا الدين كانوا أكثر اختلاطاً بالمذهب الشيعي في جنوب العراق من غيره من الأديان والمذاهب الأخرى وكانوا سبَّ في معاش المنطقة فهم لفترة طويلة كانوا منتجي وسائل الإنتاج من أدوات الصيد والزراعة والنقل لذلك «تعدّ صناعة القوارب وآلات الحصاد والحوادة وصياغة المنيا (النقش على الفضة) حكراً على الصابئة المندائيين لفترة قد تمتد إلى ما قبل العصر العباسي»(٢).

وترى دراور في صلة المندائيين بالعراق أنهم «يرجعون مصدر جميع الأنهار والمياه إلى مصدر أصلي واحد هو نهر أبيض نقي في جبال تدعى (كريمله) وهذا المصدر الأصلي هو فراش زيوا أو فرات زيوا أي نهر الفرات وليس الأردن»(٣). والأكثر دلالة على علاقة المندائيين بالفرات ودجلة لا بالأردن هو ارتباط القيامة والعذاب بجفاف النهرين، فقد جاء في الكنزاربا: «لك من عمل باطلاً سيبقى هنا مكبّلاً بعذاب ربه إلى أن يجف الفرات من منبعه إلى مصبّه ويجري دجلة خارج مجراه إلى أن تجف جميع المياه في البحار وفي الجداول والأنهار والعيون والآبار بعدها»(٤).

---

(١) الحيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩.

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص٣٧.

(٤) الكنزاربا اليسار (ترجمة بغداد)، التسبيح الثامن، ص٦٤.

- «يوجد ما بين المندائيين والبابليين أكثر من شعيرة طقسية ورشيجة حضارية وكلّها تؤكّد أصولهم العراقية وما بينهم وبين الحرانيين غير اسم الصابئة»[١].

- ويلخّص المندائيان نعيم بدوي وغضبان رومي صلة قومهما بالعراق القديم بالقول: «الصابئون طائفة عراقية قبل أن تكون أي شيء آخر بل أننا كما تشير طقوسهما صلة الحاضر بالماضي البالي والأكدي والنبطي في العراق»[٢].

---

(١) المذاهب والأديان بالعراق، ص٤٦.

(٢) عزيز سباهي، أصول الصابئة، عن هوك، ديانة بابل، ص٧٦.

الصابئة في إيران

قبل الغوص في هجرة الصابئة إلى إيران وحياتهم هناك وكيف تعايشوا مع البيئة والمجتمع الإيراني، حرّي بنا أن نسلّط الضوء على إشارة تاريخية تتعلّق بجذور الصابئة التي تربطهم ببلاد فارس فإذا نظرنا إلى الآية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] لتفسير من وما المقصود من هذه الآية يمكننا لرجوع إلى عبدي الله ابن مسعود وابن عباس اللذين يقولان: «نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي وكان من أهل جندي سابور ومن أشرافهم»[٢].

«وهنا لا يقصد بديانة سلمان المسيحية أو اليهودية فالكثير منهما دخل الإسلام قبله وجاءت فيهما نصوص قرآنية كثيرة لم تحتج إلى تدخل أحد، سلمان أو غيره كما لا يقصد فيها المجوسية وإن كانت منتشرة في بلاد فارس حيث انحدار سلمان فالاحتمال الوارد أن سلمان الفارسي

(١) سورة البقرة، آية: ٦٢.

(٢) الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ص٢٢- ٢٣.

واسمه الحقيقي (روزبه) كان صابئياً مندائياً فللدين المذكور وجود ببلاد فارس والعراق وإيران»[١].

من هنا يطرح السؤال نفسه كيف اهجر الصابئة إلى إيران؟ وأين سكنوا هناك؟ وكيف كان واقع حالهم هناك؟

هاجرت طائفة الصابئة المندائية إلى إيران وسكنوا غرب البلاد وكان قد سبقهم بالهجر من فلسطين طائفة اليهود الذين سكنوا المناطق الشرقية والغربية من إيران.

من هنا «يطرح آية الله الخامنئي في رسالة نشرت عام ١٩٩٩ عددهم في إيران بأنه يبلغ خمسة وعشرين ألف نسمة كان جزءاً منهم من سكان العراق قبل قطع الأهواز عنها»[٢].

انتشرت الطائفة المندائية على نهر الكرخة وفي منطقة (دشت آزادكان) وقد تمكنوا من العيش بحرية تامة وحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم الدينية تحت حكم السلالة الإشكانية التي كانت بيدها مقاليد السلطة على خلاف ما عانوه في فلسطين من اليهود. وقد سهّل لهم الدين الإسلامي آنذاك كل أمورهم الدينية والدنيوية حتى القرن التاسع هـ حيث استولى المشعشعون على السلطة وأسّسوا حكومة مذهبية متعصّبة. عندها بدأ الصابئة بالهجرة من الحويزة إلى مدينة شوشتر هرباً

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص٣٥.

من التعسّف والمضايقات الدينية التي مورست بحقهم وقد انتشروا بجوار كارون وفي المحمرّة بجوار شط العرب (أروند رور) حيث تعايشوا مع سكان المنطقة وأطلقت لهم العنان بممارسة ديانتهم وتقاليدهم وأعمالهم الحرفية وقد رحّب بهم أهالي الجوار وسكان المنطقة وقدّموا لهم الاحترام ومنحهم رؤساء العشائر والقبائل العربية الأراضي الزراعية فاستصلحوها وزرعوها ولكنهم برعوا بالصناعة ولا سيما صياغة الذهب والفضة وصناعة قوارب الملاحة والصيد إضافة إلى صناعة آلات الحدادة والحصاد حتى أصبحت هذه المهارات حكراً عليهم فأتقنوها وبرعوا في تسويقها وتعامل معهم الجميع بودّ خالص لا يشوبه أي حذر وقد صار لهم لاحقاً مساكن في أراضيهم استخدموها للسكن والتجارة لذلك تجد لهم أهم محلات بيع وصناعة المجوهرات في الأهواز والخفاجية وعبادان والمحمرة وشوشتر وماهشمهر وبالتالي تمكّن أولادهم من دخول المدارس والجامعات وتساووا مع أبناء العرب بالحقوق والواجبات الاجتماعية وتراهم اليوم يلبسون الزي العربي وينطقون اللغة العربية وقد سافر كثير منهم إلى المناطق المجاورة ولا يزالون يعملون في صناعة وتجارة الذهب والفضة والأحجار الكريمة والمجوهرات على أنواعها.

نظرتهم إلى أصل الخليقة

إذا أردنا أن نبحث في أصل الخليقة فيجب أن نبدأ دون شك بآدم وحواء وبهما يبدأ الصابئة أيضاً انطلاق شجرة البشرية ويروي الصابئة قصة انبعاث حياة الإنسانية فيسمون آدم عليه السلام «آدم بفره» ويقولون بأن الله حينما أراد أن يخلقه على صورته أنزل «أثباهيل بن هيبل زيوا» إلى الأرض فخلقه على صورته من التراب وخلق حواء من ضلعه الأيسر ومن ثم أنزل الروح القدس إلى جسمي آدم وحواء وعلم الملائكة آدم كل ما في الدنيا من صنائع وحرف وجريان المياه وحساب الزمان، سنينه وأشهره وأيامه ثم أنزلت عليه الكتب المقدّسة الشاملة للعبادات والفروض ثم يتابع الصابئة القصة المعروفة عند كل الأديان والموقف الذي وقع بين آدم عليه السلام وإبليس عندما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس الذي يسمونه «هاديبشه» فرفض السجود معتبراً أنه أعلى مرتبة من آدم فقال: خلقني من النار وخلقته من تراب فكيف أسجد له؟ فلعنه الله وطرده من الجنة.

وعلى الرغم من توافق الصابئة مع المسلمين في هذه الرواية إلا أنهم اختصوا دون غيرهم من الديانات بالقول بأكثر من آدم وأكثر من

كوكب مأهول بالبشر ويقولون أنه آدمنا الذي خلق من طيف أرضنا ونزلت روحه من عالم النور بأمر الحي الأزلي وآدم الخفي «كسيه» وبهذا جابوا بسهولة على تساؤول أبي العلاء المصري:

إذا مـــا ذكـــرنـــا آدمـــاً وفـــعـــالـــه

وتـــزويـــج بـــنـــيـــتـــه فـــي الـــخـــفـــا

عـلـمـنـا بـأن الـنـاس مـن نـسـل فـاجـر

وإن جميع الخلق من عنصر الزنا[1]

ويعتبر الصابئة «أن الأبناء لم يتزوجوا إخوانهم إنما أرسلت البنات إلى عالم آخر فيه أناس مثلنا يسمّونه مشوني كشطه أي أرض العهد وجيء بفتيات من مشوني كشطه إلى أولاد آدم فتزوجوهن»[2].

وهذا ما يؤكّد قول الصابئة بأكثر من كوكب مأهول بالبشر وكما تذكرنا هذه العقيدة برواية إسلامية تقول بأن الله أرسل حوريات ليتزوّجن أبناء آدم.

ويتمتّع الصابئة بخصوصية فريدة في نظرتهم إلى المرأة وأصل وجودها فهم يقولون: «المرأة في نظر الدين من عالم غير عالمنا فقد أتت من عالم الطهارة»[3] وحجتهم في ذلك أن «آدم خلق من طين وحواء

(١) هادي العلوي، المنتخب من اللزوميات لأبي العلاء المصرين، ص٢٤٦.

(٢) أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص٢١٥، غضبان الرومي، الصابئة، ص١٦٧.

(٣) أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص١٦٧.

خلقت من جسمه وعلى هذا الأساس فسمية الابن باسم أمه على من تسمية باسم أبيه (آدم من طين أهوه، هوه زوي من كان أدنافشي أهوان) أي أن آدم من طين زوجته حواء من نفسه وبذلك فهي أطهر من الطين»[١].

ويعتمد الصابئة «بنظرية مماثلة لنظرية أفلاطون لعالم المثل حيث ينطلقون من فكرة وجود بشر يعيشون على الكواكب العليا فيسمون هذا العالم الآخر الذي يرافق العالم المادي «النماذج». ولا تدري هل كان هذا التوافق توارد خواطر أم تأثيرات فلسفية مباشرة قد يكون للحرانيين في نقلها دور ما ولا يستعد أيضاً في أن يكون الأمر امتداداً سومرياً وبابلياً حيث القول بوجود مجتمع الآلهة ومكانة العالم العلوي وخلق البشر على هيئته ونظامه»[٢].

انطلاقاً من هذه الفكرة يرى الصابئة أن لكل كائن وجواً علنياً ووجوداً سرياً متميزاً عن الوجود العلني وهو العالم الذي نعيش فيه وذلك لأنه أكبر وأوسع من عالمنا ولا يمكن مشاهدته ولكن المخلوقات فيع عن بشر مثلنا صابئة منزهون عن كل وصمة.

وتورد الخبيرة في الشؤون الصابئية الليدي دراور في هذا الصدد هذا القول: «أخبرني أحد الكهان أنه يوجد اثنان من كل شيء في

---

(١) المصدر نفسه، ن.ص.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٣.

الدنيا. الواقع ومقابله المثالي وأوضح لي: أن لكل شخص على هذه الأرض جسمه الترابي ويلتحق بالجسم الأيثري لشبيهه وفي هذا الجسم الأخير تعاني الروح آلام التطهير. أما الشبيه في شموني كشطه فهو لدى وفاة صفوة الأرضي يغادر جسده الأثيري الذي استقرّ به ويدخل في جسم نوراني وحين تكون النفس البشرية قد أتمّت دورتها التطهيرية وآذنت لها موازين أباثر بالانشقاق من أعبائها تدخل أيضاً في عالم الأوار ويتحدّ الاثنان»[١].

وهذا العالم العلني فاسمه «اره تيبل» أي الأرض البالية وهو عالمنا المتطوّر وآدم في عالمنا يدعى «آدم بفره» أي آدم المادي الذي يمكن أن نراه ونعيش معه وزوجته «تسمى حواء أما العالم السري فآدم فيه يسمى «كاسيا» أي آدم المستور ويسمّون زوجته (كانات) أي تامة الجمال»[٢].

ويشير هذا إلى تشابه العالمين وتماثل الوجودين السري والعلني وجاء في نص مندائي ما يؤكِّد ذلك على لسان المحتضر: «إذهب إلى شبيهي وشبيهي يأتي إليّ يتذكرني ويحضنني كما لو أنني خارج من السجن»[٣].

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص١١٠.
(٢) أقوام تجوّلت بينهم فعرفتها: ٦١.
(٣) دراور، الصابئة المندائيون، ص١١٠.

الصابئة في رأي الباحثين القدامى

لقد تعدَّدت آراء الباحثين حول ديانة الصابئة وكان كل باحث يسوق ديانتهم إلى اتجاه مختلف عن الآخر. فمثلاً يعطي الشهرستاني الصابئة طابعاً وحدانياً للخالق يتصف بصفات القدرة والقوة والعزّة فيقول عن مذهبهم بأنهم يعتقدون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدّساً عن سمات الحدثان «والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلالته وإنما يتم التقرّب إليه عبر وسائط مقرّبين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدّسون جوهراً وفعلاً وحالة»(١).

أما الرازي فيجعلهم من عبدة الكواكب ويستعين بقولهم: «إنّ مدبّر هذا الكون وخالقه، هذه الكواكب السابعة والنجوم».

ولكن الصحيح هو غير ذلك حيث سنصل معكم إلى نتيجة أن الصابئة مؤمنون موحدون أصحاب عقيدة كتابية جاء بها النبي وأنهم غير قوم إبراهيم كما ظنّ الرازي. وإذا أردنا استباق الأمور يمكننا أن نورد

(١) الشهرستاني، موسوعة الملل والنحل، ص١٢٦.

نصاً ورد في «الكنزاربا» يظهر تناقضاً فيما ينقل عن الصابئة وجاء في هذا النص: «لم أسجد لربّين»[1].

والدليل على ذلك أنهم إذا كانوا من قوم إبراهيم فيذكر في القرآن عزوف إبراهيم عن عبادة الكواكب بسبب أفولها فيقول الله تعالى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[2].

فضلاً عن أنهم يتبعون العقيدة الكتابية التي جاء بها النبي يحيى. وهناك دليل آخر وهو أن عبادة الأصنام أحدث من دين الوحدانية لذلك يمكن اعتبار الصابئة أصحاب دين موحّد كتابي. ولكن الرازي يتابع رأيه بأنهم «عبدة للأصنام ويصرّ على ذلك بأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها وأوجدوا حلاً لعبادتها عند غروبها وأفولها عن طريق تصويرها وتمثيلها فجسّدوها بأصنام اشتغلوا بعبادتها فظهرت من هنا عبادة الكواكب»[3].

ويحدّثنا الشيخ شمس الدين الدمشقي المعروف بشيخ الربوة عن الصابئة فيقسّمهم بحسب الدين إلى قسمين: القسم الأول ويشمل عبدة الكواكب وأصحاب الهياكل وهم الذين تكلّم عنهم الرازي. من هنا نلمح توافقاً بينه وبين الدمشقي؛ وأما القسم الثاني فهم الصابئة القائلون بالأشخاص ويعبدون الأصنام.

---

(١) الكنزاربا اليمين، ص٧٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٧٦.

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ١٢٥- ١٢٦.

ويعرّف الدمشقي القائلين بالهياكل بأنهم ورثوا عقيدتهم عن عاديمون وهو شيث النبي عليه السلام الذي أخذها عن أخنوخ وهو هرمس الهرامسة ويعتبر أن زعمهم هذا باطل ولا يؤخذ به. من هنا نلمح اعتراضاً من شمس الدين الدمشقي على أن عقيدة كهذه يمكن أن تؤخذ عن نبي من الأنبياء الله ومرسليه وهذا رفض منطقي.

وفي تعريفه لعبدة الأصنام القائلين بالأشخاص «نلاحظ في ثنايا عقيدتهم مفهوماً يحاكي جدلية الوحدانية والكثرة. فهم يبررون تبنيهم لهذين المفهومين في الخالق بأن المعبود واحد وكثير ويفسّرون ذلك بأن الواحد والوحدانية تكمن في الذات والأزل وأما الكثرة فلأنه يكثر بالأشخاص في رأي العين»(١).

ويزيد على ذلك الدمشقي بأن هذه الفئة من عبدة الأصنام يبرّر أصحابها عبادتهم للأصنام باعتبارها «صور روحانيات الكواكب لدورانها ويقولون بالأكوار والأدوار»(٢).

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر: ٤٤.

(٢) المرجع نفسه.

قولهم كي لا يقع التشبيه بين المخلوق والخالق

وكما وردت لهم تعبدات في شرائع منها أنهم زعموا أن «لديهم ثلاث صلوات كل يوم وعليهم صيام شهر وحرّموا لحم الجزور»(١). من هنا نلاحظ أن لديهم بعض الطقوس التي تتنافى مع تقديسهم للكواكب أو الأصنام لأنها قريبة جداً من عقائد الموحّدين. وزعم بعضه «أن الأرواح الخيرة تصعد إلى الكواكب الثابتة وإلى الضياء وإن الشريرة تنزل إلى أسفل الأرضين وإلى الظلمة»(٢). يأخذ هذا النمط من العقائد الطابع الخرافي الذي ساد على مرّ الأزمان ولا زال عند بعض الشعوب القليلة.

وهناك فريق آخر يقول بأن العالم لا يفنى وأن الثواب والعقاب في التناسخ واشتغلوا بالتنجيم والتسخير واعتبروا أنه لا بدّ من وسيط في العلاقة بين الله وبين خلقه وفي تعريف المعارف والإرشاد للمصالح ولكن يشترط في أن تكون هذا الوسيط روحانياً لا جسمانياً.

وقالوا مفسّرين ماهية هذه العلاقة وطبيعتها: «نحن نحصل لأنفسنا مناسبة قدسية بيننا وبينه فيكون ذلك وسيلة لنا إليه»(٣). ويدعم رأيهم هذا الشهرستاني بنص منقول عنهم: «إن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدّساً عن سمات الحدثان والواجب علينا معرفة العجز عن

(١) تلبيس إبليس: ٨٤.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

الوصول إلى جلاله وغنما يتقرّب إليه بالمتوسطان المقرّبين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة»(١) .

ويزيد ابن النديم على الذين سبقوه رابطاً بين عقائد فئة من الصابئة وبين تواجدهم الجغرافي فيقول: «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح هم صابئة البطائح يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلون ورئيسهم يعرف بالحسيس وهو الذي شرّع الملّة ويزعم أن الكونين ذكر وأنثى وأن البقول من شرع الذكر وأن الأكشوش من شرع الأنثى وأن الأشجار عروقه ولهم أقاويل تميل إلى الخرافة وكان تلميذ رئيسهم يعرف بشمعون وكانوا يوافقون المانوية في الأصلين وفيهم من يعظّم النجوم إلى وقتنا هذا»(٢) .

ولتبيان العلاقة بين الصابئة والمانوية يذكر لنا التاريخ حادثة قريبة إلى الملحمة أو الأسطورة وهي تقول: بدأت المانوية بصوت سمعه والدماني ناداه من الهيكل قائلاً: «لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً ولا تنكح بشراً تكرر ذلك عليه دفعات في ثلاثة أيام فلما رأى فاتق ذلك لحق بقوم كانوا بنواحي دستميسان (العمارة حالياً) معروفون بالمغتسلة وتبيك النواحي والبطائح إلى وقتنا هذا (القرن ٤هـ) وكانوا على المذهب الذي أمر فاتق الدخول فيه وكانت امرأته حاملاً بماني فلما ولدته

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٩ - ٤٤.

(٢) ابن النديم، الفهرس: ٣٤.

زعموا: كانت ترى له المنامات الحسنة وكانت ترى في اليقظة كأن أحداً يأخذه فيصعد إلى الجو ثم يردّه»[١]. ولا ندري إن كان اسم ماني مشتقاً من المانا المندائية «التي تفيد عدّة معاني، كل واحدة منها مناسبة لصفات الأنبياء وهي: العقل، الوعاء، النفس وقد تأتي بمعنى ملاك ذي مرتبة سامية»[٢].

نعود إلى علمائنا العرب لننتقل إلى ابن كثير في كتابه التفسير حيث يتطرّق إلى ذكر آراء العلماء حول الصابئة فنراه يجول جولة سريعة على أقوالهم ومنهم أبا حنيفة الذي تناول الجانب الفقهي في التعامل مع الصابئة فأحلّ أكل ذبائحهم بوصفهم أهل الكتاب مع أن ذلك كان مختلف فيه أيضاً.

وأما سفيان الثوري ناقلاً عن ليث ابن أبي سليم عن مجاهد يعبّر عن ديانة الصابئين بقوله: «الصابئون قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين» وقد تلاقى مع هذا الرأي آخرون عديدون مثل ابن أبي نجيح وعطاء وسعيد بن جبير وغيرهم.

وفي هذا الصّدد وضمن تصنيف الدين الصابئي في لائحة الأديان السماوية «يعدّ السيد محمد حسين فضل الله عن مؤرخين وكتاب مهتمين الصابئة فرقتين هما: المنديا أو نصارى يوحنا المعمدان وصابئة

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٤٤.

(٢) مصطلحات كنزاربا اليمين.

حران الوثنيين»[1] ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى مثل بحث «الصابئة المندائيون» لليدي دراور أي «أن الصابئة الذي ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا ولا شك في أن اسم الصابئة مشتقّ من الأصل العبري (ص ب أ) أي غطس ثم سقطت الغين وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين»[2].

وهناك فرقة جعل أصحابها الصابئة من أهل الكتاب وأن كتابهم الزبور لذلك حلّلوا ذبائحهم ومناكحتهم كما كان على رأي أبو حنيفة وإسحق. وأفراد هذه الفرقة هم: أبو العالية والربيع بن أنس والسّدي وأبو الشعثاء جابر بن زيد والضحاك وإسحق بن راهويه. وهناك رواية أخرى تنسبهم إلى ديانة المجوس على أثر قول هثيم بن مطرق: «كنا عند الحكام بن عتبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: «إنهم كالمجوس فقال الحكم: كم أخبركم بذلك». أما عبد الرحمن بن مهدي فقد صادق على أولئك الذين صنّفوا الصابئة بأنهم من عبّاد الملائكة إذ يقول نقلاً عن معاوية بن عبد الكريم: «سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال: هم قوم يعبدون الملائكة». وقد وردت نفس الرواية أيضاً عند ابن جرير.

وهناك معتقدات صابئية تتوافق مع هذا الرأي وهي «أنهم

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٣٤.
(٢) فضل الله، من وحي القرآن، ٢ ص٦٩.

يعتقدون بما يسمّى منداهيي الذي يقولون عنه بأنه أول من سبّح الله تعالى وحمده وأنه أحد الملائكة المقرّبين ويقولون اسمه في بعض البوثات (الآيات) باسم الرب تعالى ومن ذلك ما يرى التوسّل بالملائكة الذين يسمّونه بأسماء عندهم ويعتبرونهم من المقرّبين ويذكرون آدم ويحيى عليه السلام في عداد الملائكة ويسلمون على الأنهار المقدسة والأماكن المقدسة وعلى الحياة وسكان عالم الأنوار»(١).

ونجد أيضاً من صبغ دين الصابئة بصبغة إسلامية حيث قال ابن جرير: «حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئيين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية قال: فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة.

وفي هذا الصدد يقول الخامنئي: «من جملة عقائدهم التي يدعونها ويصرون عليها التوحيد»(٢). ولكن ما يزيد الأمر صعوبة وغموضاً هو وقوع كثير من المهتمين في حيرة وتناقض حيث «أكّد مرشد الدولة الإيرانية في حكم الصابئة المندائيين»(٣) هو «أن في عقائدهم جملة من العقائد التوحيدية الحقّة المقبولة وزمرة من الأباطيل المنافية للعقيدة التوحيدية الخالصة»(٤).

---

(١) سيد علي الخامنئي، الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية، ص٤٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الخيون رشيد، المذاهب والأديان في العراق، ص٣٦.
(٤) سيد علي الخامنئي، الصابئة حكمهم الشرعي، ص٤٢.

ويخبر ابن أبي حاتم نقلاً عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب بأنه أخبره ابن أبي الزنار عن أبيه قائلاً: «الصابئون قوم مما يلي العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمين كل يوم خمس صلوات».

ويقترب محمد جواد مغنية من هذا الرأي وبالأحرى من الصواب في وصفه الصابئين: «قوم يقرون بالله والمعاد وببعض الأنبياء ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير والشر والصحة والمرض ومنهم طائفة في العراق الآن»(١).

والجدير بالذكر أن وهب بن منبه عندما أراد تعريف الصابئي جعله موحداً ولكن في نفس الوقت لا يمارس أية شعائر دينية مما ينفي الرواية السابقة التي تجعل الصابئي يمارس بعض الطقوس القريبة إلى طقوس المسلمين ولكن مع ذلك يبرئ وهب بن منبه الصابئي من الكفر فيقولن: «هو الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً». وهناك قول يوافق قول وهب ولكنه أكثر تفصيلاً وتفسيراً حيث يقول عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: «الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلاّ قول لا إله إلا الله» قال: ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي وأصحابه: «هؤلاء

(١) مغنية، التفسير الكاشف، ١ ص١١٧.

الصابئون يشبهونهم بهم يعني في قول لا إله إلاّ الله». وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلاّ أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح. عليه السلام

ولكن النظر إلى واقع هذا الدين جعل الخامنئي «ينفي أن يكون الصابئة ديانة متفرّعة من الأديان الأخرى بل نظر إليها كديانة مستقلة»(١).

ويوضّح ذلك أن سُئل: «هل الصابئة يعدّون من شعب بعض الأديان الثلاثة: اليهود والنصارى والمجوس أو أنهم نحلة أخرى غير هؤلاء؟ والجواب كان: قد علم من بضع ما ذكرنا في توضيح النقطة الأولى فلا دليل على ما قيل وقد مضى ما نقلناه من كلمات بعض الفقهاء من أنهم شعبة من اليهود أو أنهم مجوسيون وأمثال ذلك مما نقله في الجواهر من غير واحد من الفقهاء كالشافعي وابن حنبل والسدي ومالك وغيرهم، بل لعلّ مقتضى ما ذكرنا الجزم بخلافه»(٢).

أما القرطبي فقد نقل عن مجاهد والحسن وابن أبي بخيح ما يجعل مأكلهم والزواج منهم محرّماً بما يخالف رأي ابن حنيفة فيقول: «إنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم». وأضاف القرطبي: «والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره

---

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٣٦.
(٢) سيد علي الخامنئي، الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية، ص٤٠.

بعض العلماء أنهم موحّدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم».

ويعود الرازي ويفسّر جعل الصابئة عبدة الكواكب بأنهم يعتقدون أن الله فوّض تدبير أمر هذا العالم إليها وجعلها قبلة للعبادة والدعاء وقال: هذا القول هو المنسوب إلى الكشرنيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام ردًّا عليهم ومبطلاً لقولهم.

رأي الباحثين المعاصرين في ديانة الصابئة

إنّ عقيدة الصابئة لم تحظَ باهتمام القدماء والعرب فقط بل أَوْلَى الباحثون المعاصرون بدلوهم أيضاً في هذا المجال.

فعباس محمود العقّاد يعبّر عن مدى أهمية دراسة عقيدة هذه الفرقة من خلال البحث في أصل هذه الفرقة وقدمها وتشابه شعائرهم مع شعائر أصحاب الأديان ويظهر ذلك من خلال قوله:

«والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون إلى أثل قديم لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية لم ينشأ في عصر حديث. ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية، يشتركون مع أصحاب الأديان في شعائر كثيرة ولا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشابهة له في إحدى الشعائر»[1].

من خلال هذا الحديث نقع في حيرة من أمرنا فيما يتعلّق بجدلية

(١) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٠٨.

مهمّة وهي هل أن للصابئة دين مستقل في ذاته أم أن دينهم ينبع من الأديان الأخرى. والظاهر بأنهم يتملكون ديناً يتميز بشيء من الخصوصية مع تشابه في بعض شعائره مع أديان أخرى إذ نلمح عند (أبو علي الماردي الشافعي)، رأياً في هذا الصدد فيقول: «يوافقون اليهود والنصارى في أصل معتقدهم وإن خالفوه في فروعه»[1].

ويوافقه على ذلك ما كتب في كتاب إبراهيم أبو الأنبياء حيث يتم التصريح «بأن الصابئة يشبهون البراهمة والمجوس والأورفيين أصحاب النحل السريّة كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين والفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية في تفسير الوجود والموجودات»[2].

ويتوقّف العقّاد هنا بعد هذا التحمّس لتوافق الصابئة مع الأديان والفلسفات ليأخذ نفساً عميقاً يحمل معه بعض التناقض وليظهر أنه على الرغم من أنهم يشبهون الجميع إلاّ أنهم يخالفون الجميع فيتابع قائلاً: «وهم ينكرون الأنبياء ويقولون إن الله لا يخاطب أحداً من البشر وإنما خلق الله الروحانيات أي الملائكة ثم تلبّست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية لّما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العباد حين يشاؤون فصنعوا لها صوراً من الأوثان وجعلوا اتجاههم إلى نجم القطب لأنه ثابت في مكانه»[3]. وهناك من انطلق من هذا الرأي ليأخذ موقفاً

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٤٣.

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٠٨.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٠٨.

متطرفاً مثل الزمخشري الذي قال عن الصابئة: «قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة»(١).

وعلى الرغم من ذلك فإذا تتبعنا الدراسات الحديثة لهذه الملّة نتفاجأ بأن الباحثين ثبت لهم «أن الصابئة يؤمنون بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى (آلمى دنهورو) وأن المذنبين يذهبون بعد الموت إلى عالم الظلام (اكمى دهشوخا)»(٢).

»فالإله عند المندائيين واحد وهو الحيّ القديم يكون منه (يردنا) أي الماء الحي العظيم ومن الماء كانت الحياة الثانية وهيا لملاك منداهيي العارف بالله وبقدرته ظهر الأثريون ينزل هؤلاء إلى عالم الظلام حيث المياه الآسنة والشياطين أرض العوز والنقصان ثم يأتي ملاك (هيبل زيوا) أي واحب النور على حدّ عبارة «الليدي دراور» لمطاردة ملكة الظلام (الروهة)»(٣).

من هنا نقع نحن القرّاء والباحثين عن الحقيقة في حيرة من أمرنا خوفاً من أن نغرق في تعقيدات هذه التناقضات فهل الصابئة يدينون بدين معين ويوحّدون الله أم أنهم لا دين لهم ولكن ينسجمون مع كل الأديان؟

---

(١) الصنعاني، ن تفسير القرآن، ١ ص٤٧.
(٢) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٠٨.
(٣) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٧.

ويزيدنا حيرة وصعوبة في ترجيح الحق مع أي فريق من الباحثين والعلماء إذ يعيد عبد العزيز الثعالبي الصابئة إلى كونهم عبدة الكواكب فيقول بشأنهم: «هي ديانة (عاذيموس) الأول وكانت في القديم من أعظم الأديان انتشاراً في العالم وكان منشؤها في العراق وكعبتها حران وهي في الأصل دين الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر»(١).

ولكن نلحظ أن الثعالبي أضاف جديداً على أقوال العلماء الذين سبق ذكرهم في الصفحات السابقة بأنه أعاد ديانة الصابئة إلى رأس لها أو مبشّر وراع لها اسماه «عاذيموس الأول» فضلاً عن أنه أعطاها أهمية كبرى وبحث في أصل ومكان منشئها.

ويضيف الثعالبي معمّماً ديانة الصابئة على العرب في القدم قائلاً: «أثبت التاريخ أن العرب كانوا يدينون بالصابئة منذ القرون الأولى وقد اتخذوا لها الهياكل وسمّوها البيوت وجعلوها معابد يقدِّسونها ويدينون بها ويدل على ذلك أنهم كانوا يسمّون أنفسهم عبيداً لها كقولهم (عبد شمس وعبد المشتري..)»(٢).

ويورد سيد قطب تفسيراً لكيفية توصّل الصابئة إلى التوحيد معتبراً أنه التفسير الأكثر وثوقاً ومصداقية من الرأي الذي يجعلهم عبدة النجوم والكواكب ويدعم تفسيره باعتبار «الصابئة من مشركي العرب

---

(١) محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان: ٢٢- ٢٥.
(٢) المرجع نفسه.

قبل بعثة الرسول ولكنهم لم يقتنعوا بعبادة قولهم للأصنام فبحثوا عن عقيدة ترضيهم وتوصلهم إلى الإيمان بإله واحد لذلك اهتدوا إلى عقيدة التوحيد فاتبعوا ملّة إبراهيم أي الحنيفية الأولى وتركوا عبادة الأصنام دون أن تكون لهم دعوة فيهم فقال عنهم المشركون: إنهم صبأوا أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك ومن ثم سمّوا الصابئة»[١].

وفيما يتعلّق بمزاولة الصابئة للعقيدة التوحيدية يقول الخامنئي: «من جملة عقائدهم التي يدعونها ويصرّون عليها التوحيد»[٢].

ويعبّر مصطفى جواد عن رأيه فيقول: «ويظهر لي أن أكثر صابئة العرب كانوا باليمن»[٣]. وقال الهمداني في كلامه على رئام: «أمّا رئام فكان متنسكاً يتنسّك عنده ويحجّ إليه وهو في رأس جبل أعلى من بلد همدان ينسب إلى رئام بن نهفان.. ثم قصر مملكته وقدام باب القصر حائط فيه بلاطه فيها صورة الشمس والهلال فإذا خرج الملك لم يقع صره على أول منها»[٤]. فإذا رآها كفر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه عن وجه يستره ثم يخرّ بذقنه عليها.

ثم قال في الكلام على «مذر»: «وفي مسجد مذر أساطين مما نزع

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٩٣- ٩٤.
(٢) سيد علي الخامنئي، الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية، ص٤١.
(٣) نقلاً عن الإكليل، ص١١٥- ١١٦.
(٤) يعني شيئاً قبلها، استعمل اسم التفضيل على حقيقته.

من تلك القصور وليس في المسجد الحرام قبلها وهي أكثف منها وأحسن بخرا كأنها مفرغة في قالب وقبالة قصر الملك منها بلاطة فيها مستقبلة للمشرق وصورة الشمس والقمر تقابلانه إذا خرج الملك»[1].

نلمح من خلال هذه الرواية مدى أهمية الكواكب عند الصابئة وفي هذا الصدد هناك حديث منقول عن أحد المندائيين يبرز لنا الأبعاد المعنوية التي يخفيها تقدير الصابئة للكواكب «فيقول غضبان روحي وهو واحد من بين أبرز المثقفين المندائيين واصفاً مستقبل العلاقة بين إنسان الأرض وإنسان الكواكب الأخرى حسب تصورات ديانته»[2] فيقول: «من ذريتهن تكوّن الإنسان الحالي الذي أخذ يزحف من عالمنا هذا نحو الكواكب الأخرى وليس ببعيد أن يصل في آخر المطاف إلى عالم (مشوني كشطه) وينزل ضيفاً على أخواله هناك مستقبلاً من أبناء عماته»[3].

وإذا أردنا العودة إلى الحادثة التي رويناها في الأوراق السابقة نلاحظ أن هناك نوعاً من السجود ورد فيها وهذا السجود من أركان عبادة الصابئة ويقول الهمداني مفسّراً ذلك: وهو في معنى قول الله عزّ وجلّ في بعض التفسير: «ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً»[4] ولكن أقول معلّقاً أنه حري بالهمداني أن يستشهد في هذا الموضع بقوله

(١) نقلاً عن الإكليل، ص١١٥- ١١٦.
(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٢.
(٣) أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص٢١٥؛ غضبان رومي، ص١٦٧.
(٤) نقلاً عن الإكليل، ص١١٥- ١١٦.

تـعـالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[١] وزيادة على ذلك: «قد أثبت القرآن الكريم أن قوم بلقيس كانوا يسجدون للشمس فهم صابئة العرب»[٢].

ويوضح عبد الرازق الحسني نظرة الصابئين المندائيين إلى الخالق التي تكتنفها صفات الوحدانية والتنزية عن الصفات الجسمانية إذ يقول: «يعتقد الصابئون (المندائيون) أن الخالق حلّ شأنه واحد أزلّي أبدي لا أول لوجوده ولا نهاية له منزّه عن عالم المادة والطبيعة لا تناله الحواس ولا يفضي إليه مخلوق وإنه لم يلد ولم يولد وهو علّة وجود الأشياء ومكوّنها»[٣].

ويضيف عبد الرازق الحسني «إن اعتقاد الصابئة بالخالق لا يختلف عن اعتقاد المؤمنين به وإن هناك (٣٦٠) شخصاً يأتون بعد الإله في المنزلة لأنهم خلقوا ليفعلوا أفعال الإله إلا أنهم ليسوا بآلهة ولا هم في عداد القديسين لأنّهم لم يكونوا بشراً مثلهم»[٤].

ويساند هذا الرأي كتابات صابئية تصف العلم الرباني وتحدّد محلّه

---

(١) سورة النمل، الآيات: ٢٢- ٢٣- ٢٤.

(٢) مجلة العربي، العدد ١١٦، ص١٠٨.

(٣) المرجع نفسه، العدد ١٢، ص٨١.

(٤) مجلة العربي، العدد ١١٢، ص٨١.

عند أشخاص مختارين وتشير هذه الكتابات إلى «الاعتقاد بأن المعرفة أو العلم الرباني (مندادهيي) إنما يؤتيه الله عباده المختارين الصادقين (بهرا زرقا) إما وحياً وإما إلهاماً وذلك هو صوت الحي الأقدم (شوت هيا قد مايي) أو فيضاً سماوياً وكشفاً وهو التجلي (جلا) أو بواسطة رسل أثيرين نورانيين»[(١)] .

ولكن هناك من يناقض هذه الوصايا الواردة في الكتابات الصابئية رافضاً إلقاء هذه المهمة الحسّاسة على عاتق الإنسان بل يجب أن تكون من اختصاص الملائكة حيث يشير الشاعر المعروف الصافي «إلى أن هناك من لا يعتقد بصلاحية الإنسان لحمل رسالة سماوية من غير الصابئة المندائيين وإنما ذلك من اختصاص الملائكة أو الكائنات النورية على حدِّ التسمية المندائية للملائكة»[(٢)] فيقول الرصافي: «لا ريب أن الله أعظم وأجلّ من أن يعمد إلى إنسان فيرسله إلى الناس ليخرهم عنه بما يريد فإن هذا لا يليق بذاته الفعالة المطلقة ولا بوجوده الكلي السرمدي»[(٣)] .

وبهذا القدر من آراء العلماء المعاصرين نكتفي متوصلين إلى نتيجة وهي أننا كلّما غصنا وتعمّقنا في أبعاد وخصوصيات هذه الفرقة نكتشف أن هناك أسرار كثيرة لا تزال مجهولة ويخبرنا عن ذلك الخامنئي

(١) ناجية المراني، مفاهيم صابئية مندائية، ص٩٩.
(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢١.
(٣) الرصافي، كتاب السيرة الحمدية، ص١٨٣؛ عن السيرة الحلبية: ١/ ١١٧- ١١٨.

قائلاً: «والحق الذي ينبغي الاعتراف به هو أننا لا نعرف من المعارف والأحكام الدينية لهذه النحلة التاريخية والتي أصبح المنتمون إليها موجودين بين أيدينا وفي عقر بلادنا شيئاً كثيراً تسكن النفس بملاحظته إلى معرفة أصحابها والباحث في هذا الموضوع يجد في حقل البحث الموضوعي فيه فراغاً كبيراً لم يسدّ مع الأسف»(١).

(١) سيد علي الخامنئي، الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية، ص٤٠.

رأي الباحثون الغربيون عن ديانة الصابئة

عند وصول العهد العثماني إلى عصر الانحطاط وظهور الرجل المريض تزامن ذلك مع بداية النهضة الأوروبية ممّا ساهم في ظهور جماعات من المستشرقين توغّلوا إلى بلادنا وأخذوا يجوبون أرجاء البلاد العربية والإسلامية وتخصّص كل فريق منهم بجانب من جوانب حياتنا فكان منهم من خاض غمار المجال العقائدي وتوصّلوا إلى نشر كتابات كثيرة عن عقائد الايرانين، وكان منهم طائفة الصابئين فمن الكتب التي نشرت في هذا المجال:

١. سيكلبرج. المصبة.

٢. أوليري، كيف انتقل العلم الإغريقي إلى العرب.

٣. ليدزبارسكي، ترجم كتاب الكنز العظيم (الكنز ربه).

٤. براندت، الدين المندائي.

٥. نولدكه، قواعد اللغة المندائية.

٦. جي. وونكريف، المندائيون ١٩٤٦.

٧. ماتسوخ، اللغة المندائية القديمة والحديثة، وقاموس في

الإنكليزية إلى المندائية. بالاشتراك مع الليدي دراور.

٨ـ رودولف كروت، المندائيون، ومن أفضل الكتب في هذا المجال.

٩. كتاب الليدي دراور «المندائيون في العراق وإيران» في قسمين:

القسم الأول: يتناول بعض العناوين التي تتعلّق بتاريخ الصابئين وتسميتهم وعاداتهم وتقاليدهم وشعائرهم الدينية ولغتهم بالتفصيل.

القسم الثاني: يختص ببعض الأساطير والقصص الدينية المندائية.

وقد تمّ التركيز على هذا الكتاب لأنه يعتبر موثوقاً أكثر وأكثر مصداقية ذلك لأن أهميته تكمن في أن الليدي دراور قامت بالاتصال المباشر بالصابئين في العراق وإيران «واستمرت هذه الصلة أربعة عشر عاماً أمضتها في دراسة ومشاهدة حتى ممارسة في بعض الأحيان لبعض المراسم لإتقانها وتسجيلها تسجيلاً دقيقاً. ولم تكتفِ المؤلِّفة بذلك بل شرعت في الوقت الحاضر بإعداد المرجع الأجنبي الرئيسي في دين الصابئين وفي لغتهم»(١).

وإذا أردنا أن نستعرض آراء بعض الباحثين الغربيين بصدد ديانة الصابئة يمكننا البدء بجولتنا من رأي الليدي دراور التي تنفي عبادة

(١) الصابئة المندائيون - المقدمة، ص٦.

الصابئة للأجرام السماوية ولكنها لا تنكر اعتقادهم بأن الكواكب هي أرواح ثانوية إذ تقول: «وفي الحقيقة فإن الصابئين لا يعبدون الأجرام السماوية غير أنهم يعتقدون بأن النجوم والكواكب تحتوي على مخلوقات حية هي أرواح ثانوية تابعة لأمر ملك النور (ملكا رنهورا) وأنها تتحكّم بمصائر البشر»(١).

وتضيف الليدي دراور متعمّقة في تفاصيل العبادة الصابئية وممارسات من الأرواح الشريرة «أن لبّ جوهر الدين الصابئي خلال جميع التقلّبات والتغيرات هو عبادة قوانين الحياة والخصب القديم فالحياة العظمى لديهم تجسيد لقوة كونية خلاّقة نافعة ورمز الحياة العظمى هو (الماء الحي). والاعتقاد بخلود الروح وبصلتهم الوثقى بأرواح أسلافها صلة إلهية مباشرة»(٢).

ويظهر أن بعض الباحثين الغربيين قد توصّل إلى معلومات أكثر دقّة وتختلف عن المعلومات السابقة التي وردت في الصفحات السابقة وهذا يدلّ على الاهتمام الواضح من قبل أطراف عديدة بعقيدة الصابئة. لذلك نجد البروفسور أوليري يربط بين أصل الصابئة وهويتهم بالجانب الجغرافي إذ يقول: «إن الصابئين الحقيقيين كانوا في الجنوب الغربي لا علاقة لحران بهم إن المندائيين في جنوب العراق أصل معمدي الآبار المسيحيين الأوائل والكتّاب الربانيين الذين حصلوا على اسم (المتعمدين)

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٠- ٣١.

من تطهّرهم المستمر كانوا يسمّون بالآرامية (بالصابئين) من أصل الفعل (صبأ الآرامي) بمعنى (يغطس ويتعمد)»[١].

يبدو أن البروفسور أوليري يفرّق بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين «ولعلّ أول المحدثين من فقهاء المسلمين الذي ميّز بنيهما هو محمد حسين الطباطبائي»[٢].

وكما لاحظنا أن هناك اجتهادات ودراسات وكتابات وآراء عديدة وتنوعه حول هذه الديانة إلاّ أننا لم نقبض على أمر ثابت أو حكم مسلّم فيه لذلك يبدو أمرها ما زال سراً غامضاً «لأنّ الصابئين لا يعرف من أسرار ديانته إلاّ القليل وبالتالي لا يبوح بها حتى لأبناء هذه الديانة أنفسهم فضلاً عن أن الصابئي لا يتقن لغة عقيدته الخاصة بالصابئة»[٣]. والسبب الآخر يكمن في انغلاق الديانة المندائية لأنها لا تقبل أحداً في صفوفها ولا تسمح لأبنائها بالزواج من غير بناتها ويعتبر الذي يخرج عن هذه القاعدة خرج عن العقيدة. وما يزيد من سريّة العقيدة أنهم يعيشون بالقرب من مجاري الأنهار ولا يخالطون أحداً إلا بقدر ضئيل.

(١) البروفسور أوليري .Greek Science, How it passed to the Arabs

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٣٤.

(٣) يؤكّد ذلك ما كتبه الأستاذ نعيم بدوي (أحد أبناء الديانة المندائية) حين قال: «إن رجال الدين الصابئي لا يعاونوننا لأنهم لا يقرون علنية الدين فذلك يتعارض وباطنيته إضافة إلى أن الدين ليس تبشيرياً يضاف إلى ذلك أن المثقفين من أبناء هذه الطائفة عموماً تنقصهم معرفة لغة الكتب الصابئية فهي كتب مدوّنة باللغة المندائية». [الصابئون المندائيون، ص٤- ٥].

الصابئة والتوحيد

بعد هذا العرض المطوّل لآراء ومواقف متعدّدة من علماء مختلفين آن لنا أن نثبت الحقيقة المختبئة وراء خفايا الدين الصابئي معتمدين على نصوص لهم وعلى بعض الآراء الموثوقة وفي التجارب الخاصة معهم. فحين تجوّلت بين الصابئين في أماكن تجمعهم في عدة مناطق كالاهواز الخفاجية والمحمرة وسوق الذهب في الاهواز وغيرها، تبين لي أن الصابئة المندائية يؤمنون بإله واحد قادر لا أول له ولا آخر ولا بداية ولا نهاية وهو الخالق والصانع والحي والباقي الذي لا يموت وهو نور السماوات والأرض ونوره يعمّ الكون وجميع المخلوقات على الدين والآخرة ولولا نوره الذي يبدد الظلام لما كان هناك وجود كوني ولا وجود إنساني ولهذا يصيبوا الصابئة ويتعبّدون ليلاً ونهاراً ويتقرّبون إلى الله بالعمل الصالح وبملائكته وبالأنبياء وبمبدعاته المدهشة في السماء حتى ينالوا الوصول إلى الجنة (عالم النور) المنورة بنور الله تعالى وليس هذا التقرّب بعيداً عن العقل والمنطق. وطبعاً كل ذلك توصّلت إليه عبر مشاهدتي لهم والتحدّث معهم. من هنا سأبدأ بضحض الرأي الذي يجعلهم من عبدة النجوم والكواكب عبر نص مندائي يحذّر من عبدة

الكواكب والنجوم الذي يقول: «لم أسجد لربّين»[1]. وهم يرفضون بغضب هذا الاتهام عندما «يصف المبشر الأمريكية (Zwemer) الصابئة بعبدة النجوم وأنهم يسيرون رجالاً ونساءً قبيل منتصف الليل ببطء بمحاذاة النهر متجهين إلى المشكنة (المندي)»[2] فيرد الصابئة على ذلك بغضب مؤكّدين «بأن نجوم السماء تلعب في حياتهم نفس الدور الذي تلعبه تقريباً في حياة شعوب الشرق الأخرى فهي تستخدم عند قراءة طابع المواليد الجدد أو عند تحديد الأيام أو الساعات المباركة للبدء بإنجاز أية قضية هامة كالسفر أو بناء بيت أو ما أشبه»[3].

ويبرز الصابئة دوراً آخر للكواكب حيث يقول الشهرستاني في مذهب الصابئة: «إن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله وإنما يتقرّب إليه بالمتوسطات المقرّبين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدّسون جوهراً وفعلا وَحالة»[4].

لذلك فإذا تقرّبوا إلى الله بشمسه ونجومه وملائكته أصبحوا عبدة النجوم والكواكب والملائكة، فكيف ينظر الصابئة لهذا لكون وخالقه!

ويمكننا أن نستعين أيضاً ببعض التراتيل في كتب الصابئة التي

(١) الكنزاربا اليمين، ص٨٤.
(٢) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٥٢.
(٣) أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص٢٥٤ و ٢٦٩.
(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ٢ ص٦.

تعدّ من صميم عبادات الصابئة لنؤكّد وحدانية الله برأي الصابئة فقد جاء في بث للأديبة «ناجية المراني» (الصابئية) في العدد التاسع من السنة الخامسة مجلة التراث الشعبي الصفحة ٢٤ نصاً لترتيلة من تراتيل العماد تقول:

«باسم الحي
وباسم معرفة الحي
وباسم الوجود الأزلي الذي سبق الماء
وكان قبل الضوء والسنى
ذلك الذي نطق فكانت كلمات
والكلمات كانت كروما
وكانت الحياة الأولى»[(١)]

ومن ضمن هذه التراتيل يوجد دعاء يذكر أثناء التعميد وهو موجود في كتاب (كلاستا):

«سعيت رافعاً عيني وذراعي إلى موطن الحياة والنور والمجد المكان الذي يهدي قاصديه ويسمع محدثيه ويجيب سائليه يوماً يوماً وساعة ساعة هذه الساعة أدعوك يا مولاي دعوة مخلصة واسعة من أجل

(١) ناجية المراني، مجلة التراث الشعبي، العدد ٩، السنة الخامسة، ص٢٤.

عبادك الراكعين إلى الأرض والرافعين أيديهم إليك الهاجرين النابذين كل خيال أو صورة أو صنم من طين أو نصب من خشب أو مشرعة باطلة والمتوجهين المتعبدين اسم الحي المتفرّد المقدّس..

كلنا أمامك عبيد مخطئون كل يد من أيدينا سارقة وكل شفة من شفاهنا كاذبة وأنت ذو الرحمة حين تكون معنا فلا سيطرة لأحد علينا أحكمنا بقضائك لا بقضاء الأرض واغفر لنا جهالاتنا ولا تحشرنا مع السادرين في غيهم من الناس لقد قست علينا الحياة الدنيا ولكننا لم نقع لأننا مزوّدون بالحقيقة حقيقتك أنت ومنها نستمد الثقة أنت الذي أسمعتنا كلمتك وأمرتنا بأمرك أطلبوا تجدوا.. أنت العالم ما في القلوب والفاهم ما في الأفكار والضمائر ولا يخفى عنك حتى ما تخفيه أعمق الظلمات. في دنيا الأنوار ستغفر خطايانا وذنوبنا وتقوم عثراتنا ستقبلنا طاهرين لا مذنبين وفاضلين لا رذلاء. ندعوك أن تدع قبساً من نورك يضيء دربنا وشيئاً من جلالك يغمرنا، أنت الشافي فوق كل من يشفي والرافع فوق كل من يرفع أنت يا من فتحت أبواب الحقيقة وكشفت الغامض وأوحيت بالحكمة وأوريت آياتك العظمى في القدس، عظيم هو اسمك ومسبح أنت الوجود الأزلي وأنت العرق وأنت الأب وأنت فوق الأرض والسماء وأنت المهيمن»[١].

إذا نظرنا إلى هذا الدعاء نستقي يقيناً بأن الصابئة كانوا يوحّدون

---

(١) مجلة التراث الشعبي، العدد ٩، السنة الخامس، ١٩٧٤، ص٤.

الله الذي ينزهونه في هذا النص عن كل الصفات التي تنسب إلى المخلوقات ويبدو التقديس له جلياً والإيمان به من خلال تحضير الصابئي لنفسه ولجوئه إلى الله كونه أمله وملجؤه الوحيد متوسّلاً بأمر الله للناس أن يطلبوا منه الحاجات لأن الإجابة محتومة.

فهل بعد الذي قرانا شك على إيمان الصابئة بإله واحد لهذا الوجود وهل وجدنا توجههم واعتمادهم على غير هذا الخالق القادر الشافي العظيم الأزلي! ألا يذكرنا هذا الغزل الصافي المقدّس للخالق الذي ورد في هذا الدعاء بالتراتيل والتسبيحات والمناجيات التي مرّت في الأديان السماوية التوحيدية؟!!

البحث في العقيدة الصابئية

لا عجب في اعتبار القرآن الكريم المعجزة الخالدة عبر الأزمان والأمكنة، فقد حَوَت صفحاته قصصاً وأحداث انطبعت في تاريخ أمم وشعوب كثيرة ومنها الصابئة. لذلك كان القرآن الكريم ملهماً للباحثين المسلمين للبحث والتنقيب والعناية بالديانة الصابئية نظراً لورود ذكرها في القرآن الكريم بوصفها ديانة كتابية سماوية كاليهودية والمسيحية.

ولكن كما هو الحاصل دائماً في أغلب الدراسات والبحوث، فقد اختلفوا في طبيعة هذه الديانة فمنهم من جعلها ديانة وثنية قائمة على عبادة الكواكب والنجوم والملائكة كامتداد لصابئة حران أو يسجدون إلى كأن تحت اسمه الآخرون عن جهل من العبادة المندائية المقدسة (بشمهيون اوهي ربي) وتعني باسم الحي ربي[1].

والجدير بالذكر أنهم كانوا مهددين دائماً بالخطر بسبب شبهات تتعلق بعقائدهم في جنوب العراق فكثيراً ما يحدث الاعتداء عليهم

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٨.

لقتلهم وشبهات عقائدية تدور حولهم أقلّها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم أو يزهقون أرواح المحتضرين[١].

ومنهم من ردّ جذور العقيدة الصابئية إلى حضارات بابل وأشور وآخرون جعلوا أهلها من المجوس وأخيراً وجد فريق ضمها مع الديانات السماوية يعامل أبناؤها معاملة الكتابيين ولهذا أخذت منهم الجزية آنذاك.

وهناك فريق جعلهم ملحدين وجرّدهم من الدين فقال بعض الباحثين منهم: إنهم لا يعتقدون بدين أو شريعة، ومنهم من قال بأنهم طائفة من المشركين لا كتاب لهم.

(١) نفس المصدر، ص١٩.

التعميد

من أهم الطقوس المندائية يأتي في الدرجة الأولى التعميد (المصبتة) وذلك «لارتباط طقوسهم بالماء إذ نحت اسمهم من عملية الارتماس في الماء الجاري ويعني مصبته وهو مأخوذ من صبأ الأراحية أي اغتسل»[1] فالماء يأخذ في عقائد الصابئية حيزاً كبيراً فهو لا يعتبر رمزاً للحياة فحسب بل إلى درجة معينة الحياة نفسها ذلك لأنه مصدر استمرار البشرية وخصب الحياة والنسل. إن الماء يحتوي على سائل قادر لا على إخصاب الأرض فقد بل النساء أحياناً، حيث يظهر في سيرة يحيى المعمدان: «لقد أعطى انش أثرا، انشبي ماء من اليرونة لتشرب ومن ذلك أصبحت حاملاً وزكريا وانشبي كانا شيخين وحدث أن شربت ماء وأصبحت حاملاً من ذلك الماء»[2].

ولتبيان مدى أهمية الماء ومكانة التعميد بالنسبة للصابئة نتوصل بالعلاقة الجدلية بين الماء والنور لأن الماء الذي يعكس النور برأيهم

---

(١) نفس المصدر، ص٥١.

(٢) دراور، الصابئة والمندائيون، ص١٦٨.

يعد شكلاً من أشكالا النور ولإثبات ذلك تقول دراور حول هذه الجدلية: «تتصل كلمة نهر المستعارة ربما من اللغة العربية نهر ويرينا الأصل نهر كم وثيقة العلاقة بين معنى النور والماء في الفكر السامي ففي اللغة المندائية لدينا كلمة نهر ونهورا أي نور وفي العربية لدينا نهر ونهار»(١).

والمغزى خلف هذه الممارسة للتعميد أنها تعتبر احتفالاً ديني يحوي إجراءات وصلوات تتوافق مع طقوس الاغتسال ينتج عنها ارتداءاً لشخص المتعمّد حلة النور ومستشفاً ماء الحياة لتقوية جسمه هو واحد من المناقيل التسعة يكون منها ثمانية ماء أرضي والتاسع ماء الحياة فيجلب هذا الشخص المتعمّد جميع خواص هذا الماء السماوي.

والعماد المندائي يمارس بثلاثة أنواع كل نوع يحتاج إلى مستلزمات وشروط وله أهداف ووظائف:

١. مصبوتاً:

«وهو العماد العام ومن مستلزماته الماء الجاري الذي عوض عنه فيما بعد بأحواض الماء التي تقام عادة داخل المندي مع إكليل الريحان أو الآس إشارة إلى الحياة والطيب، وكل يشترط الملابس الدينية»(٢).

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٠.

(٢) مجلة مندائي: ٤٢/ ١٩٩٤.

وخلاف المجوس واليهود والمسيحيين يقول المندائي عند المصبوتا:

«رسمي لا يكون بالنار ولا بالزيت ولا بالمسح رسمي بالماء العظيم ماء الله الحي»[١].

أما الذي يقوم بإجراء هذا التعميد فهو الكاهن يوم أحد ويستخدم هذا النوع من التعميد الكامل للقضاء على نجاسات كبرى كالزواج، الولادة، التماس مع الميت وأيضاً للتطهير من خطايا أخرى كالكذب والنميمة ويجب أن يقوم المندائي بالمصبتة بعد أي عراك حار وبعد أي عمل يخجل المرء من إتبانه والخطايا الكبيرة كالسرقة والقتل والزنا التي تتطلب أثر من عماد واحد.

٢. العماد الشخصي:

ويسمى (طماشة) وهو مجرّد اغتسال عن النجاسات كالجنابة[٢]، وغيرها ولهذا العماد طريقة خاصة في متمارسته حيث يجب أن تتم الطهارة في الماء الجاري ثلاثة دفعات متتالية دون الاستعانة بأحد والنفاس وبعد لمس الميت وبعد المضاجعة والاحتلام والاتصال بشخص نجس وهو واجب على المرأة بعد الولادة.

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٦.

(٢) نفس المصدر، ص٥٦.

٣. النوع الثالث يسمى (رشامة):

وهو بمثابة «الوضوء ثلاث مرات يومياً وتغسل خلاله أعضاء الجسم الخارجية»[١].

من هنا نلتمس مدى احتلال التعميد والاغتسال المكانة الواسعة في حياة الصابئة خاصة في المناسبات والأعياد ومراسم الزواج حتى للكبار يكون التعميد الطقس الأساسي في العقيدة الصابئية.

في مدينة الاهواز يتعمدون الصابئة المندائية في نهر كارون وفي منطقة المزرعة نهر شاور وفي المحمرة نهر اروندرود والخفاجية (سوسنكرد) نهر الكرخة.

(١) نفس المصدر، ص٥٦.

الصلاة عند الصابئة

المعروف أنه في الإسلام الصلاة فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة ولها أبعاد ومعان معنوية كثيرة كذلك نجد عند الصابئة فالصلاة فرض مكتوب ولها أوقات مخصصة وكيفية محدّدة. وهي عبارة عن قراءة وتبريكات مع الانحناء كلما وردت كلمة السجود في النص المقروء كقولهم: «قوموا أيها المسلمون المؤمنون اسجدوا وسبِّحوا لله العظيم»[1].

وهناك أذكار كثيرة تتلى أثناء هذه الصلاة قد تستغرق الساعة وربع الساعة تقريباً ومن جملة هذه الأذكار دعاء الاستغفار الذي هو طقس يمارسه الذابح أو صلاة لمغفرة الذبح وجاء فيه: «ليباركني اسم الله المتعال واسم الملك ملكاً مندارهي المقرب من عرشه أنني قد أدّيت عمل الذبح بسكين حديدية بأمر من الله تعالى وأنه غافر لذنوبي اللهم اغفر لي ذنوبي وارحمني ولا تحرمني من شفاعتك ليباركك اسم المتعال وملكاً مندواهيي»[2].

---

(1) نفس المصدر السابق، ص٥٧.

(2) برنجي، الصابئة المندائيون، ص٢٣٧.

أما أوقات الصلاة عندهم منهم يعتبرون أنها في عهد آدم كانت سبع: الصبح والظهر والعصر والمساء والعشاء وصلاتين فيما بينهما ولكن النبي يحيى أراد تخفيف الأمر عليهم فعلها في ثلاثة أوقات: قبل طلوع الشمس وعند زوالها وقبيل غروبها.

ويفضل الصابئة أن يخصص يوم الآحاد لصلاة الجامعة وهذا يذكرنا بيوم الجمعة التي يعتبره أقدس الأيام وتخصص فيها صلاة الجماعة لذلك يظهر أن يوم الآحاد عندهم كان يوماً مميزاً. «إضافة إلى صلاة الجماعة التي تقام في المندي هناك صلاة شخصية يصليها المندائي في مناسبات معنية والقبلة عند الصلاة جهة الشمال وذلك للاعتقاد بأنها الجهة المباركة»(١). ولهذه الصلاة شروط وسمات يجب أن يتبعها المصلي حيث يجب أن تكون ثيابه طاهرة وأن يتقدم إلى الصلاة حافي القدمين رافعاً يديه مع انحناء قليل ويتلو سبع أذكار يمجّد فيها الخالق ويدعه بأسمائه الحسنى.

ويظهر لنا أبعاد الصلاة المعنوية وأسرارها من خلال نص يحفظه الصابئة عن النبي يحيى يقول:

«أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وإن مثل ذلك كمثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسّره أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٥٧.

فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»، ويقول أيضاً: «أمركم بالصلاة فإن الله يضب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا»[١].

من خلال هذا الحديث يدعو النبي يحيى قومه إلى أن يشكروا الله وحده من خلال هذه الصلاة لأنه هو الأجود بذلك ويضرب لهم مثلاً من واقع حياتهم لتقريب الصورة إلى أذهانهم ويطلب منهم أن لا يشركوا به شيئاً.

(١) مجلة التراث الشعبي، العددان ٦- ١٧ السنة الخامسة ١٩٧٤، ص٦٤.

الصيام في العقيدة الصابئية

الصوم أيضاً واجب مفروض على الصابئة وهو طقس مهم جداً إلى درجة أن ريح الصائم مقدّس كما في قول النبي يحيى: «وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرّه من مسك في عصابة كلمهم يجد ريحاً وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[١]. من هنا يصوّر النبي يحيى بالمراد الذي يحمله الصائم لآخرته ولشدّة أهميته يأمر قومه.

«والصوم عند المندائية ستة وثلاثون يوماً متفرقة على مدار السنة تختم عادة بالأعياد»[٢] ولكن ورد في مصدر آخر أنهم يصومون ثلاثين يوماً أولها لثمان مضت من اجتماع آذار وتسعة أخر أولها لتسع مضين من اجتماع كانون الأول وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط[٣].

أما اليوم فالصوم عند الصابئة انحصر «بالامتناع عن أكل اللحوم فقط ويحرّم في أيامه ذبح الحيوان»[٤]. وهذا يدل على أن الصوم ليس

---

(١) مجلة التراث الشعبي، العدادان ٦- ١٧ السنة الخامسة، ١٩٧٤ن ص٦٤.

(٢) مرانى ناجيه، مفاهيم صابئية مندائية، ص١٤٥.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢١٩.

(٤) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٧.

مغزاه الإمساك عن الطعام بل الهدف أن يشعر الصابئي بجوع المحتاج الذي لا يستطيع الحصول على اللحوم ليسدّ جوعه لذلك الصوم عند الصابئة يخفي وراءه رسائل وتعاليم عديدة من بينها هذا القول: «امسكوا أفواهكم عن قول الكذب لأن الذي يحل في قلبه البغض ليس مسلماً»(١).

وتسمى الأيام التي يحرّم فيها أكل اللحوم أثناء الصيام «بالمبطلات وهي ٣٣ يوماً حيث يبطل فيها النحر»(٢). وقد قاموا بتحضير جدول بالأيام التي يحرّم فيها الذبح أي أيام مبطلة هو على الشكل التالي:

الشهر	اليوم
١. شباط (شهر العيد الكبير)	من ١ إلى ١٤ و ٢٢
٢. آذار	٢٥
٣. نيسان	
٤. أيار	١، ٢، ٣، ٤
٥. سيوان	
٦. تموز	٩، ١٥، ٢٣
٧. آب	
٨. أيلول (شهر البنجة)	٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠ الأيام الخمسة التي تسبق البنجة.
٩. تشرين	١ بعد البنجة مباشرة
١٠. شروان	
١١. كانون	٢ اليوم الأول فيه عيد دهقة دمانة.
١٢. طابيت	٢٨، ٢٩ كنشي وزهلى مع اليوم الثلاثين منه.

(١) مراني ناجية، مفاهيم صابئية مندائية، ص١٤٥.

(٢) الصابئة المندائيون، ص١٠٦.

كتب الصابئة

يعتبر الصابئة المندائيون آثر من آثار التاريخ الحية فوجودهم يذكّر بأنبياء ورسل نسخت الأديان المتعاقبة شرائعهم ولم يبق منهم غير صحف نوح وإبراهيم فالمندائيون يقولون: «أنهم أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض وإن كتبهم هي صحف سادة البشرة الأولين أي آدم وشيت وإدريس ونوح يرفعهم إلى مصاف بدايات الأديان والشرائع الموحّدة في التاريخ»[1].

لذلك وقبل البدء بالغوص في كتب الصابئة لا بدّ من تحديد جذور وبدايات هذه الكتب «يعتقد الصابئة بأنهم توارثوا كتبهم المقدّسة بصورها الحالية عن آدم ومنه انحدرت إلى نوح وبعد الطوفان إلى سامٍ ثم إلى ولده رام حتى وصلت إلى يحيى بن زكريا ولكن على الرغم من ذلك فإن أكثر من باحث في شأن المندائيين أبدى صعوبة البحث في كتبهم الدينية بسبب تاريخها المجهول وموضوعاتها الشائكة»[2]. ويعود السبب في ذلك إلى أن الصابئة يمنعون أصحاب العقائد الأخرى من الاطلاع

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص١٩- ٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٣.

على كتبه المقدّسة لأنهم يرون في هذا الاطلاع خطراً على عقيدتهم فهو أمر محرّم يؤثم فاعله.

والجدير ذكره أنّ الكتب المقدّسة المندائية، بل قام الكهان بنسخها باليد والصابئة يتمسّكون بهذه الكتب بشدّة ويحافظون عليها لأنهم يعتقدون بأن امتلاكها يحميهم من الشرور في الدنيا والآخرة.

وتكتب هذه الكتب باللغة المندائية ومع ذلك فقليل من عامّة الصابئة يستطيع قراءة هذه اللغة أو كتابتها وذلك لأن تعلّم هذه الكتب محصور برجال الدين ولكي تبقى اللغة المندائية حكراً على رجال الدين والكهان يمنع تعليمها لأبناء الشعب كتابة وقراءة وذلك كما ذكرنا لأن أمر تعلّم اللغة والاطلاع على هذه الكتب أمراً محرّماً.

وتغلف الكتب المقدّسة تغليفاً تاماً بالخام الأبيض وتربط بأشرطة من الخام أيضاً «وإذا كانت الحروف المندائية مقدّسة فميز الكتابة من القداسة أن لا يصنعه غير الكهنة وأن لا يصلح لرسم حروف غير الحروف الدينية»[(١)]. و «لكل كاهن تقريباً تركيبه الخاص لعلم الحبر (ديوثا) الذي يحفظ على شكل بلورات تذاب في الماء حين يراد استعمالها»[(٢)].

أما طريقة تحضير الحبر المقدس هي: «امزج الغراء بماء النهر

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٥٥.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص٦٩.

«وهذه الطريقة تناسب الورق العادي يذكرها صاحب «صبح الأعشى» وموادها: العفص الشامي والآس والماء والصمغ العربي والزاج القبرسي ويضاف إليه دخان من أجل السواد، والعسل من أجل حفظه فترة طويلة والصبر كمادة شديدة المرورة لطرد الذباب. أما الحبر المناسب للورق فيكون براقاً بلا دخان وكتابة فواتح الكلام قد لا تكون بالحبر العادي بل تكتب بالذهب بعد أن يحلّ وركه المستعمل في الطلاء في شراب الليمون الصافي النقي ويغسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ويترك ساعة حتى يرسب الذهب، ويضاف إليه قليل من الحبر (الليفة) أي اللاصق بالدواة ويضاف إليه الزعفران والصمغ المحلول»(١).

وقبل البدء بالحديث من كل كتاب على حدة من كتب الصابئة يجب الإلفات إلى أن «الذي يدرس كتاب المندائيين ويقارنه مع نصوص القرآن ويدرس ففهمهم ويقارنه مع الفقه الإسلامي سيجد الموافقة واضحة بين الديانتين»(٢).

وإذا أردنا أن نسرد كيفية إيجاد الصابئة لكتبهم المقدّسة يمكننا القول أنها لم تنزل دفعة واحدة بل تدريجياً ويمكننا أن نستدل على ذلك من خلال دور النبي إدريس في حفظ هذه الكتب فالتاريخ يذكر لنا أن «النبي إدريس عند الأديان الأخرى يعتبر أحد عظماء المندائيين من

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٤.

النوصرائيين العرافين في الدين وكان يحفظ على ظهر قلب الكتب المقدّسة ويحتفظ بها في مكان مقفل كما أنزلت من الحي الأزلي على آدم أبي البشر وفي يوم من الأيام وجد كتاباً جديداً موضوعاً على الكتب الأخرى فمزّقه لعدم معرفته بحقيقته لكنه أينما ذهب يجده أمامه وفي كل مرة يمزّقه ويحرقه ويظهر له كاملاً في مكان آخر فاجتمع النوصرائيون الأربعة والعشرون فتوصّلوا إلى أن هذا الكتاب منزل من الله ولا بد أن يقرأ مثل الكتب الأخرى. غير أن الكتاب الجديد قاد إلى عبادة القمر وظهر كتاب آخر دلّ على دين آخر وهكذا أخذت الكتب تظهر لدنانوخت واحداً بعد الآخر حتى ظهر له الكتاب السابع»(١).

عرفنا إلى هنا أن هناك سبعة كتب ظهرت ولكن نتفاجأ عندما نعلم أنه كان لهذه الكتب تأثيرات سلبية على النوصرائيين وأنه لم يقتصر الأمر على سبعة كتب فقط التي «أدّت إلى تفرق النوصرائيين إلى مذاهب باطلة ليس نبيها مذهب الحق وبعدها نزل كتبا ثانٍ كان يشعّ نوراً من البداية ويحتوي على المعرفة الكاملة بالله فبعد قراءته انتصب أمام دونانخت ملاك نوراني هو هيبل زيوا دعاه إلى العروج معه إلى السماء»(٢).

ولكن مع ذلك يجدر بنا أن نذكر قول هارون الرشيد حول الكتب السماوية وما ادعتها الصابئية منها منذ ذلك الزمان بالآتي: «جميع

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٥.

(٢) المرجع نفسه.

ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب، من ذلك مائة صحيفة أنزل الله تعالى فيما بين آدم وموسى فأول كتاب أنزله الله جلّ اسمه على شيت عليه السلام وهي إحدى وعشرون صحيفة والكتاب الثالث أنزله الله على أخنوخ (مصحف من الاسم المندائي دنانوخت) وهو إدريس عليه السلام وهو ثلاثون صحيفة والكتاب الرابع أنزله جل اسمه على إبراهيم عليه السلام وهو عشر صحائف»(١).

نلمس من هذا القول عمقاً ودقة وتفصيلاً في تاريخ الكتب الصابئية «ولكن رواية النديم عن هارون الرشدي تجعلنا نشكك فيما ذهب إليه الكرملي إلى أن تاريخ كتابة «الكنزاربا» كان بداية القرن الثامن الميلادي ولا ندري لماذا السنة (٧٠٨م) بالذات وكيف عده مترجم الرشيد من الكتب الأولى»(٢).

هذا بالإجمال ما يتعلق بالكتب ولكن عددها لم يقتصر على ثمانية بل ظهر العديد من الكتب المقدّسة والمخطوطات المندائية وهي: «كنزاربا، سيدر، أدنشماته، النياني، القلستا، ترسو ألف شياله، حران كويثا، الم ريشايه، مصبته هيبل زيوا، ديوان أياثر، دراشه اديهيا، تفسير البغرا، سفر ملواشه، رزستا، القماهي، شرح بارونا»(٣).

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٢٤- ٢٥.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٤.

(٣) دراور، الصابئة المندائيون، ص١١٧- ١١٨.

١. كنزاربا :

ويطلق على هذا الكتاب عدّة أسماء : الكنز العظيم ، (سدرة ربه) الكتاب العظيم أو كتاب آدم على أساس أن الصابئة يعتقدونه صحف آدم.

ويتميّز هذا الكتاب بأنه يتألّف من قسمين يميني وشمالي، فإذا أمسكه أحدهم من القسم اليميني، كان قسمه الشمالي مقلوباً أي يكون أعلاه أسفله وإذا أمسكه من القسم الشمالي، كان قسمه اليمين مقلوباً فيستطيع شخصان جالسان على ضفتي الساقية الواحدة أن يقرأ فيه في وقت واحد.

٢. دراشهة اويهيا (سدرا ديهي) :

ويدعى تعالمي يحيى أو دروس يحيى. ويتضمّن حياة النبي يحيى من بدء ولادته العجيبة وتربيته في الجنة ثم نزوله إلى الأرض، ليبلّغ رسالته، إلى تاريخ وفاته، وصعوده إلى السماء. كما يتضمّن تعاليمه وإرشاداته الدينية ويقولون أن الملاك جبرائيل أوصى يحيى أن يضع هذا الكتاب ويسميه بهذا الاسم، وقد ترجمه إلى اللغة الألمانية المستشرق الألماني مارك ليدزبارسكي سنة ١٩١٥.

٣. سيدرة آد تشماته[١] :

هذا الكتاب بالنسبة للصابئة أساس الديانة الصابئية ويعتقدون بأنه

(١) أي طقس التعميد، وسر المعمودية المقدّسة.

نزل على سيدنا آدم أما الأمور التي يتخلّلها فتتعلق بما يجب الإتيان به من مراسم في مناسبات الجناز وتلقين الأموات، وكيفية دفنهم وأسباب تحريم البكاء أو الحداد، ويبحث في مواضيع أعمق من ذلك فيشرح كيفية انطلاق الروح من الجسد حتى وصولها إلى عالم الأنوار (آلمي دنهورا). وقد نقل المستشرق (ليدزبارسكي) القسم المختص بـ (طقوس التعميد) إلى الألمانية سنة ١٩٣٠م «ونشر الكتاب بنصه المندائي في المجلد الخامس من مجموعة (Missions Scientifique en perse J. de Morgan) في باريس عام ١٩٠٤ بعناية.

وهذا الكتاب أنزل بواسطة هيبل زيوا (جبرائيل) على آدم وشيت وإدريس ونوح كمجموعة من الصحف نزلت بفترات مختلفة إلاّ أن أسماء وأحداثاً عديدة دخلت في الكتاب تصل إلى زمن يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، ومع أن الصابئين يعتقدون أن كتاباً من كتبهم نزل على يحيى بشهادة القرآن»(١) والآية التي يعتمدونها لتدعيم رأيهم هي: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(٢) غير أن المفسرين المسلمين كافة يشيرون إلى أنه كتاب التوراة لا الكتاب المندائي. وقد ترجم هذا الكتاب منذ عام ١٨١٣ على يد (ماثيو نوربيرغ السويدي) بحروف سريانية مع ترجمة لاتينية في أربع مجلدات في كوبنهاغن، كما

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٣.
(٢) سورة مريم، آية: ١٢.

ظهرت له ترجمات أخرى، كان أفضلها ترجمة البروفسور (ليدزبارسكي) إلى اللغة الألمانية وطبع عام ١٩٢٥.

وإذا تبحَّرنا في محتوى هذا النوع من المخطوطات المندائية نجده شاملاً لمواضيع عديدة مصاغة في فقرات عديدة تتحدث عن نظام التكوين العالم، وحساب الخلقة وادعيته وحكايات. وهناك قسم آخر من الكتاب يحدِّد (بقسم الشمال) يعالج شؤون الميّت.

«ويختلف الصابئة في تحديد زمن كتابة هذا الكتاب فمنهم من يرجع كتابته إلى ما قبل النصرانية، ومنهم من ذهب إلى أنه من عهد يوحنا المعمدان»[(١)].

٤. كتاب القلستا:

وهو كتاب يبحث في طقوس الزواج وقوانينه وشروطه ومراسمه، والاحتفلات التي تقام في أثناء العقد والأناشيد التي تتلى فيه وكيفية تحليل النكاح الشرعي وإجراء الخطبة.

(١) في خزانة المتحف العراقي نسخة كاملة من الطبعة الأولى برقم مطبوعات (٤٧٦٢/٤٧٦٦) وهي نادرة جداً وتضم الخزانة أيضاً نسختان من هذا الكتاب برقم (٢٥٣) وهي ١٦٨ + ٤٤٢ صفحة بقطع ٣١ × ٢١سم رقم الثانية (١٤٤٠) وهي في ٤٩١ + ١٨٢ صفحة بقطع ٣١ × ٢١سم وتحوي كل صفحة عشرين سطراً.

٥. اسفر ملواشه[١]:

وهو مخطوط يبرز مدى ارتباط الصابئة بالفلك[٢] فهو مخصص لأغراض التنجيم والفلك ويعتبر مرجعاً يستعين به الصابئة لمعرفة حوادث السنة المقبلة ولمعرفة البرج الذي ولد الشخص به، «فيستنبطون منه اسمه المقدّس الذي يبقى محفوظاً لديهم»[٣]. والجدير بالذكر أن الليدي دراور نشرت هذا الكتاب بنصه المندائي لسنة ١٩٤٩ فجاء في ٢٨٩ صفحة كما نشرت له ترجمة باللغة الإنكليزية.

٦. تقسير بعزه:

يختص في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعمة المناسبة لكل طقس مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله، ويعالج المعنى الداخلي للوجبات الطقسية.

٧. كتاب الديونان:

ويسمى (الديوان) وهو كتاب ضخم يعدّ من أنفس كتب الصابئة فيه قصص بعض الروحانيين مع صورهم وهو قليل الوجود.

---

(١) اسفر ملواشه: أي كتاب البروج.

(٢) عتقد المندائيون انطلاقاً من اهتماماتهم الفكلية بوجود بشر خارج كواكب الأرض فالكواكب السماوية عندهم مادون عالم النور اتخذت سكناً للبشر الشبه روحيين والكائنات النورية وكتبهم الدينية ترشد إلى عوالم يسكنها بشر قبلنا وتركز بالدرجة الأولى على عالم العهد مشوني كشطه وتذكر أيضاً أن البشر في هذا العالم لا يختلفون عنا كثيراً.

(٣) الصابئون، ص٨٩.

٨. أنياني:

يتحدّث هذا الكتاب عن الطهارة الصغرى (الوضوء) -الرشامة- وبعض الأدعية للمسخثة (الغفران).

٩. ترسسر ألف شياله[١]:

ويتألّف من خمسة أجزاء «يتناول الجزء الأول، الأخطاء على الطقوس وطريقة غفرانها وإيضاح الشعائر»[٢].

١٠. ديوان طقوس التطهر (طراسه):

وهو كتاب يبين طرق التعميد بأنواعه على شكل ديوان، والتكريس بأنواعه، كتكريس الكاهن، وتكرسي المندى، وتكريس الأستاذ (كنزفره).

١١. دواوين:

الرقى والتعاويذ وتدعى (قماهي) و (زرستي)[٣] وهي من الدواوين الطلسمية «والحرز الطلسمي نوعان، فالكبير لا يمكن للإنسان أن يحمله ويدعى (قماهة) أما الصغير (زرستا) فهو الحرز المعتاد وهو

(١) ذكرته دراور (ألف ترسسر شياله)، وصححه مترجما الكتاب الأستاذان نعيم بدوي وغضبان الرومي إلى (ترسسو ألف شياله) أين اثنا عشر ألف سؤال.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص٧١.

(٣) ماهي (قما باللغة المندائية تعني يقمط) زرستي (زرس تعني يقرويصون).

ثابت لا يتغير ويكتب للتوّ على قصاصة طويلة من الورق عرضها من عقدتين إلى ثلاث تلف بإحكام وتوضع في صندوق صغير من الذهب أو الفضة بحيث يمكن تعليقها في عنق الإنسان بوساطة سلسلة أو خيط وهذا النوع من الأحراز طويلة عادة حتى ليبلغ السبع أو الثماني أقدام طولاً ولهذا يستعمل له ورق رقيق جداً»(١).

١٢. قماها ذهيقل زيوا أي (عودة ذهيقل زيوا):

وهو عبارة عن درج فيه أكثر من ألفي ومئتي سطر. وتمثل تعزيمات يحملها متدينو الصابئة ويعتقدون بأن من يلبسها لا يتأثر بالسلاح الناري أو أي سلاح آخر «وفي آخر الدرج الأصلي الذي ينسخ عليه والمحفوظ عند كاهنهم هذه العبارة: ازدهر، ازدهر لك انش لا تكدف ومعناها تحفّظ ثم تحفّظ، ثم أقول لك تحفّظ من أن تكتب القماها لكل من كان أو لكل أحد»(٢).

ونشر هذا الكتاب بنصه المندائي سنة ١٩٠٤ في باريس بعناية J. de Morgan في المجلّد الخامس من مجموعة Scientifique en perse Mission.

وقد قيل: «إن عدد الدواوين يبلغ أربعة وعشرين ديواناً وهي

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص٧٢.
(٢) الصابئون، ص٩٠.

أدراج كبيرة ومصورة أحياناً. ولا يظهر الكهان هذه الدواوين إلا بتهيّب وبخاصة الديوانين المصورين اللذين يحتويان على مواد غير دينية. إنهما مهمان لأنهما يلقيان ضوءاً على الشعائر والعقيدة واللغة».

فالأول ديوان نهروانا (ست ياردات طولاً وثلاث عشرة عقدة عرضاً)، وهو خارطة مزخرفة ونص إيضاحي لأنهار العالم حيث يجعلها جميعاً تتغذى من (فرات زيوا) - الفرات النوراني - الذي ينبع من طور كالاملا[1] كما يصف الأشجار والنباتات والقصف في الأرض وبعض الكائنات السماوية. والثاني ديوان أباثر طوله ٩ ياردات وعرضه ١٣ عقدة. وتظهر بعض الصور في هذا الديوان.

وهناك ديوان (حران كويثا)، وديوان (ملكوثا)، وديوان (اكما الايا)، و (آلمة ريشا يا ربه)، و (آلمه ريشايا زوطة).

وقد قامت الليدي دراور بترجمة الديوانيين الأخيرين إلى اللغة الإنكليزية، وهما مطبوعان وموجودان في مكتبة المتحف العراقي. وهناك ديوان (زهروت رازاكسيه)، و (قداهة ربه) و (دموثة كشطه).

---

(١) كنزاربا كتاب المقدس.

اللغة المندائية

اللغة الصابئية المندائية هي أحد اللهجات الآرامية، واسمها مشتق من الكلمة الآرامية (مدعا) ومعناها المعرفة، واللهجة المندائية هي أنقى اللهجات الآرامية، لعدم اختلاطها بعناصر أجنبية، وهي بهذا تمثل اللغة الآرامية السليمة. يطلق الصابئون على الألفباء اسم، ولكل حرف معنى خاص، ويمثّل بالنسبة لهم قوة من قوى الحياة والنور، لذلك فإن للحروف عندهم قدسية خاصة، وتنقش حروف الألفباء على قدر عددها من قطع الفضة، أو الذهب، وتوضع تحت وسادة الصابئي، الذي يرغب بالإرشاد السماوي، حين تنزل به مصيبة ما، فيقوم في كل ليلة بوضع حرف واحد، حتى يرى مناماً له علاقة بمصيبته، فيعد الروح التي تخفى ذلك الحرف قد انكشفت له، وأنها ستقوم بمساعدته، فيلبس ذلك الحرف كحجاب وتعويذة في عنقه، حتى يتم تخلّصه من تلك المصيبة والمحنة، وعدد الأحرف ٢٤ حرفاً ولكل حرف معنى.

آ - با - كا - وا - زا - هه - طا - يا - كا - لا - ما - نا - سا - أي - با - صا - قا - شا - تا - أو - آ (كالحرف الأول).

الأحرف المندائية

- آ: ࡀ
- ب: ࡁ
- گ او غ: ࡂ
- د: ࡃ
- هـ - ح: ࡄ
- و: ࡅ
- ز: ࡆ
- اهـ: ࡇ
- ط او ظ: ࡈ
- ي: ࡉ
- ك او خ: ࡊ
- ل: ࡋ
- م: ࡌ
- ن: ࡍ
- س: ࡎ
- اي: ࡏ
- پ او ف: ࡐ
- ص او ض: ࡑ
- ق: ࡒ
- ر: ࡓ
- ش او ج او چ: ࡔ
- ت او ث: ࡕ
- اد: ࡖ

مخطوطات البحر الميت والصابئة

على الرغم من فرادة الأفكار الصابئية وخصوصيتها، إلاّ أنه لا عجب أن نجد أفكاراً تشابه إلى حدّ بعيد أفكار الصابئة، ولكن الذي يلفت الانتباه أنه تمّ العثور على مخطوطات في البحر الميّت تحتوي أفكاراً مشابهة للأفكار الصابئية تم اكتشافها عام ١٩٤٧ بالقرب من البحر الميّت.

هذه اللّفائف المخطوطة تتحدّث عن عقيدة الطوائف التي عاشت في كهوف بالقرب من البحر الميت وبعيداً عن اليهود واضطهادهم لأصحاب هذه العقائد. ومن ضمن هذه المواضيع في هذه المخطوطات نعثر على تعاليم يوحنّا المعمدان واضحة، «ففكرة المعمودية وطقس الاستحمام والتنبه إلى أن التطهير والاستحمام لا يزيل الذنوب ما لم يسبقه تطهير روحي والتبشير بالمسيح»[(١)].

ومن ضمن الأفكار المتشابهة الاعتقاد الذي يؤمن به الصابئة من انتظار يوحنا المعمدان للمسيح وتعميده فقد جاء شبيهاً بما ورد في

(١) يعتقد الصابئون بأن المسيح خرج عن العقيدة الحقيقية التي جاء بها النبي يحيى.

مخطوطات البحر الميت فقد تنبّأ يوحنا بأنّ الذي سيأتي بعده سيحكم بعقوبة النار. وهذه الفكرة واردة بصراحة وقوة في أحد مزامير الشكر، إذ تقول: «إنّ أعاصير الشيطان الرجيم سوف تلتهم بالنار حتى أسس الجبال»(١) وجاء أيضاً في هذه المخطوطات ما يتعلّق بحركة يوحنا المعمدان، «إن حركة يوحنا بزغت بين الكهنة والرهبان ولكنها تحرّرت منها فيما بعد، مثلما وقع لطائفة قمران على الأرجح، وكان يوحنا يوجه كلامه إلى الشعب بأجمعه بعكس القمرانيين والأسنيين»(٢).

وكذلك من ناحية العقائد الدينية والفكرية فقد جاءت في مخطوطات البحر الميت مشابهة لعقائد الصابئة حيث تشرح عقائد الجماعات التي عاشت في الكهوف، ومن هذه العقائد:

«لا تدع رجلاً يغتسل بالماء العَذر، أو بما لا يكفي لتغطيته، كما لا يجوز أن تطهر بالماء المستعمل أي وعاء، كل نقرة في الصخر يجب أن يغطّى ماؤها، فإذا لمسها رجل قذر زالت طهارته»(٣).

وهذه الكفرة تذكرنا بعقائد الصابئة التي تنصّ على ذلك:

«لا تدع أي رجل يرسل إلى المذبح تقدمات محروقة، أو ضحايا، أو بخوراً، أو خشباً يحملها رجل نجس، وعندما يدخل أي واحد إلى

(١) مخطوطات البحر الميت: ٣١٦.
(٢) مخطوطات البحر الميت: ٣١٦.
(٣) مخطوطات البحر الميت، ص١٦٢، في العقيدة الصابئية يجب أن تغطي المياه الإنسان بالكامل.

مكان العبادة لا تدعه، إلاّ إذا كان نظيفاً، لا تسمح لأي كائن حيّ بأكل الزواحف، والحشرات، والنمل، ولا دم أي حيوان يخرج منه عند الذبح، جميع الخشب والحجارة والغبار التي أفسدتها قذارة الإنسان تصبح قذرة، وتنجس من يلمسها، وكل آلة كالمسمار، أو الوتد في الحائط لامست الأموات تصبح نجسة ولا سيما إذا صنعت من مادة نجسة»[(١)].

وإذا أردنا أن نقارن مفهوم الروح والنور في العقيدة الصابئية وفي المخطوطات في البحر الميّت نجدها متطابقة فيقول كتاب النظام الصابئي «على الذين ينضمون إلى الجماعة أن يحبّوا أبناء النور وأن يمقتوا أبناء الظلام»؛ إذاً نلاحظ هنا نفوراً عند الصابئة من أبناء الظلام وهم بالطبع الذين لا يؤمنون بالعقيدة الصابئية ولا يطبقونها وبالتالي نجد محبة لأبناء النور وكذلك في مخطوطات البحر الميت يطلق على أبناء النور تسمية الصالحين وعلى أبناء الظلام تسمية الأشرار أما النص المشابه في مخطوطات البحر الميت فهو: «حرب أبناء النور مع أبناء الظلام، أن الملائكة الصالحين هم مع جيش أبناء الحق»[(٢)].

أما بالنسبة إلى الروح فكما نعلم أن الصابئة كانوا متعصبين

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦٥. والإنسان عند الصابئة حين يقترب من الموت يغسل قبل موته لأنه بعد الموت يصبح جسداً غير طاهر بمجرّد خروج الروح منه.

(٢) مخطوطات البحر الميّت، ص٢٥٦.

للروحانيين فيقول كتاب النظام: «إن الله خلق الإنسان لتكون له السيطرة على العالم وكيف جعل له روحيين يستطيع أن يسير بهما إلى أن يحين موعد الافتقاد الإلهي» وهاتان الروحان تسميان: أرواح الحقيقة، أرواح النور والظلام، وأيضاً أمير النور وملاك الظلام، وهذا يثبت ما انطلق منه الصابئة في عقائدهم أي الإيمان بثنائية الخير والشر وفي هذا الإطار يتطابق كتاب النظام مع المخطوطات حيث يرد فيها: «الروح عبارة عن شرارة من النور الإلهي اجتمعت في عالم المادة المظلم»(1). في كلا العقيدتين نجد اقتراناً واضحاً بين النور والروح وبين الظلام والروح.

والروح عند الصابئة محبوسة في جسدها فهم يعتبرون أن الجسم هو سجن الروح وحينما تنطلق عن الجسم فإنها تتحرّر وتتخلص من قيود هذا السجن وإذا نظرنا إلى المخطوطات التي تطرّأت إلى ذلك نجد أنها تعتبر العلاقة بين الجسم والروح علاقة جدلية تشكل نوعاً من التضاد فالجسم فانٍ والروح خالدة حيث يدر مع المخطوطات: «إن الأجسام تفنى، وإن المادة التي عملت منها ليست خالدة ولكن النفوس هي الخالدة والتي تعيش إلى الأبد وعندما تتحرر مع رقبتها كأنها مربوطة بأجسادها وكأنها في سجن بقوة سحرية، عندئذ تذهب الأجساد إلى الفناء وتذهب الأرواح إلى الخلود»(2).

---

(1) مخطوطات البحر الميت، ص٢٥٧.

(2) المصدر نفسه، ص٢٨٠- ٢٨١.

ونحن نعلم، مدى مكانة النبي يحيى الرفيعة عند الصابئة فهم يعتبرونه مصدر الحق لذلك يطلقون عليه لفظ معلم الحق، ذلك أنهم لا يعتقدون أن الله يرسل نبياً من عنده ويعطيه اللفظ الذي سيتحدث به بل إن الله لهمه قول الحق ومثل ذلك جاء في المخطوطات:

«إن المستقيمين هم الذين استمتعوا إلى معلم الحق وأما الأشرار فقد رفضوا الاستماع إليه والشيء الضروري للخلاص مجرّد الإيمان برسالة معلم الحق والوفاء لتعاليمه»[(١)].

فالاستماع والرفض معيارهما التطبيق أو عدم التطبيق والأمر سهل فيطلق إيماناً قلبياً واقتناعاً باطنياً برسالة يحيى.

وانطلاقاً من الحقد الصابئي الديني على قوم اليهود لما لاقوه منهم من اضطهاد وتعذيب، رغبوا في تدمير القدس باعتبارها من مقدسات اليهود وبالتالي قتلهم وذلك حدث فيما بعد وقد جاء في المخطوطات ما يؤكّد ذلك: «إن الله سوف يسوق محاربين أجانب يغزون البلاد ويدمرونها»[(٢)]. وكأنهم يوكلون أمر الأخذ بالثأر من اليهود إلى الله وكم تذكرنا لفظة «محاربين أجانب» بالشعوب المستضعفة التي عانت من اليهود ولا تزال فتقاوم هذا الظلم وتقاتل اليهود، فليس الصابئ فقط هم من تعرض لنير اليهود ووطأتهم.

(١) مخطوطات البحر الميت، ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٧.

ويذكرنا الصابئة بهجراتهم هرباً من ظلم اليهود فقد ورد في المخطوطات ما يلي: «ولكن الذين وقفوا مخلصين، هربوا إلى أرض الشمال، وسكنوا خياماً في دمشق وكتبوا الشريعة وطبقوها بقيادة النجم الذي فسر الشريعة وهو خارج من يعقوب كأنه صولجان هارب من إسرائيل ليقود الجماعة ويحطم جميع أبناء البشر»(١).

وتتحدث إحدى القطع المكتشفة سنة ١٩٤٩ فتشير إلى الحقيقة القائلة: «إن الأشرار في الأيام الغابرة تجاهلوا تحذير الله ولذلك هلكوا والنصر مؤكّد للنور على الظلام وسجن الملائكة الأشرار ثم يشرق العدل كالشمس ويمتلئ العالم بالمعرفة بينما يهلك الأشرار إلى الأبد»(٢).

عندما نقرأ هذه العبارات نستوحي يقيناً صابئياً بالخلاص وبظهور المخلص الذي سيحول العالم إلى الخير المطلق وكم تتذكر هنا عقائد جميع الديانات السماوية لانطلاق شخص يقضي على الظلم نهائياً ويكون المخلص.

نستنتج من هذه المقارنة الموجزة بين الفقرات الواردة في مخطوطات البحر الميت وبين الأفكار الصابئية بأن هذه الفقرات تجسّد عقائد صابئية جاء بها النبي يحيى وأتبعه فيها اتباعاً كثر، مع أنها لم تفصح بوضوح عن أنها تمثل عقيدة يحيى إلاّ أنها تشير بوضوح كامل إلى أنها

---

(١) المصدر نفسه، ص١٦٢.

(٢) مخطوطات البحر الميت، ص٢٦٦.

تمثل آراء طائفة تعرّضت للاضطهاد من قبل اليهود وتؤكّد أن هذه الجماعة هاجرت باتجاه الشمال وهذا ما يتوافق مع الأحداث التي مرّت بها طائفة الصابئة.

فالرأي الثابت لدينا بعد أن تحدّثنا عن حياة النبي يحيى وعلاقته بالصابئة واعتقادهم بأنه نبي خاص بهم، وعما أوردته مخطوطات البحر الميت، وعن ذكر القرآن للصابئة، أن الصابئة المندائية الموجودين في العراق وجنوب إيران، أصحاب عقيدة كتابية توحيدية إلاّ أن هذا لا يعني أن العقيدة التي جاء بها النبي يحيى واعتقدها الصابئة بقيت على حالها(١)، بل إن البعد الزمني، والاضطهاد الذي تعرّض له الصابئة من قبل اليهود، واضطرارهم للهجرة بدينهم إلى العراق، ومن ثم تقويتهم على أنفسهم واحتفاظهم بلغتهم الأصلية ثم تعرّضهم على مرّ الزمن للمضايقات، واضطرارهم لمخالطة الأقوام المجاورة لهم، وتقليدهم للبقاء على قيد الحياة، غيّر الكثير من الجوهر عقيدتهم، وأعطاها أشكالاً جديدة يعدّها أصحاب الديانات الأخرى بعيدة عن جوهر التوحيد.

(١) يشير مخطوط (يدوان حران كوثيه) إلى الانشقاق الذي حصل في صفوف (الناصورائي) ويصف كيف حدث قبل الفتح الإسلامي بست وثمانين سنة «إن خدع أحد الرؤساء الأمة (قيقل ريش امة) من قبل الروهة متنكرة بزي نوراني بحيث أنه هو وكهانه وأناس آخرون انحرفوا عن العقيدة الحقة وكتبوا كتابات مستوحاة من قوى الظلام». ويظهر أن المرون أو الانحراف، كان لا يزال قوياً إذ ذاك لأن الكاتب ينصح الناس بتجنب الاتصال بهؤلاء الخوارج وبحرق كتبهم وتدميرهم.

أعياد الصابئة

قلنا فيما سبق أن دين الصابئة يشترك في أشياء كثيرة مع أديان أخرى كثيرة ومن هذه الأمور الأعياد التي على الرغم من أنها أمر موجود في كل الأديان والمعتقدات ولكنها تضفي خصوصية معينة تضع العقيدة الصابئية في جوّ من التفرد والتميز.

والأعياد عند الصابئة خمسة، قد نلمس مع بعضها تشابهاً مع أعياد المسلمين ولكن هناك طقوساً يتفرَّد بها الصابئة تتخلّل هذه الأعياد مثل التعميد وأنواع الأطعمة الفريدة وتدخل الفلك في هذه الطقوس مما يجعلنا نتشوّق للخوض في تفاصيل هذه الأعياد نجري جولة سريعة.

١ - العيد الكبير (دهفة ربه):

وهو الاسم الذي يطلق على عيد رأس السنة ويطلق عليه أيضاً (نوروز ربه)، ومدة هذا العيد أربعة أيام تبتدئ باليوم السابع من شهر آب من كل سنة مندائية وتنهي باليوم العاشر منه. في هذا اليوم تذبح الفراخ والخراف، لتخزن غذاء، وتوضع على فراش من القصب، بسبب نجاسة الأرض، وفيه يخبز الخبز ويحفظ داخل البيت، كما تضع

الفطائر، ويطهر التمر والخضار بعناية، وتحفظ داخل البيت، لئلا تتلوّث ويُجلب الماء من النهر ويوضع في أواني، ليكفي ستاً وثلاثين ساعة، ومن صباح ذلك اليوم إلى مسائه يقومُ الكاهن بتعميد الراغبين أي أن التعميد لا يكون مفروضاً يوم العيد، كما يجب أن تودع المواشي والدواجن قبل غروب الشمس لدى المجاورين من غير الصابئين ذلك أنه «في الساعات الست والثلاثين المقبلة يجب على الصابئين أن لا يمسوا المواشي أو يحلبوها، وقبل أن تغرب الشمس بخمس دقائق تقريباً يغتسل أفراد الصابئة رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً بالارتماس بالنهر (طماشة) ثلاث مرات، وتطلق النساء الزغاريد ويعود الجميع إلى بيوتهم، حيث يجب أن يمكثوا هناك، ولا يخرجون لأي غرض»(١).

ولليلة العيد أعمال، ففي الساعات الست والثلاثين أي من الليلة التي تسبق يوم رأس السنة وتدعى (يوم الحاجات) حيث تخرج الأرواح الحارسة من البيت ملبية دعوة الطبيعة.. وعلى الصابئي أن يظل سافراً طيلة هذه الساعات وأن لا تغمض له عين، ولكن يسمح للأطفال بالنوم، لتعذر منعهم من ذلك.

أما يوم العيد، يوم رأس السنة أي يوم الحاجات لا تجرى أي طقوس دينية فإذا صادف أحدهم المنية خلال هذه الساعات يؤجل دفنه، ويغسل بالماء المختزن في البيت، ويلبس الملابس الدينية (رستة) وحين

---

(١) برنجى، الصابئة المندائية: ١٤٥ ١٤٦.

يلفظ آخر أنفاسه يغطى بالخام الأبيض، ويترك على حاله إلى فجر اليوم الثاني من السنة الجديدة حيث يمكن دفنه حسب المراسم المعتادة.

ومن الطبيعي أنه في مثل هذه الأيام المفرحة والمناسبة التي ترمز إلى السرور، أن تعدّ الوفاة في مثل هذه الظروف كارثة بالنسبة لروح الميت، لذلك تقام من أجله في أسام البنجة «زدقة برسيخا» و «مسخثه»[1]. ويزيد الأمر صعوبة «أنه إذا عضّ أحدهم كلب أو لسعته أفعى في مثل هذه الأيام أو لسعته نحلة فيجب عندها أن يتناول ستين عماداً»[2]. ربما لأنهم يعتقدون أن ربّ العظمة (مانا ربه كبيرة) قد أتم خلق هذا العالم في هذا اليوم لذلك فجميع الأرواح النورانية والملائكة تغادر أماكنها، وتذهب لزيارة رب العظمة، وتقدم له الشكر، ويستغرق عروجهم اثني عشر ساعة، فيمكثون في عالم الأنوار اثني عشر ساعة ثم يعودون إلى هذا العالم بـ ١٢ ساعة. وحينئذٍ تكون السواقي والأنهار والمياه غير معرّضة لحراسة الملائكة فيحتفظ الصابئة من الماء لهذه المدة كي لا تتلوث ولهذا أيضاً نراهم يعتكفون (يكرصون) في بيوتهم طيلة الساعات الست والثلاثين ولا تغمض لهم عين خشية أن تقع أي نجاسة تفسد عليهم طهارتهم وبهجتهم بهذا العيد، غير أن غياب الملائكة يحمل تأثيراً كبيراً على قوى الشر والموت فتكون طليقة غير مكبوحة الجماح بسبب

(١) أي طلب الغفران لروح الميت.

(٢) برنجى، الصابئة المندائية: ص١٤٥ - ١٤٦.

غياب الملائكة، ويصل التأثير السيّئ إلى درجة أن الأشجار تصبح مضرة، ويغلفها الناس بالحصر، لئلا يلمسها الأطفال من غير قصد. أما في اليوم الثاني من السنة الجديدة يقوم الصابئة بمراسم التهنئة فيخرج الجميع من بيوتهم ويتزاورون ويحتفلون ويتعايدون وكأن العيد عندهم يرمز إلى الألفة والمحبة وتقوية أواصر العلاقات الاجتماعية وأول زيارة يقومون بها تكون إلى (الكلنزفري) فيخبرهم عن طالع السنة الجديدة وتعلق على أبواب البيوت أكاليل من الصفصاف ليحفظ السكان من الخطر، وتستمر بقية أيام العيد الثلاثة عدا يوم (الكرصة) ويوم (كنشي وزهلي) بتناول الأطعمة كالفواكه واللوز والجوز، والفستق، والبندق، وكل ما لذّ للمحتفلين. وبهذا يكون مجموع أيام العيد خمسة أيام. أما اليوم السادس والسابع فيسمى «عيد شيشلام» والتسمية الكاملة بالمندائية «دهفة أو ششلام ربه» والليلة بين هذين اليومين تسمى «ليلة القدر» وفيها يفتح «أباثر»[1] أبوابه لطالبي الرحمة والغفران منه فيزورهم بصكوك نورانية تحميهم من الأرواح الشريرة[2].

كم تذكرنا هذه الليلة بليلة القدر التي ننتظرها كل سنة عند حلول شهر رمضان حيث تكون خيراً من ألف شهر وتكون حاجات كل المؤمنين مجابة فيها.

(١) أباسر: هو ملاك طاهر، يزن أعمال الناس الخيرة والشريرة تبعاً لثقل الروح.
(٢) مجلة التراث الشعبي: العدد الأول، السنة السادسة، ص٤٢.

٢- العيد الصغير :

ولهذا العيد أيضاً تحديداً زمنياً خاصاً به حيث يقع في اليوم الثامن عشر من شهر (تورا) وهو يدوم يوماً واحداً. ويسمى هذا العيد (دهفة حنيه) أو (دهفة طرمه). وفيه طقوس عديدة حيث تقام مراسم التعميد وقراءة الفواتح فهو لا يقل أهمية عن العيد الكبير فيقيمون فيه الاحتفال بعودة (هيبل زيوا) إلى عوالم الأنوار من عالم الظلام وربما هذا ما يضفي القداسة على هذا اليوم ليكون عيداً للصابئة فتقام الأفراح وتستمر الاحتفالات الاعتيادية يومين آخرين بقصد التزاور.

٣- عيد البنجة (دهوه بروانايا) :

عند الصابئة إيمان بوجود السنة الكبيسة ويدعونها (بروانايا) وهي خمسة أيام في السنة وتسمى أيضاً (البنجة) ولا ندري لماذا تعتبر من أسعد أيام السنة على الإطلاق، وما الذي يدعوهم إلى إقامة اكبر عيد عمادي نهري حيث يأتي في وقت ارتفاع مياه النهر. وتحدّد أيام هذا العيد الأكبر في العشرة الأولى من نيسان، خلال أيام الربيع الأولى بعد العيد الصغير بأربعة أشهر، ويكرسن كل يوم من الأيام الخمسة لروح نوراني معين، لأن فيها تفتح أبواب عالم الأنوار ليلاً ونهاراً لهذا تقام الصلوات في الليل[١].

وتخصص ليلة من ليالي (البنجة) لتستجاب فيها كل الدعوات

(١) ذلك أنه لا يمكن إقامة صلوات بعد غروب الشمس في سائر أيام السنة.

التي يشترط بأن تكون صادقة وتسمى ليلة الغفران فيقوم الصابئي فيها بمناجات ربّ عالم الأنوار من هنا نلمس طبيعة هذا العيد التي تميل إلى أن يكون عيداً دينياً أكثر منه عيداً للترفيه والراحة والفرح والبهجة وفي هذا العيد يأتي الصابئون من أماكن بعيدة إلى موطن كهانهم للتعميد ويشاركون في الفاتحة(الوفاني)، والصدقة المباركة (رادقة بريخة) وفي الذكرى (ذخرانه) من أجل الموتى. وخلال العيد يرتدي الصابئة الملابس البيضاء ويأكلون لحم الخراف ويقومون بتكريس (المندى) بتضحية كبش وحمامة وذلك قبل إنتهاء (البنجة).

وتجدر الإشارة إلى أن الصابئة يعتقدون بأن الحواجز مرفوعة بينهم وبين موتاهم من الأقربين والأرواح النورانية التي أنجبتهم منذ عهد قديم خلال أيام (البنجة).

٤- عيد يحيى (دهفة ديمانه):

كما ذكرنا سابقاً أن يحيى نبي الصابئة وكانوا يعتبرون أنفسهم قومه فليس من الغريب أن يحتفل الصابئة بمولد يحيى ويقيمون له عيداً ويأتي هذا اليوم بعد ٩٠ يوماً من (البنجة) أي في اليوم الأول من شهر (صملى)[١] وفيه يقام احتفال يقصد منه تعميد آدم وفيه كانت ولادة النبي يحيى ففي هذا اليوم يجب على الأتقياء أن يتعمدوا كأسلافهم وهذا

(١) شهر حزيران.

التعميد يشمل الكبار وهذه المرة الصغار أيضاً لأن طقس الصيف يستطيع الصغار تحمّله.

وفي هذا العيد التعميد على الصابئي بأجر كبير حيث يقول الصابئة أنه من يتعمد بملابس دينية جديدة (رسته)، يكتسب أجر ستين عماداً. ولحرمة وقداسة هذا اليوم الذي يعتبرونه الصابئة ولادة الخير والسلام يحرمون ذبح الحيوانات في اليوم الذي يلي هذا العيد. أما في يوم العيد فتقتصر الذبائح على ذبح الدجاج.

٥- العاشورية:

اسم هذه المناسبة يذكرنا بمناسبة عاشوراء الإسلامية الحزينة ولكن ليست هي المناسبة ذاتها فإذا نقبنا جيداً عن اعتقاد الصابئة بهذه المناسبة نجد أيضاً أنها مناسبة حزينة بالنسبة إليهم وهي ترتبط بديانة سماوية أخرى على زمن موسى نبي اليهود. وتقع هذه الذكرى في أول يوم من شهر (سرطانه) أي تموز ويقيمون هذا اليوم الفاتحة (الوفاني) على أرواح المصريين الذين غرقوا في البحر الأحمر حينما كانوا يلاحقون نبي اليهود موسى انطلاقاً من اعتقادهم بأن «المصريين كانوا على دينهم وبأن جنس أسلافهم الصابئين الأوائل قد انحدروا من مصر إلى جبل ماواي ولهذا تؤكل كل عام وجبة طقسية في ذكرى الحملة المصرية التي غرقت في الماء وهي تتبع اليهود»(١).

(١) دراور، الصابئة المندائيون: ٥٠- ٥١.

وإذا تصفحنا الكتب التي تسرد قصته غرق المصريين نعثر على أفضلها وهو ما ورد في كتاب أساطير وحكايات صابئية وجاءت كما يلي:

كان الملك فرعون عنيداً، وقد عوقب من أجل ذلك العناد، وكان المصريون على ديننا، وقد تعلم موسى الذي تربى مع الملك فرعون شيئاً من معارفنا وكان اليهود بصورة عامة يعبدون «الروهة»[(١)] وأبناؤها وبخاصة «يوربا»[(٢)] ويجهلون النور وتعاليم أبناء النور وإلى هذا اليوم واليهود يعبدون «يوربا» الذي هو إله الشمس أن منزلة «يوربا» من الشمس كمنزلة الربان من السفينة يديرها، إلا أنه هو نفسه تحت إدارة أرباب النور، وهكذا منح شامس موسى القوة، وتخاصم قوم موسى «اليهود» مع قوم الملك فرعون «بره» المصريين. وجعلت فرعون رغبة اليهود في الفرار من البلاد واجتياز البحر (سون) أمراً صعباً للغاية، فحين بلغوا البحر، طلبوا من صاحب العبارة العائدة لفرعون أن يجوز بهم البحر، إلاّ أنه قال «ليست لدي أوامر أن أجوز بكم عبر البحر» فحاولوا ما استطاعوا، ولكنهم لم يقدروا على إقناعه، وكانت لموسى عصا ومعرفة بالأسماء السرية، وقد أعطته «الروهة» تلك العصا، أخذ موسى عصاه، وضرب بها البحر، وتلفظ ببعض الأسماء فجمد الماء جمود التربة، واستطاع هو وقومه أن يسيروا عليه كما لو كان أرضاً

---

(١) الروهة: روح شريرة تجسد المادة والحياة الطبيعية.

(٢) يوربا: قوة من قوى عالم الظلام.

مستوية، ومرّ اليهود عبر البحر، إلا أن موسى ظلّ واقفاً في الوسط، ولم يتحرك، ولو أنه خرج قبلهم، لخرجت معه قوة الأسماء، ولغرق قومه، وحين اجتاز آخر رجل منهم الماء، تبعهم موسى، بعد ذلك لحق بهم الملك فرعون هو وقومه، وسألوا العباد كيف اجتاز اليهود البحر، فقال: «إنهم لم يستعملوا سفينتي ولم يجبروني على إعطائهم إياهم إلاّ أن موسى ضرب البحر بعصاه ونطق كلمات سحرية، فجف الماء ويبس، كما لو كان أرضاً «قال الملك فرعون (غريب ذلك!) وكان يعرف سرّ معرفة موسى للأسماء السرية، فقد درسا سوية حين كانا صغيرين ضرب فرعون» وهو يملك المعرفة نفسها الماء بصولجانه فانشقّ الماء عن الأرض، إلا أن القوى في العلى التي تكره القتل وإراقة الدماء، رأت ذلك ولم يستحسنون، فالحرب والقتل ممنوعان على أبناء النور، وحين عبر الملك فرعون، لم يقف في الوسط، بل اجتاز البحر قبل جميع جيشه، ولما بلغ الشاطئ المقابل أطبق الماء على أولئك الذين كانوا يتبعونه فغرقوا جميعاً»[١].

(١) أساطير صابئة: ١٥- ٢٦- ٢٧.

المحرمات عند الصابئة

كما في كل عقيدة دينية أعمال واجبة وأخرى مستحبة وبعضها مكروه فعله ومحرّم، كذلك عند الصابئة فبعد أن تعرفنا إلى بعض الطقوس الدينية عندهم والواجبات والقوانين لديهم يجب أن نتعرّف إلى الأمور المحرمة عنهم.

أهم المحرمات عند الصابئة هي:

١ــ القتل والقتال إلاّ دفاعاً عن النفس، فهم كغيرهم من الأديان يبغضون العنف والحقد والحرب والمعروف عنهم أنهم كانوا مسالمين في كل الظروف والاضطهاد الذي عانوا منه فكيف لا يحرّمون القتل والقتال؟!

٢ــ أكل لحم كل ذي ذنب، وكل ما افترس من الطير والطيور آكلة الأسماك، ويحرم أكل الغراب، والجمل، والحصان، والخنزير، والكلب والفأر، الأرنب الأهلي، والوحشي، والقط، ويعدون ذبح الجاموس أو البقر من الجرائم الكبرى[1]. ويأكلون لحم

(١) يعدون الأبقار والجاموس من المخلوقات المساعدة للإنسان في الحرث ولإنتاج الحليب، لذلك يحرمون ذبحها.

الخراف، والدجاج، والأسماك، والطير الحر، والبط والإوز.

٣ــ شرب الخمر حتى السكر، وهنا يروي الجاحظ الذي انحدر من بيئة الصابئة المندائيين في البصرة «أن غلاماً صابئياً سأل غلام شيخه إبراهيم بن سيار النظام عن علّة تحريم الإسلام للخمر، فأجاب لأنها تزيل العقل فقال الصابئي: ينبغي تحريم النوم فإنه يزيل العقل فقال الغلام المسلم: إنه قوت البدن فقال الصابئي: لنحرم ما فضل عن القوت»(١). وهذا يدل على أن الصابئة لا يحرمون الخمر بحدّ ذاته ولكن المعيار هو عدم الوصول إلى درجة السكر.

٤ــ لعب الميسر.

٥ــ الختان، وربما أثّرت مقالة الصابئة المندائيين بالمحيط، فحرّم بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية الختان للسبب نفسه وهو عدم إنقاص ما خلق الله في الجسد، فقد شاع عن عبد الله بن معاوية عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إنه شرّع لأصحابه وهم جماعة من الشيعة تحريم الختان(٢) قال ما قالته الصابئة: «إن المُخْتَتن راغب عن خلق الله ولولا الشعر والظفر ميتان وعلى الحي مفارقة الميت ما تسلّمنا ظفراً ولا أخففنا شعراً»(٣). «وتحسب صاحب هذه الفرقة إن صحة الرواية قد سمعها عن المندائيين

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص٢٧٢.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٢.

(٣) سعد الأشعري، المقالات والفرق، ص٤١.

فاتخذها للتفرد وبمقالة مثيرة، ونحسب المسعودي قد استفتى معلومته الآنفة من أحد الكهنة المندائيين قصّها عليه كما قصّ الكهنة المعاصرون من أسرارهم وطلاسمهم على الليدي دراور التي لم تنل ثقتهم إلا بعد صحبة عشرين عاماً من المعايشة»[١].

٦ـ حلف اليمين، ولو كان صدقاً.

٧ـ يحرم على زوجة الميت، لبس السواد أو قصّ شعرها، أو البكاء والندب والعويل، ولطم الصدور، أو حث التراب على الرأس لأن انطلاق الروح من الجسد هو تحررها من هذا القيد وعودتها إلى عالم الأنوار.

٨ـ الأكل والشرب والاشتغال قبل الاغتسال من الجنابة.

٩ـ الزواج من أجنبي أو أجنبية.

١٠ـ أن يبقى الإنسان أعزباً دون الزواج «ففي عقيدتهم حرمت الجنة على من يعزف الزواج ولا يولون عاقراً منصباً دينياً»[٢].

١١ـ لبس اللون الأزرق، لاعتقادهم أن اللون الأزرق هو لون حجاب الروهه (روح شريرة تجسّد المادة والحياة والطبيعة).

١٢ـ السرية وقطع الطريق والسلب.

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٢.

(٢) نفس المصدر، ص٤٥.

١٣ــ النظر إلى المحصنة بريبة أو شهوة.

١٤ــ شهادة الزور.

١٥ــ العمل أيام الأحد والأعياد لأنه كما ورد معنا أن أيام الآحاد تكون مخصصة للتعميد ولطقوس دينية معينة.

١٦ــ الغيبة والنميمة والفتنة.

١٧ــ الامتناع عن سداد الدين أو ردّ الأمانة.

١٨ــ الربا بجميع أنواعه وصوره.

١٩ــ حلق اللحية أو الشارب أو الأخذ منها، أما شعر الرأس فيسمح بقصه للعامة دون رجال الدين «ويتماثل المندائيون والبابليون في التشدّد في تحريم حلق اللحية وشعر الرأس»[١].

٢٠ــ إطلاع غير الصابئيين على الكتب الصابئية الدينية.

٢١ــ خروج الروح من الجسد قبل طهارته، فيجب أن يطهر الجسد بالماء حين يشعر المحيطون بالمريض بدو أجله.

٢٢ــ «لمس الميت، لأن الميت نجس، ومن لمس النجاسة أصبح نجساً»[٢].

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٦.

(٢) مجلة التراث الشعبي، العدد ١٢، السنة الخامسة، ص١٨٠.

٢٣ـ أكل الدم أو شربه[١].

٢٤ـ الكذب، فمن تعاليم الصوم عند المندائيين: «امسكوا أفواهكم عن الكذب لأن الذي يحلّ في علبه البغض ليس مسلماً»[٢].

٢٥ـ الإكتناز، ما يدلّ على زهد كهنة المندائيين أنه ورد تحريم الاكتناز في الآية: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[٣]. وبالمقابل هناك أكثر من نص ورد في الكنزاربا يحرم الكنز: «وأن حبّ الذهب والفضة وجمع الأموال صاحبه يموت ميتتين في موت واحد»[٤]، «ولقد شغلني ذهبي- وشغلتني فضتي، ذهبي رماني في الجحيم وفضتي أسكنتني في ظلام بهيم وحليّ ومرجاني.. أكتب أن يصادقاني فأي شرّ علماني»[٥].

٢٦ـ الزنا واللواط، حيث كان من النواهي التي كان الهدف منها تحذير وترهيب وتذكير بما يمكن أن يصاب به كل من يقترب من

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص١١٤.
(٢) مرانى ناجية، مفاهيم صابئية مندائية، ص١٤٥.
(٣) سورة التوبة أو براءة، آية: ٣٤- ٣٥.
(٤) كنزاربا اليمين، ص٢٦٤.
(٥) المصدر نفسه، ص١٢٦.

هذا العمل، وفي ذلك حثّ على التزام جادة الصواب والابتعاد عن المعصية لئلا تكون العاقبة العذاب الدائم. فقد ورد في النص الحادي عشر نهي عن الزنا تصدّر النهي عن السرقة والنفخ بمزمار الشيطان وهذه النواهي كانت تنبع من حكمة النبي يحيى عليه السلام ومسؤوليته تجاه قومه حيث يقول: «لا تزن فيثبت عليك العقاب، لا تسرق فتحلّ عليك اللعنة، لا تنفخ بمزمار الشيطان فتصبح وقوداً للنار».

نلاحظ في هذا القول ورود ثلاثة أوامر أو وصايا أو إذا أردنا تسميتها ثلاثة تحذيرات متعاقبة، كل منها ينجم عن الآخر وكل واحد منها يشير إلى ما لا يحمد عقباه، فالنهي الأول، - لا تزن - هو البداية للنواهي الأخرى.

والملاحظ أن الكثير من نصوص (دراشة يهيا، مبرخ ومطروس) تتحدث عن الزنا باعتباره أول الموبقات، وقيل: إنه أول النواهي وأشدها عقوبة وأكثرها مقتاً لما تنطوي عليه من مخالفة لأشدّ المحرمات، لذا ستكون العقوبة الأشد والأقسى لمن يقترف مثل هذا الذنب.

وإذا أردنا تعليل هذا الرفض الكامل من الصابئة للزنا فيمكن أن نرجع ذلك إلى المساوئ الاجتماعية والأخلاقية الناتجة عن الزنا في زمن كان بن العسير إثبات عائدية المولود فلا معرفة لحامض

(D.N.A) ولا فحوصات الدم، بل كانت العفّة والابتعاد عمّا يمكن أن يشوب العلاقات الزوجية.

٢٧ـ السرقة، النهي الثاني (لا تسرق فتحلّ عليك اللعنة)، قد تكون السرقة إحدى الآفات التي يمكن أن يتعرض لها أياً منا وقد يمارسها البعض هواية وتحدياً للآخرين غير عابئ بالمخاطر التي يمكن أن يتعرّض لها، غير مكترثٍ لما قد يواجهه من عقوبات جراء عمله المشين هذا، فالسرقة هي السرقة أن بدأت بفلس يخص الغير أو بمليار، فليس ثمة من يفرق بين سارق الفلس وسارق الوطن.

٢٨ـ إشاعة السوء، نعود إلى النهي أو الأمر المحرم الثالث الذي ورد في الحديث (لا تنفخ بمزمار الشيطان)، إذا أردنا تحليل هذا القول، نطرح سؤالاً بديهياً: وهل للشيطان مزمار؟! نجيب، نعم للشيطان مزمار واحد ولكن لهذا المزمار مليون نافخ! فلا عجب أن المقصود بالمزمار هو الإشاعة التي يراد بها التشويه والحطّ من الآخرين، أو تشويه صورة ما استناداً إلى قول مشبوه أطلقه من لم يصن لسانه لأطلقها دون أن يعي، بل أنه زيّنها بأن حرّفها بنا يتناسب وطبعه اللئيم دون أن يدرك أنه بعمله هذا سيكون وقوداً للنار.

لذلك، وبعد هذا التجوال بين المحرمات عند الصابئة، نقول لأن

النواهي تصدر من القوي المقتدر إلى الضعيف المتلقي لذلك فكل عمل يصدر عن البشر ما يثاب عليه أو يجازى، فإن عملنا حسناً فالثواب هو الأجر، وإن اقترفنا سيئاً فالعقاب هو الجزاء لذلك نلاحظ عند الصابئة حثاً كبيراً على الابتعاد عن المحرمات لأن العقاب سيكون أشد قسوة وأكثر ديمومة وكأنه شيء مهما حاولنا إزالته سيبقى ملتصقاً بنا.

رجال الدين

مما لا شكّ فيه أنّ لكلٍّ عقيدة وعلى رأس كل فرقة دينية لا بدّ وأن يتولى شؤون إرشاد هذه الفرقة وتوجيهها ونشر الأفكار الدينية بين أبناء هذه الطائفة رجال الدين والعلماء فكيف إذا ما تعلّق الأمر بعقيدة الصابئة التي تتميّز بكثير من الطقوس والعقائد الدينية الغريبة والتي تحتاج إلى إشراف رجال الدين!

ومن الطبيعي أن يكون لمحل الكهانة وممارسة مهام رجال الدين شروط ومتطلبات تتعلّق بجسد الصابئي وعقله وروحه. وهناك شروط تتعلّق بالنسب إضافةً إلى مراحل عديدة يجب أن يجتازها الصابئي أو الصابئية للوصول إلى الكهانة.

أمّا فيما يتعلّق بالنسب فغالباً ما تكون الكهانة عند الصابئة وراثية لا سيما الصابئة المندائية. وغالباً ما نجد عائلات كان فيها الأب والابن كاهنين ويستمر هذه الحال لعدة قرون متواصلة إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنه لا يوجد كاهن من أسرة غير كهنونية فالأمر ليس محصوراً بالحالة الوراثية، لأن الصابئي قد يصبح كاهناً إذا كان منحدراً من عائلة صابئيَّة الأب والأم ولبضعة أجيال معينة بعد أن يمتلك كل المواصفات

والصفات البدنية والعقلية والطهارة المعنية التي تؤهله للوصول إلى المرتبة الرفيعة بين الصابئة والتي تجوز على احترام وتقدير الصابئين لما لهذا الدور الديني من مكانه لديهم وأيضاً كلمة رجال الدين مسموعة ومنفذة فلا يستطيع الصابئي ممارسة أي طقس من الطقوس كالزواج، والولادة، والتسمية، والتعميد والصلاة والذبح والجناز من دون وساطة رجال الدين وبالمقابل يدعم الصابئون رجال الدين عن طريق تقديم الهدايا لهم ليستطيعوا العيش عيشة كريمة، من هنا نلاحظ أنّ رجال الدين لا ينعمون بالترف والغنى بل إنهم يعتاشون من أبناء قومهم من الصابئة كمقابل لما يهتمون به من مهامّ تتعلق بالحياة اليومية لدى الصابئة.

ونتابع في موضوع النسب، فمن المسلّم به أنه يجب على الكاهن أن ينحدر من دم صابئي نقي، وأن تكون أسرته طاهرة جسمياً وطقسياً لعدة أجيال، ومن جهتي الأم والأب. وتاريخ الأسر معروف لدى الكهان، عادة في حواشي الكتب المقدّسة... فلا يسمح للفرد أن يصبح كاهناً إذا كانت إحدى جداته خلال فترة ثلاثة أجيال قد تزوجت أرملة أو ليست بعذراء ومن هنا يمكن أن يقال: «إن كل كاهن قد ولدته امرأة عذراء»[1].

وبالنسبة إلى الشروط الجسدية، فيشترط أن يكون تامّ الأعضاء البدنية، وغير مريض، وغير مختتناً لأن المختتن يعدُّ ناقص

(١) دراور، الصابئة المندائيون: ص٢٢٤.

الجسم[1] وبالتالي فإن العقيم أو الخمي غير مؤهّل للكهانة، كما يجب أن يكون عاقلاً يستطيع التمييز بين الصحيح والخاطئ من الأمور ليدرك خطورة ودقة المهام التي عليه أن يمارسها، لذلك إذا تعرض الكاهن الصابئي إلى خلل عقلي لأي سبب أو حادث كان فهو يمنع من ممارسة أعماله الدينية.

والكهانة ليست محصورةً فقط بالرجل الصابئي فالمرأة الصابئية أيضاً يمكن أن تشغل دور الكهانة الحسّاس وقد تصل إلى درجة عليا في الكهانة (كنزفري) ولو أن هذا قليل.

ويوجد في كتاب «الكنزة» ذكر الكاهنات صابئات، ومع ذلك مذيوان «الفترس شيالة» يحذر من تدشين امرأة ككاهن، حيث يقول: «إحذروا أن تدشنوا امرأة كاهناً ازدهر ولا تطرسون تاغة آل أنثى»[2].

أما بالنسبة إلى مراحل التدريب التي يخضع لها الصابئي ليصبح كاهناً، فهي تبدأ منذ الصغر حيث يلبس (الرستة) وهي الملابس الدينية عند الصابئة وهي عبارة عن رداء أبيض يرمز إلى كساء النور الذي ترتديه الروح الطاهرة وتتألف الرستة التي يلبسها العامة من سبع قطع أما الكاهن فيلبس تسعة قطع نتكلم منها بالتفصيل فيما بعد. ويقوم هذا المتدرب بوظيفة القندلفت (اشكنزه) لأبيه ويبدأ بتعلّم الأبجدية منذ

---

(١) الإختتان محرم في العقيدة الصابئية.

(٢) دراور الصابئة المندائيون، ص٢٢٤.

الثالثة أو الرابعة من عمره، وحين يتعلم القراءة والكتابة المندائية يسمى (يلوفا)[1] وحينما يصبح قادراً على النطق يبدأ بحفظ الأدعية والصلوات وعند سن البلوغ يمتنع عن قصّ شعره.

ولا بدّ الإشارة في هذا الصدد إلى «أن الصابئة المندائيين ربما كانت ديانتهم من بين الأديان الحية بالعراق الذين يشكون باستمرار من نقص في رجال دينهم، ويبدو أن الذابح والاضطهادات كانت تستهدف كهنة الطائفة وهناك سبب آخر لقلة رجال الدين هو صعوبة الوصول إلى الكهانة حسب العرف الديني مدرجة من الدرجات الدينية تفرض على المتقدم إليها أن يسخر ستة أيام متواصلة. فبعد تفادي شحة الكهنة أثناء حوادث عديدة ذهب الطاعون الكبير سنة ١٨٣١ بشيوخ الطائفة بسوق الشيوخ (من توابع الناصرية بجنوب العراق) وقد عالجوا الأمر باستدعاء كهنة من مناطق أخرى يشرفوا على طقوس تنصيب كهنة جدد»[2].

ونضيف في الموضوع نفسه «أن الليدي دراور أطلعت على ما جاء في طلسم يخبر عن مذبحة رهيبة طالت كهنتهم وشيوخهم حدثت في زمن حاكم العمارة محسن بن مهدي»[3]، «كان السبب امرأة صابئية خرجت من دارها إلى النهر في اليوم الأول من السنة الجديدة في الوقت الذي ينبغي أن يكون فيه جميع أفراد الصابئة داخل بيوتهم فتعرض لها

(١) فرد صابئي مثقف دينياً دون درجة كهنوتية.

(٢) أداموف. ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص٢٤٦.

(٣) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٦٠.

أعراب كانوا في أسطول من الزوارق راسٍ هناك، ونشب قتال وأعلنت الحرب على الصابئيين فذبح الكهان والرجال والنساء والأطفال وبقيت الطائفة مهيضة وبلا كهان لعدة سنين»(١).

درجات رجال الدين

يقول المسعودي: «أعلى كهنتهم يسمى رأس كمري أي «درجة دينية» عرف بها كهنة المندائيين وهي تقابل اليوم رئيس أمة أو (ريش أمة) حسب اللفظ المندائي وهو أعلى درجة دينية بين المندائيين الحاليين»(٢).

ولكن المشهور من درجات رجال الدين وتراتبيّتها نبيّنه فيما يأتي:

١ـ الحلالي:

ويسمى الشماس يسير في الجنازات ويقيم سنن الذبح للعامة، ولا يتزوج إلاّ بكراً، فإذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته ومنع من وظيفته إلا إذا تعمّد هو وزوجته ٣٦٠ مرة في ماء النهر الجاري. وتقتصر دراسته على بعض الكتب الدينية الأولية ويتعمّد التعميد الخاص بهذه الدرجة.

---

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص٥٧.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب في العراق، ص٤١.

٢. الترميدة:

يسمى المرشح لهذه الدرجة (الشولية) وهذه المرحلة تعدّ أولى درجات الكهانة، لذلك يخضع فيها المرشح إلى عدة شروط ومراسم، ويجب أن يحفظ ما يكفيه من الطقوس والصلوات ويكون قد اعتاد على العمل كـ (قندلفت) ودرس الكتب المقدسة بإشراف كاهن أو أستاذ (كنزفره) حتى يصبح مؤهلاً لهذه الدرجة من درجات الكهانة أي الترميدة. ويخضع المرشح لهذه المرحلة بعد البلوغ حيث يتم تدشينه بمراسم خاصة شبيهة بمناسبات أخرى.

هذه المراسم تقام بعد أن يفقه (الحلالي) الكتابين المقدسين (سوره أنشماثا والنياني) أي كتابي التعميد والأذكار. فإنه يتعمد بالإرتماس في الماء الموجود في المندي ويبقى بعدها سبعة أيام مستيقظاً لا تغمض له عين حتى لا يحلم، ويترقى بعدها هذا الحلالي إلى ترميدة ويتحضر ووظيفته في العقد على البنات الأبكار.

يكون احتفال التدشين بحضور تجمع كبير من الصابئة، فتدشين كاهن حدث مهم، يدخل السرور والفرح إلى قلوب الصابئين لما يشتمل عليه من مراسم وطقوس، ويقوم (الكنزفره) بدوره بجمع أكبر عدد ممكن من الكهان وهو الذي يرأس الحفل ويدعى (ربى). وفي هذه المناسبة يعمد المرشح عمادين أحدهما على يد كاهن والآخر على يد (الربى)، ويحضر بكبش بعد أن يغسل ويطهر ويذبح بجانب الماء فوق فرشة من القصب،

ويعدّ هذا الكبش فداء (فدوة)[١] وبعد ذلك يؤخذ (الشوليه) إلى المندى حيث العماد الثاني ولكن هنا تكون المراسم أكثر دقة وشروطاً حيث يتأكد الكهان من سلامة جسمه بصورة نهائية، بعد ذلك يرتدي سنّ الحيض بغسل ساقيه، واحدة من اليمين والأخرى من اليسار. بعد ذلك يبني كوخ من القصب في الطرف الجنوبي من ساحة بيت (الكنزفره) أو المندى يقوم (الكنزفره) والكهان بالوضوء ثم بإقامة (الرهمى)[٢] ويأخذون أماكنهم داخل (الأنديرونا)[٣] متجهين نحو الشمال وأمامهم كتاب (سدره أو نشماثه) ويقوم (الشوليه) بتلاوة (سدرة أو نشماثه) بأجمعها عن ظهر قلب وهو خارج (الأنديرونا) يتابعه الكهان ناظرين في نسخهم من الكتاب نفسه ليتأكدوا من عدم وجود أي خطأ، فالمرشح لا يصبح مؤهلاً ولا يعدّ مستحقاً للكهانة إن لم يحفظ (سورة أو نشماثه) عن ظهر قلب، كذلك عليه أن يحفظ (القداس الكامل للمسخثة)[٤] و(الرهمى) وبعد نجاحه يدخل (الأنديرونا) يقرآن الكتب المقدسة ويقيمان الصلوات ويجب وجود كتابي ديوان (آله ريشايه) وديوان (ملكوثه اليثا)، وإلاّ عدت المراسم لاغية، ولا يجوز (للكنزفره) أو الشولية الخروج من الأنديرونا حتى

---

(١) تمارس هذه العادة في أكثر الأديان كاليهودية والمسيحية والإسلام.

(٢) وهمى: دعاء تمهيدي لطلب الرحمة، ونلاحظ أن لفظ رهمى قريب جداً من اللفظ العربي رحمة، وإنما في اللفظ المندائي تقلب الحاء هاء.

(٣) الانديرونا: هو الكوخ الذي أقيم جنوب المندى وبشكل دائم فإن الأنديرونا تعني كوخاً من القصب يقام في عقد المهر وتكريس الكاهن.

(٤) المسخثة: غفران، قداس عن روح الميت، أو من هو بحكم الميت.

الصباح ويخرجان في الفجر الباكر قبل شروق الشمس ويقوم الكنزفره يوم الأحد الأول بـ (الرهمى) وتعميد الشوليه.

وعلى (الشوليه) أن يقوم بتلاوة وصلاة استئذان وطلب الغفران (مشبه زيوه الكبير) وبعد الانتهاء من تلاوتهما يدخل إلى الماء ليتعمد حتى إذا انتهى من ذلك خرج من الماء «وأخذ اليمنى» وهكذا يأتي من الماء ليدخل إلى «الشختنه»[١] ويذهب الكهان إلى (الأنديرونا) ويقومون بهدمها. ويجب على الشوليه أن يبقى داخل (الشختنه) إلى صباح يوم الأحد الثاني ولا يخرج منه إلاّ للوضوء (الرشامة) أو استجابة لنداء الطبيعة أو لغسل طعامه من ماء النهر، ويبقى الكنزفره أكثر وقته مع الشوليه، يرشده ويصلي معه، وملا يمنع الشوليه من تناول لحوم الضأن، والخضراوات والفواكه والسمك إذا طهرت بصورة صحيحة، وطبخت من قبل أحد الكهان، «ولا يجوز أن تقوم امرأة بعمل طعام الشوليه في مثل هذه الحالات»[٢].

وتتابع مراسم الاحتفال في الصباح الباكر من يوم الأحد الثاني حيث ينتظره تعميد (الكنزفره) وذلك بعد الرهمى، ثم يقوم بتعميد سبعة كهان أو ثلاثة على أن يكون أحدهم (الكنزفره).

---

(١) شختنه: بيت العبادة.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص ٢٣١.

وبذلك تكون قد انتهت مرحلة التكريس ليخوض المرشح مرحلة أخرى وهي فترة الطهارة وهي تدوم ٦٠ يوماً وفي هذه الفترة يجب على الشوليه الاغتسال (طماشه) ثلاث مرات يومياً قبل (رهمى) الصباح وعند الظهيرة وبعدها. ويعيش (الشوليه) بعيداً عن أسرته، وعن زوجه إذا كان متزوجاً ويكون غذاؤه هو نفسه بصنع الخبز، وذلك بقصد تطهير روحه من كل ما يعلقها بالدنيا وملذاتها فتصفى نفسه ويترفع جسده عن مشتهيات الحياة.

وحينما تنتهي هذه المرحلة بشكل صحيح يقوم الشوليه بتعميد أستاذه (الكنزفره) مرة ثانية، وهي الأخيرة التي تدل على نجاحه في عمله، وبعدها يدخل إلى (المندى) لعمل وقراءة (السختة).

وفي صباح يوم الأحد التالي يغسل (المندى) من الداخل والخارج، ويؤتى بالحمامة والكبش، المهيئين للذبح كأضحية، ويرتدي (الكنزفره) (الرسته) التي كان قد ارتداها في أول يوم من أيام تكريس (الشوليه)، ثم يقوم بذبح الحمامة ثم يخلع الكنزفره الرستة، وتحفظ في صندوق.

أما الأطعمة، التي تستخدم في مثل هذه الطقوس، كما ذكرتها دراور، فهي:

١ـ الطبوثة: وهي عبارة عن الزبيب، والسفرجل، وحب الرمان، وقطع من جوز الهند، وبعض اللوز المقشور، وبعض لحم الحمامة المشوي.

٢ـ قنينة ماء.

٣ـ (كثبة)(١) فارغة.

٤ـ ست وستون رغيفاً من الخبز الصغير (فطيري كانت عجينتها قد هيئت من قبل الكهان من دون ملح، يقوم القندلفت (اشكنده) بتهيئة الأدغنة، إلا أنه لا يقوم بخبزها بل يقوم بإمرارها ثلاث مرات فقط، بحركة دائرية فوق النار، ويجلس (الشوليه) فوق لوح من الخشب، أو على كرسي من القصب، ويبدأ بتلاوة جميع الأدعية والتراتيل عن ظهر قلب.

ثم يبدأ (الشوليه) بتكريس ملابسه، وتاجه وهو يذكر اسم أستاذه (ربى) الذي قام بتكريسه، في كل موضع فيه ذكر لاسم، ويكون عدد الأدعية هنا خمسة، فبعد دعاء (مندا أقران) «يتلو» بشم ال هيى ربى أسوثا وزكوثا نهويلي الهازا نشمثه دنلان بريلانيتا أدهازه مسخثه هيله أكبر وما بعدها، ثم يشد «البنذامة» حول القسم الأدنى من وجهه(حنكه)، ويأخذ القنينة بيده اليسرى، وقليلاً من البخور الذي فيها بيده اليمنى، ويتلو «هبل هيي قدمايي» (بقوة الحي القديم)، بينما يضع الشاهد أربع زبيبات في «الكبثة» الفارغة فوق «الطريانة»، ويقرأ المرشح «باسم الحياة أنت ماء الحياة...» وحين يصل إلى كلمات «اللواتي فارقت أجسادها» يصب قليلاً من الماء على الزبيب في «الكبثة»، حتى

---

(١) إناء معدني صغير لشرب الماء المقدّس.

إذا وصل في دعائه إلى عبارة «روح المسخثة» يذكر اسم «الكنزفره» ثم يرمي البخور في إناء النار، ويناوله الكنزفره عضنا من اللآس، يأخذه بيده، ويبدأ بتلاوة ستة أدعية، ثم يأتي القندلفت، ويأخذ العجين الذي لا ملح فيه، ويمرره فوق النار ثلاثاً، مردوا «اشم ادهيي واشم أو منداد هي مدخر...» أي «اسم الحي أو الحياة، واسم منداد هي منطوقات عليك» وتسمى هذه العملية «سهاده ادنوره» أي «الشهيد في النار»[(١)].

ويقوم المرشح، بعد ذلك بوضع قدح الماء الممزوج بالزبيب فوق (الطريانة)، ثم يأخذ شيئاً من العجين، وغصن الآس لا يزال في يده، ويتلو تسعة أدعية، ويغمس خاتمه (شوم ياور) في القدح، ويتلو دعائين، ثم يأخذ (الكبثة) التي تحتوي على عصير السمسم والتمر (مشه)، ويضع الإكليل و (البهثة) فوق (الطريانة)، ويتلو ثلاثة أدعية، فإذا وصل بالدعاء الثالث إلى عبارة (بالبوشه اديوزاطق مندا وهيي) يلف الإكليل بـ (اليهثه) ويتلو الدعاء نفسه إلى نهايته، ثم يناول الفطائر إلى القندلفت ليضعها «واحدة فوق الأخرى كل عشرة سواء، فوق (الطريانة) حتى ينتهي من تكريس الفطائر الستين وتجميعها الواحدة فوق الأخرى ويمسك المرشح بالإكليل فوق كل فطيرة، ويضع على كل منها شيئاً من حبّ الرمان، وجوز الهند، والبندق، والسفرجل والزبيب

(١) الصابئة المندائيون، ص ٢٣٧. يقول الأستاذان بدوي وغضبان: أن معنى (سهاده ادنوره) الشهيد في النار، لا شهادة النار كما قالت دراور.

وشيئاً من لحم الحمامة، ثم يغمس أصبعه في الزيت (مشه) ويمر به عليها، وهو يتلو بعض الأدعية، وهكذا يرسم كل فطيرة خمس عشرة مرة، وحين ينتهي من رسم الفطائر الستين، يستأنف تلاوة دعاء، كان تلاه سابقاً، حتى إذا بلغ ذكر «روح فلات البيت أباثر» يصل إلى الدعاء الخاص بالأسلاف «ابهاثان»، أي التضرع إلى الأسلاف، وينتهي الدعاء الأول بدعائين دون الرسم بالزيت، وهذه المراسم مهمة لدرجة أن «الكنزفره» يظل يتابع تلاوتها بقوله: «وقل قد قسمت ونزعت العلامات المثلثة...» ويرد «الشوليه» محترساً أن يكون صحيح الرد، فيقول: «قطعت وقسمت وابتلعت جزاء ال (با) واقتطعت شيئاً من الفطيرة العليا، وشيئاً من الفطيرة السفلى» وبينما هو يكرر هذه العبارات يكسر قطعة من الفطيرة العليا وأخرى من الفطيرة السفلى من الكوم الذي أمامه، ويضع هاتين القطعتين إلى جانب «البهثه» بعد إزالة الإكليل منها، مضيفاً إلى ذلك شريحة من لحم الحمامة، ثم يقوم بعد ذلك بالدعاء ماداً كلتا يديه على لثامه، بعد ذلك يحل اللثام، ويغمس «البهثه» مع ما أضيف إليها في الخمرة، ويضعها في فيه ثم يبتلعها بأجمعها، ويشرب بعد ذلك الخمرة، يناوله المساعد «كثبة» أخرى وقنينة من الماء، كان قد وضعها خارج المندى في المدخل عند بدء إجراء المراسم، يصبّ المرشح شيئاً من هذا الماء في ويشربه»(١).

---

(١) دراور، الصابئة المندائيون: ٢٣٧.

وعليه الآن «أن يرفع صوته، ويتلو سبع صلوات، يدخل فيها اسم «الكنزفره» في محلاتها المناسبة، وبعد تلاوة هذه الصلوات السبع يمدّ يديه فوق «الطبوثة»، ويتلو تسعة أدعية، وبعد ذلك يجلس، ويتلو دعاء «طاب، طابه الطابي» وهذا الدعاء مرتبط دائماً بطقوس تناول الطعام بعد ذلك يتلو أربعة عشر دعاءً، يأتي بعدها دعاء «طاب طابه الطابي» الذي يخصّ «سام بن نوح»، أي «اب طابه الطابي وأترس كينانه الرهمى»، «ينهض بعد ذلك ويتلو دعائين»[1].

وأخيراً يعطي يده اليمنى للمساعد من العهد (كشطه)، ويقول: (اسيخ قهيخ) الكبير (وفتى)، ثم دعاء (طاب طابه الطابي) مرّة أخرى. ويأتي المساعد من البركة، ويقوم بقراءة دعائين هما:

١ـ اتملون هي، أي (ادعو للحي).

٢ـ طاب طابه الطابي، (دعاء الأسلاف).

ثم يرمي الماء على صولجانه، ويعيد تلاوة بعض الأدعية الأخرى بعد ذلك يتفقّد المساعد ملابس (الشولية)، ليتأكّد من مكان كل قطعة ويناوله الكاهن الجديد (الكشطة) ثم يأخذ بالدعاء متحللاً من ملابسه وتاجه وتنتهي بذلك مراسم التكريس.

---

(١) نفس المصدر: ٢٣٧.

٣. الكنزفره:

الترميدة الفاضل الذي لم يعقد على الثيّبات مطلقاً يمكنه أن ينتقل إلى كنزفره أو (كنزبره) وذلك إذا حفظ كتاب (الكنزاربا) حينئذ مفسِّراً له، ويجوز له ما لا يجوز لغيرهنّ فلو قتل واحداً من أفراد الطائفة لا يقتص منه لأنه وكيل الرئيس الإلهي عليها. ويشترط لكي ينتقل إلى هذه الدرجة أن يكون مدبراً في أمور الدين مطلعاً على التفاسير والشروح الدينية وأن يكون متزوجاً وغير عقيم وسبق له أن عقد مهراً لترميذه.

وهناك طقوس ومراسم لترفعه وهي الشكل التالي: يجب عليه إقامة عرشين من القصب والطين، وسعف النخل النظيف[1] ويكون بالقرب من ماء جار عند (المندي)، فيمضي ليلته الأولى في العريش الأول، مسهِّداً طوال الليل ومصلياً ثمّ يحرق هذا العريش، وينتقل إلى العريش الثاني، حيث يوجد اثنان من (الكنزفره) واثنان من درجته (ترميده) مع شاهدين (اشكنده)، فتتم رسوم انتقاله إلى الدرجة الجديدة (كنزفره)، أي مفسّر كتاب (الكنزا). وأصحاب هذه الدرجة لا يتعدون الخمسة في هذه الأيام.

٤. ريش أمة:

أي رئيس الأمة، وصاحب الكلمة النافذة فيها «ولا يوجد بين

(١) تسمى (اشختا).

صابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة لأنها تحتاج إلى علم وفير وقدرة فائقة»[1] (فالكنزفره) الذي يريد الارتقاء إلى درجة (ريش أمه) أن يكون عالماً كبيراً وذا أهلية وكفاءة ممتازتين، وقادراً على محاكمة الأمور بشكلٍ مشهود من العلماء.

٥. الرباني:

«وهي أعلى مراتب الاجتهاد، ولم ينل هذه المرتبة من السابقين غير النبي يحيى بن زكريا عليه السلام»[2]. «كما لأنه لا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الدرجة في وقت واحد. والرباني يرتفع ليسكن في عالم الأنوار وينزل ليبلغ طائفته تعاليم الدين، ثم يرتفع كرة أخرى إلى عالمه الرباني النوراني»[3].

(١) موسوعة العقائد: ٣١٩.
(٢) مجلة العربي العدد ١١٢، سنة ١٩٦٨، ص١٥١.
(٣) موسوعة العقائد: ٣١٩.

الملابس الدينية

الملابس الدينية عند الصابئة تسمى (الرسته) وهي عبارة عن رداء أبيض، يرمز إلى كساء النور الذي ترتديه الروح الطاهرة، وتتألّف الرسته التي يلبسها العامة من سبع قطع.

أما التي يلبسها الكاهن فمن تسع قطع وهي على الشكل التالي:

١ـ القميص: ويسمى كسويا وهي آتية من لفظ (الكسوة) في العربية ويقصد بالقميص سدرة من القطن الأبيض.

٢ـ الدشة أو دشا: وهي عبارة عن قطعة من قماش القميص نفسه، تخاط من الخارج أعلى الناحية اليمنى من فتحة الصدر.

٣ـ الشروال.

٤ـ التكة: وهي الخيط الذي يشدّ الشروال إلى البطن ويقال لها (الدكة) في لغة العامّة العربية.

٥ـ برز نكا (العمامة): وهي قطعة من الموصلين الأبيض، وتلف ثلاث لفّات حول الرأس، وتترك إحدى النهايتين مدلاة فوق

الكتف الأيسر وتسمّى هذه النهاية (رغزه).

٦ـ الهميانة (الزنار): تنسج من ستين خيطاً صوفياً، وتلفّ حول الخاصرتين.

٧ـ النصيفة (القبوعة): وهي قطعة من الخام، تلقى على الكتفين.

٨ـ شوم ياور: حلقة من الذهب، تلبس في خنصر اليد اليمنى، مكتوب عليها (شوم ياور زيوا) ويستعملها الكهان فقط.

٩ـ التاغة (التاج): حلقة مجوّفة من الحرير الأبيض أو القطن ولا يستعملها إلاّ الكاهن.

المندي

إذا ربطنا بين لفظ المندي واسم الصابئة المندائيين يمكننا أن نحصل على نتيجة تؤكّد هذا الرابط «فمن الغرابة أن يتجاهل المؤرِّخون لا سيما المسلمون تسمية المندائية، والتي هي الاسم الصحيح لهذه الجماعة فهي نسبة إلى مكان عبادتهم (المندي)»(١).

فأول معلومة توصّلنا إليها هي أن المندي هو مكان عبادة المندائيين وبالطبع في هذا المكان كانوا يمارسون طقوساً عديدة إذ يصف المبشّر الأميركي Zwemer أحد طقوس المندائيين باعتبارهم من عبدة الكواكب قائلاً: «يسير عبدة النجوم رجالاً ونساء قبيل منتصف الليل ببطء بمحاذاة النهر متجهين إلى المشكنة (المندي)»(٢).

وهذا يدلّ على أهمية وقداسة المندي عند الصابئة حيث يجري فيه تعميد رجال الدين وتوضع في المندي الكتب المقدّسة. وهناك من الباحثين من يتعمّق في تاريخية المندي فيكتشف رابطاً بين المندي والمعابد

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص٤٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٢.

البابلية فيقول الباحث العراقي عزيز سباهي عن آخرين: «إن هذا المعبد (المندي) يذكر بالمعابد البابلية في مراحل العبادة الأولى حيث يوضع تمثال الإله في كوخ صغير بني من القصب والطين ويجلس فيه الكاهن وإليه يلتجئ الناس التماساً للمشورة وقد عثر مع (رقيم مشهور من كيش) على صرة هذا المعبد»(١).

بعد أن تعرَّفنا على أن المندي هو مكان تعبّد المندائي، السؤال يطرح نفسه:

كيف يُبْنَى هذا المعبد؟

«المندي هو كوخ صغير من القصب المطلي بالطين، يبنى على الأرض غير المبلّطة والفتحة الوحيدة فيه هي الباب التي تواجه الجنوب لكنه يتجه من داخله نحو الشمال نحو النجم القطبي حيث يتجه المندائيون في صلواتهم، ولا تجري فيه أي شعائر دينية يجوز للعامّة أن تشارك فيها، وأمامه بركة أو حوض من الماء يرتبط بقناتين في مجرى الماء الجاري تسمحان بجريان الماء في البركة»(٢).

نلاحظ أن هناك قواعد محددة يجب تحقيقها عند بناء المندى من ناحية الشكل والمواد المستعملة في البناء، فالمندى يأخذ شكل جمالون. ويجب الإشارة إلى أن القناة التي يتصل بها تستخدم للطهارة وإلى أن

(١) عزيز سباهي، أصول الصابئة، عن هوك، ديانة بابل، ص٧٦.
(٢) نفس المصدر، ص٦٥.

المواد وتركيبها ونشبها وشكل المندى بالإجمال موصوفة كتابه، ومعروفة شفاها عند الصابئة. ويقام المندى على الضفاف اليمنى من الأنهر الجارية. ولا يسمح للنساء بدخول المندى.

ويقول الصابئة: «كان المندى قبل يحيى يشبه بيتاً من بلور ولكن حين طرد الصابئون من القدس، كان عليهم أن يتخذوا له شكلاً من أشكال البناء، مما يمكن إقامته بسهولة»(١).

وفي أوقات احتفالات الارتماس، يرفع العلم الحريري (علم يحيى درفشه) على ضفة البركة إلى الجنوب الشرقي من الجهة اليمنى من المندى، ويوجد داخل المندى علاقتين (شكاصه) لتعليق الملابس.

حالياً يوجد في مدينة الأهواز ثلاثة: ١- مندى خسروى ٢- مندى نظامى. ٣- مندى عامري. وفي مدينة خرمشهر أيضاً يوجد مندى. ولديهم أيضاً مدرسة لتعليم اللغة المندائية وروضة للأطفال باسم مهرآرين وفرقة مسرحية وجمعية نسائية، وتجتمع النساء يوم الأحد في مندى خسدوى لمتابعة أمورهنّ.

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص١٩٩.

الزواج عند الصابئة

من الواضح أن الزواج ممارسة قديمة جداً ابتدأت من زمن آدم وحواء وإلاّ كيف تم استمرار النسل وبالتالي انطلاق البشرية وتقدم دورة الحياة كاملة ذلك لأن الزواج لا يختص فقط بالبشر إنما أيضاً بالنبات والحيوان.

والجدير بالذكر أن كل الأديان السماوية وغير السماوية تقدّس الزواج ويثبت ذلك دقة التفاصيل والطقوس، والشروط التي سيتم بها الزواج مختلف من دين إلى آخر.

وإذا نظرنا إلى العقيدة الصابئية نجد مكانةً كبيرةً مخصَّصة للزواج حيث «يبارك الدين الصابئي الزواج والخصب معتبراً إياه فريضة من فرائض الدين ولذلك نهى بشدَّة عن العزوبة بما في ذلك رجال الدين»[(١)].

ولكن نتفاجأ عند قراءة ما كتب ابن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) من رأيه في الزواج عند الصابئة تحت عنوان «خصاء الصابئة» إذ يقول: «وأما الصابئون فإن العابد منهم ربما خصى نفسه فهم في هذا الموضوع قد تقدّم الروحي فيما اضطر من حسن النية وانتحل من الديانة والعبادة

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٧.

بخصاء الولد التام وبإدخاله النقص على النسل كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه ويسمر عندهم.. وقد خصى نفسه من الصابئين رجال قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم»[1].

ولكن إذا أردنا التحقق من صحّة قول الجاحظ نلاحظ في التعاليم الصابئية والبوثات (الآيات) الواردة في كتابهم المقدّس ما ينفي ذلك حيث نجد في عقيدة الصابئة أن «الجنّة حرّمت على من يعزف عن الزواج ولا يولون عاقراً منصباً دينياً»[2].

وإذا أردنا أن نستعرض الآيات فنجدها كفيلة بهذا الردّ: «أيها العزاب أيتها العذارى، أيها الرجال العازفون عن النساء أيتها النساء العازفات عن الرجال هل وقفتم على ساحلا لبحر يوماً؟ هل نظرتم إلى السمك كيف يسبح أزواجاً؟ هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم هل تأمّلتم الأشجار واقفة تشرب الماء على ضفافه وتثمر؟ فما بالكم لا تثمرون؟»[3].

نلاحظ من خلال هذه الآيات إصراراً ودعوة حثيثة إلى الزواج إلى درجة جعلها من الفرائض إضافة إلى أنه هناك في آيات أخرى ذماً

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ص٢٦٧.
(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٥.
(٣) الكنزاربا اليمين، الكتاب الثاني، ص٣٨- ٣٩.

للعازفين عن الزواج لأن الدنيا لا تعمر ولا تثمر من دون الخصب والزواج. فقد جاء في البوثة: «الرجال الزاهدون في النساء والنساء الزاهدات في الرجال كذلك يموتون ومصيرهم الظلام حيث من أجسادهم يخرجون»[1]. وهناك آية يظهر فيها الأمر بالقيام بالزواج وتبرز فيها أهميته بشكل جليّ إذ تقول التعاليم المندائية: «وأمرنا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجاً تعمر بكم الدنيا»[2].

ومن الخطأ الفادح لدى الصابئة أن يبقى الصابئي أعزباً لأنه ليس للأعزب مكان في عالم النور (الجنة) ولا جنّة له في الدنيا والدليل على ذلك ما ورد في هذه البوثة: «أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور»[3].

وللزواج عند الصابئة شروط ومستلزمات وطقوس خاصة، فمن ضمن الشروط والقوانين أن الرجل يستطيع أن يتزوّج ما شاء من النساء إن استطاع القيام بذلك مادياً ومعنوياً. فالصابئة يمنحون الرجال تعدُّد الزوجات ولكنهم يفضّلون الزوجة الواحدة، وغالباً ما يتمُّ اختيار الزوجة القريبة من العائلة فيختار الرجل ابنة عمه وإذا لم تعجبه ينتقل إلى ابنة خالته.

ويتسنّى للرجل انتقاء الزوجة واختيارها من خلال طرق عديدة

(١) المرجع نفسه.
(٢) مراني ناجية، مفاهيم صابئية مندائية، ص١٤٥.
(٣) الكنزاربا اليمين، الكتاب الثاني، ص٣٨- ٣٩.

كالمناسبات والاحتفالات والأعياد والزيارات العائلية أو من خلال زيارة أقارب وأهل الرجل لطلب يد الزوجة.

وهناك تقاليد صابئية تضع الفتاة العذراء في مرتبة أعلى من الثيّب حيث تعافي هذه الأخيرة من نظرة درنية إلها من قبل المجتمع من حولها. فإذا أرادت المطلقة أو الأرملة أو الثيّب الزواج فإنها تجد صعوبة كبيرة في الحصول على من يقبلها زوجة له وإذا حصل ذلك فإن الذي يقوم بمراسم الزواج كاهن خاص يسمى (ابيسق) أي أن لا يجوز أن يقوم بإجراء المراسم رجل الدين نفسه الذي يقوم بعمل ذلك للعذراء بل أقلّ رتبة ومقاماً. «وحتى عند الزواج يجري التأكيد على العذرة فعقد زواج الثيّب لا يتطلّب العماد وأداء قسم الإخلاص من قبل الزوجين أمام رجل الدين»(١).

أما أولاد الثيّب فيحرّم عليهم أن يصبحوا كهاناً لثلاثة أجيال قادمة وهذا يعني أن الاحتقار لا يطالها هي فقط بل أيضاً أولادها. وعلى الرغم من أن الطلاق محرّم عندهم إلاّ لأسبابٍ قاهرة وهي تنحصر بالمرأة وتتلخص بارتكاب الزوجة فاحشة معيّنة أو إهمالها واجبات الطهارة، فإذا تطلّقت المرأة وأصبحت أرملة فلا تستطيع أن تتزوج إلاّ بعد أن تعتدّ لمدة ثلاثة أشهر.

أما الاحتقار الأشدّ وطأة يقع على المرأة الخاطئة ولكن بما أن

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٧.

القتل محرّم عندهم فهم لا يقتلونها ولكن عقابها يكون باحتقارها واعتبارها على هامش الحياة والمجتمع مما يجعل هذا العقاب أكثر قساوة من القتل.

وفي حالة هجران الرجل الصابئي زوجته لسبب ما مهما يكن فهي لا تستطيع اعتبار نفسها مطلّقة ولا أرملة وبالتالي لا تستطيع الزواج إلاّ بعد موت الزوج وتيقنها من ذلك.

ومن قوانينهم أيضاً التي تعدّ الأكثر حساسية وتعبّر عن تعصّبهم وتمسُّكهم بدينهم هو أن المرأة إذا تزوّجت من غير صابئي فإنها تخرج عن عقيدتها وتصبح في عداد الكفرة وكذلك الأمر إذا تزوّج صابئي بأجنبية.

وإذا أردنا أن نعدّد المحرّمات من النساء عند الصابئة نجدها هي ذاتها في الإسلام وبقية الأديان السماويّة وهي: الأم، والبنت والأخت، والعمّة، والخالة، وبنات الأخ والأخت، وأم الزوجة والمرضعة والأخت من الرضاعة، والربية (بنت الزوجة وبنات الابن والابنة، وما تناسل عنهن والجمع بين الأختين).

وبالانتقال إلى مراسم الخطبة والزواج فهناك تفاصيل كثيرة تتسم بالغرابة ولكن بالطبع فهي أمور عادية وطبيعية بالنسبة للصابئة أنفسهم. فبداية الحديث تكون عن المهر فهو غير محدّد فالمعيار مقدار سعة الزوج وقدرته المادية ولكن ما يتوجّب عليه تقديمه لخطيبته هو ما تحتاج إليه من الملابس والحلي وما زنته خمّصه من الزعفران ومقداراً من الشنان (مدة

من النبات تستخدم للتنظيف) وقطعة نقد من الفضّة تقدّم لأم الخطيبة رمزاً لتعهدها الفتاة وتسمّى هذه العملية (حق ربيته) أي حق (التربية).

وكما ذكرنا في السّابق أن التعميد يتمّ في حالات ومناسبات عديدة ومن ضمنها الخطبة:

الخطوة الأولى، خلال مراسم الخطبة هي التأكد من عذرية الخطيبة ويتم ذلك على يد زوجة الكنزفره التي تقوم بإجراء رسم الزواج وهو الذي يعقد للعذارى ويساعدها في ذلك إحدى النساء الخبيرات فإذا كانت العروس عذراء يتقرر القيام بعملية التعميد وإلاّ فإن الخيار يكون بيد الخطيب فهو الذي يقرر حينها إتمام الخطبة أو إلغائها. إذاً فالعذرية هي معيار إجراء مراسم الزواج.

بعد ذلك، يجري تعميد العروسين فيتم البدء بتعميد العروس ثم العريس وبعد خروجهما من الماء عليهما أن يمارسا طقساً واجباً وخطوة أخرى وهي أن يدورا حول (الطريانة)(١) والنار متجهين من الجنوب إلى الغرب ومن الغرب إلى الشمال ومن الشمال إلى الشرق ثم يعودان إلى جنوب (الطريانة).

وبعد الانتهاء من هذه المرحلة، يأتي دور تبخير العروسين ويرتدي كل منهما «رسته» جديدة للتهيؤ للمرحلة الثانية من المراسم

(١) وعاء طيني فوقه شعلة من النار مع البخور.

التي تبدأ بعماد آخر يجري في يوم الأحد التالي وينصب كوخ الزواج (انديرونا) في ساحة الدار بينما يجتمع المحتفلون في الساحة الخارجية يرقصون ويمرحون ويعزفون على الآلات الموسيقية ويشربون القهوة. بعدها يصل (الكنزفره) يساعده كاهنان يحملان الأدوات الضرورية والأغذية الطقوسية التي تستخدم في الاحتفال. فيتسلّم (الكنزفره) مهاماً تتعلّق بالعريس وملابسه التي تحتاج إلى دقّة كبيرة وهذا ما يجعل الغرابة طابعاً في بعض خطوات هذه المراسم.

يقوم (الكنزفره) بتفقّد ملابس العريس (الرستة) قطعة قطعة ليتأكد من أن «الهيمانه»[1] قد عُقدت بشكل صيحي وأن كل قطعة من ملابسه بوضعها الصحيح ثم يقوم بإلباس العريس «السكين دولة»[2] واضعاً الحلقة الحديد في خنصره الأيمن والسكين الحديد في زناره وعلى العريس أن يلبس «السكين دولة» ليل نهار إلى يوم عماده وتطهره الثالث الذي سيتم بعد سبعة أيام من دخوله على عروسه وليس من الضروري أن يضعها في إصبعه دائماً بل يضعها في جيبه أو تحت وسادته أو بجانب فراش عرسه ثم يأتي دور العروس فيرسل (الكنزفره) أحد الكهان إلى العروس ليتفقد (الرسته) وليسألها رسمياً أمام الشهود ما إذا كانت راغبة بالزواج من العريس ثم يقوم بوضع خاتمين في خنصرها

(١) الهيمانة: زنار.

(٢) السكين دولة: سكين من حديد، تصلها سلسلة حديدية يختم عليها نقوش حيوانات وزواحف وحشرات، يعتقد الصابئة بأنها شعار دولتهم التي كانت فيما مضى ثم زالت.

التي تبدأ بعماد آخر يجري في يوم الأحد التالي وينصب كوخ الزواج (انديرونا) في ساحة الدار بينما يجتمع المحتفلون في الساحة الخارجية يرقصون ويمرحون ويعزفون على الآلات الموسيقية ويشربون القهوة. بعدها يصل (الكنزفره) يساعده كاهنان يحملان الأدوات الضرورية والأغذية الطقوسية التي تستخدم في الاحتفال. فيتسلّم (الكنزفره) مهاماً تتعلّق بالعريس وملابسه التي تحتاج إلى دقّة كبيرة وهذا ما يجعل الغرابة طابعاً في بعض خطوات هذه المراسم.

يقوم (الكنزفره) بتفقّد ملابس العريس (الرستة) قطعة قطعة ليتأكد من أن «الهيمانه»(١) قد عُقدت بشكل صيحي وأن كل قطعة من ملابسه بوضعها الصحيح ثم يقوم بإلباس العريس «السكين دولة»(٢) واضعاً الحلقة الحديد في خنصره الأيمن والسكين الحديد في زناره وعلى العريس أن يلبس «السكين دولة» ليل نهار إلى يوم عماده وتطهره الثالث الذي سيتم بعد سبعة أيام من دخوله على عروسه وليس من الضروري أن يضعها في إصبعه دائماً بل يضعها في جيبه أو تحت وسادته أو بجانب فراش عرسه ثم يأتي دور العروس فيرسل (الكنزفره) أحد الكهان إلى العروس ليتفقد (الرسته) وليسألها رسمياً أمام الشهود ما إذا كانت راغبة بالزواج من العريس ثم يقوم بوضع خاتمين في خنصرها

(١) الهيمانة: زنار.

(٢) السكين دولة: سكين من حديد، تصلها سلسلة حديدية يختم عليها نقوش حيوانات وزواحف وحشرات، يعتقد الصابئة بأنها شعار دولتهم التي كانت فيما مضى ثم زالت.

أحدهما ذو حجر أحمر في الخنصر الأيمن والآخر ذو حجر أخضر في الخنصر الأيسر ثم يصب الكاهن الماء على يديها من الإبريق ويقدم لها اللوز والزبيب لتأكل وماء الإبريق لتشرب وتقام بعد ذلك خطوة أخرى تخصّ العريس ونلمح فيها تقديم مأكولات شهية احتفالاً بالخطبة وهنا يأتي دور (الزدقة برنيمه) حيث يتناول العريس والمحتفلون الطعام المقدّس الذي هيّأه الكهان ويتألف من جوز وبصل وطرشانة زبيب ولوز وسمك مشوي - وصا (رقاقة دقيقة من الخبز مستديرة كالخرز) وملح وقنينة مملوءة بالخمر (همره)[1]. «وهذا الخمر يقوم (الكنزفره) بتحضيره في اليوم نفسه كي لا يفسد»[2].

وهو أيضاً الذي يوزّع الصا إلى قسمين بين العريس والعروس بعد أن يضع فيهما قليلاً من كل نوع من أنواع الطعام المقدّس.

ونلاحظ في هذه المرحلة أن الكنزفره يقوم بدور كبير فبعد تقديم الطعام للعروسين يقوم بصبِّ الماء على يد العروس ويقدِّم لها (الصا) ويقول لها: «هذه المرة بدور العريس كلي هذا ولا تأكلي إلاّ مني» ويفسّر هذا الطقس بأن عريسها من الآن فصاعداً هو المسؤول الوحيد عنها وأنه يطلب إخلاصها. بعد ذلك يوزّع الطعام على الحضور وما تبقى من الطعام يلقى بالنهر.

(١) الخمر: (همره) يتألف من الماء والزبيب والتمر بعد خلطها وطحنها فينتج سائل بُني يسمى (همره).

(٢) دراور، الصابئة المندائيون: ١٢٨.

في المرحلة الأخيرة، تتم مراسم الزواج بقراءة الأدعية والعهد بين والد العروس والعريس وإقامة الصلوات وإلباسها إكليلاً وشربها الخمر سبع مرات.

ثم يقوم الزوج بمعاهدة «الكنزفره» بالحفاظ على عروسه وتمسّكه بالعقيدة الصحيحة وتربية أولاده على ذلك وأخيراً يقوم «الكنزفره» بإمرار صولجانه (مركنه)[1] فوق رأس العريس ثلاث مرات (وبهذا أصبح غير طاهر وأرخى قبضته من الطيرشيل).

وبذلك، تنتهي مراسم الزواج ولا يستطيع الزوج الاقتراب من زوجته إلاّ بعد أن يكشف (الكنزفره) الساعة الفلكية المناسبة وعند انتهاء الاحتفال يبقى العروسان في الانديرونا لمدّة سبعة أيام يتعمدان بعدها ويجب أن تقام (زدقة برنيمة) باسم الزوجين بعد عمادهما.

(١) المركنة: صولجان، عصا من خشب الزيتون.

الولادة

ذكرنا فيما سبق أن الزواج كان فرض ديني على الصابئة، وبالمقابل، الامتناع عن الزواج يجعل الصابئي منبوذاً بين قومه وعند الله. لذلك، كانت المحافظة على النسل شيئاً مقدَّساً والذي يبقى عازباً يعدّ مرتكباً للخطيئة ويعيش حياة صعبة نتيجة النظرة الدونية التي يتلقاها ممن حوله. ونتبين ذلك من خلال بعض البوثات التي يعتقد بها الصابئة:

«الرجال الزاهدون في النساء والنساء الزاهدات في الرجال، كذلك يموتون ومصيرهم الظلم حين من أجسادهم يخرجون»..

«أثمروا إن أريدكم أن تصعدوا حيث النور»(١).

هذا بالنسبة إلى الزواج والشيء نفسه فيما يتعلّق باستمرار النسل فالذي لا ينجب أولاداً لا يذهب إلى عالم النور، بل عليه بعد موته أن يمرّ بالمطهر (مطراثا)، ومن هناك يعود إلى عالم النور.

من هنا فإن لكل مولود جديد أهمية كبرى عند الصابئة إضافة إلى أن للولادة ومراحلها طقوساً خاصة فللطفل منذ وجوده في رحم أمّه

(١) الكنتزاربا اليمين، الكتاب الثاني، ص٣٨- ٣٩.

وفي شهره الخامس، ينزل الماء السماوي إلى جسمه، ويكون مشابهاً له، كما سيبعث في عالم النور، والاغتسال عند الصابئة يكون واجباً حتى في أحرج الظروف فالمرأة عند اقتراب ساعة الولادة يجب عليها أن تغتسل وأن لا تمسّ أحداً.. هذا من ضمن طقوس الولادة ولكن بعد ولادة الطفل كما عند كل شعوب البشرية فيتم تغسيل الطفل بالماء والصابون، وتتم الإجراءات اللازمة للتخلّص من الحبل السرّي ولكن الغريب أن هذا الحبل السري يدفن في مكان بعيد عن البيت أو يرمى بالنهر كأنه يشكل علامة سيئة يجب التخلّص منها، بعد ذلك يدهن الطفل بزيت الزيتون والملح.

أما الأم بعد الولادة فتعود وتغتسل بالماء من رأسها حتى أخمص قدميها، وتتلف جميع المواد التي استخدمت في الولادة من أقمشة وقطن وغير ذلك، ثم تستبدل الأم ملابسها كأنها انتقلت إلى حياة جديدة وظروف أخرى. ثم تضع الأمّ حلقة (السكين دولة) في خنصرها الأيمن، وتدسّ السكين المتصلة بها بسلسلة في حزامها ويوقد مصباح لمدة ثلاث أيام.

وبالطبع فإن كل هذه الإجراءات تخفي وراءها معانٍ وأبعاد وأسرار لا يفقهها ويدركها إلاّ الصابئة أنفسهم. ويستمر الاغتسال يرافق أغلب أيام الأم بعد الولادة فهي «تعاود الاغتسال الثلاثي في الأيام الثالث، والسابع، والعاشر، والخامس عشر، والعشرين، والثامن والعشرين بعد الولادة»[1].

---

(١) الاغتسال الثلاثي: يغتسل بالارتماس ثلاث مرات في الماء.

وتصبح المرأة على أثر الولادة معزولة (صورثة)، يجب تجنّب مسّها والاتصال بها، يلقى إليها الطعام إلقاء وتتناوله في طبق معدني[1] يجب استبداله وتطهيره بعد كل ثلاثة أيام من الاستعمال.

«إن جميع ما تستعمله من أوان وأطباق يجب أن يعمد معها حين يحين موعد تعميدها على يد كاهن، وتبقى المرأة الوالدة سبعة أيام في شبه دائرة الحصى، يستبدل بعد ثلاثة أيام بحصى جديد، ثم يرفع بعد الاغتسال في اليوم السابع»[2].

أمّا فيما يخصّ الطفل فهناك إجراء يجب أن تتم بعد اليوم الثالث من مولده، فهو يدشّن كأحد أفراد المندائي بأن يرش مسحوق ورق الآس الطري على سرّته، ويقوم الكاهن بإجراء مراسم وضع (السكين دولة) فوق سرّة الطفل، وهو يقول:

«بشميهون ادهيي ربي اسوثه وزكوثه هشمثه وزرسته ونطرته رابتيه وشراره نهويله اديله فلاى بربلنثية أبهازن صورثه ورازه وابثاميل اشم ادهيي واشم مناوهي مدخر..»[3].

ولا يجوز في هذه الحالة أن يمسّ الكاهن الطفل، وإنما يقرأ هذه الصيغة بدون مسّه وترجمة هذا الدعاء «باسم الحياة العظمى، الصحة

---

(١) ويجوز استعمال الأواني الفخارية أو الزجاجية.

(٢) برنجى، الصابئة المندائية، ص٩٦.

(٣) نفس المصدر، ص٩٦.

والطهارة، والختم، والحصانة، والسلام، للروح والجسم، تكون لفلان ابن فلان - يكون اسم المولود الفلكي قد استخرج بمساعدة الكاهن بهذا الختم، وبسرّ ابثاهيل اسم الحياة واسم مندادهيي منطوق عليك»[1].

يأتي دور التعميد للام وابنها معاً، وذلك يوم الأحد بعد اليوم الثلاثين من الولادة وذلك إذا كان المولود ذكراً، أما إذا كان أنثى فيكون تعميدهما بعد اليوم الثاني والثلاثين ويكون هذا الاغتسال الثالث الذي ينهي فترة عزلة المرأة فلا يحق للرجل أن يقترب من زوجته إلاّ بعد هذا التعميد الذي يحتل أهمية وضرورة كبيرة عند الصابئة لأن الطفل الذي يموت قبل هذا التعميد لا يصعد إلى عالم النور لذلك تفضل الأمهات المسارعة في إجراء التعميد في اليوم الثلاثين من الولادة. وهنا يمكن أن نسأل:

من الذي يجري هذا التعميد؟ وهل يعمد الطفل في البداية أم الأم؟ وما هي الطقوس التي تجري في هذا التعميد؟

يمكن أن نجيب أنه يتم البدء بتعميد الطفل على يد (الحلالي)[2] وهو الذي يقوم بدور الأب للطفل فيرتدي (الرستة) ويبدأ الكاهن بتعميده (تعميد زهريته، وهو الذي يدخل الفرد ضمن مجموعة

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) أحد أبناء الصابئة، ذو طهارة طقسية معيّنة.

المندائيين، يساعده قندلفت (شكنده) فيتلو الكاهن (الرهمى)[1] باسم الطفل وفي نهاية الدعاء يلبس الطفل (رستة) كاملة وإكليلاً من الآس (كليله)، ثم تجري عملية تعميد الطفل، وبعد ذلك يؤخذ الطفل حيث يوجد خوان «طيني للبخور (طريانة)» وينطق الأب بهذا الدعاء «اسوثة وزكوثة يا ملكي وأثري ومشكن ويردني وارهاطي واشخناثي إذا لمه دنهوره كليهون» ومعناها «لكم الصحة والمجد - أو الطهارة - أيها الملائكة، وأيها الناس، وأيها المواطنون، و لكم المياه الجارية، والأنهار وجميع ما مع عالم النور»[2].

بعد ذلك يسلّم الطفل إلى القندلفت (شكنده) ليعيده إلى والدته، التي ستجلس وإياه باتجاه الشمال، فوق جذع من النخيل، أو مقرفصة على قدميها.

وتنفرد العقيدة الصابئية بالتشديد على أهمية رعاية الأم لطفلها وتغذيته بنفسها ومن حليبها فعلى الأم أن ترضع ابنها، ويحرم استئجار مرضعة لإرضاعه، كما لا يسمح للصابئة ببيع حليبها وإلاّ فإن عقاباً سيصيبها في الآخرة، وعلى الأب أن يتعهد ولده ويربيه تربية صالحة في مجالات الحياة وخاصة الدينية منها، حتى يصبح صابئياً مندائياً نافعا لنفسه ومجتمعه[3].

---

(١) الدعاء اليومي لطلب الرحمة.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص٩٨.

(٣) تدخل العقيدة الصابئية في كل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان، فمن لبس اللباس، والاغتسال والنظافة وتناول الطعام والحلال والحرام والمعاملات والولادة والحياة والموت والآخرة

من هنا نلاحظ أن الصابئة يتعمّقون ويغوصون في تفاصيل المجالات الحياتية فهم يعتبرون أن تربية أجيالهم يجب أن تتم بتكامل وتفاعل أدوار كل من الأب والأم ليثمر جهدهما الجيل الصالح والسليم.

الطلاق

ذكرنا فيما سبق مدى تشديد الصابئة على أهمية الزواج والحثّ الشديد على رجال الصابئة أن لا يبقوا عازبين لأنهم يقدِّسون استمرار النسل وبالتالي يقدِّسون هذا التكامل والإنسجام بين المرأة والرجل لأنهما مخلوقان من الله تعالى وقد أودع فيهما هذا النزوع إلى إقامة هذا الرابط المتين بينهما والذي يعتبر الأساس في بناء الحياة الإنسانية.

فإذا كان الامتناع عن الزواج وكذلك الإخصاء من المحرّمات عند الصابئة، ومن الأمور التي يعدُّونها اعتراضاً على مشيئة الخالق، فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى الطلاق؟

لذلك، يرفض الصابئة فكرة الطلاق، ولكنّهم لا ينكرون وجود ظروف سلبية قد تدعو إلى ضرورة ذلك، فهم يتيحون للمرأة إمكانية طلب الطلاق إذا كان زوجها يسيء إليها أو يمتنع عن واجب النفقة أو يخرج عن دينه، وكذلك يمكن للرجل أن يطلّق زوجته. من هنا نستنتج أن أمر الطلاق بيد الرجل كما هو متعارف عليه في معظم الأديان. ولكن بالمبدأ العام هم لا يعترفون بالطلاق إلاّ إذا كانت هناك انحرافات أخلاقية خطيرة فيتم التفريق بين الرجل والمرأة عن طريق الكنزبرا.

الموت عند الصابئة

يقسّم الصابئة تكوين الإنسان إلى الجسد والنفس فيعتبرون بأنّ الجسد يمثّل آلة مسيّرة منقادة للروح ويتكوّن من مادة أرضية تقودها الروح (الخلايا). أما مصير الجسم الذي يسمّونه «بفره» فهو الاندثار والفناء والنفس أي (نشمته) ويسمونها الروح أيضاً «الروهة» فهي لا يعلم كنهها إلاّ (هي ربي قدمايى) أي الحي الأزلي ومصيرها الانتقال.

ولتوضيح مآل الروح والجسد بعد الموت نستعين بما قالته الخبيرة في الشؤون المندائية، الليدي دراور:

«أخبرني أحد الكهان: يوجد من كل شيء في الدنيا، الواقع ومقابله المثالي وأوضح لي: إن لكل شخص على هذه الأرض شبيهاً (دموثه) في مشوني كشطه، ولدى الوفاة يفارق إنسان الأرض جسمه الترابي ويلتحق بالجسم الأثيري لشبيهه وفي هذا الجسم الأخير تعاني الروح آلام التطهير أما الشبيه في مشوني كشطه فهو لدى وفاة صفوه الأرضي يغادر جسده الأثيري، الذي استقر به ويدخل في جسم نوراني، وحين تكون النفس البشرية قد أتمت دورتها التطهيرية و ذ.ت

لها موازين أباثر بالانعتاق من أعبائها تدخل أيضاً في عالم النور ويتحد الاثنان»(١).

ويعتبر الصابئة بأن المادة الأرضية في الجسد تعود إلى أصلها بعد الوفاة أما النفس فإنها تنتقل إلى الحساب في جسم نوراني لا يعلم كنهه أو مادته إلاّ الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فإن الصابئة يقولون: «إن ملكا دامه أو نهوره (ملك عالم الأنوار) أمر جبرائيل (هيبل زيوا) أن يخلق آدم من طين (ماء وتراب)، ولكن على هيئة جبرائيل. وعلى هذا الأساس يقوم حساب الفرد الصابئي في آخرته على النفس الطاهرة التي وهبها الله لآدم، لا على الروح (الخلايا) التي تحرّك الجسم، وتديره حسب ما تهواه الروح. وكثيراً ما يكون في تلك الرغبات مخالفات يريده الله تعالى، فهو لا يريد من الإنسان أن يقتل، أو يزني، أو يسرق، أو يكذب..

وإن أية مخالفة سوف تحاسب عليها النفس حين توزن وإذا مات الإنسان فإن النفس تعود إلى عالمها الإلهي في جسم نوراني لا يعرف أحد عنه شيئاً ويسمى «بعزه كسيه» أي الجسم غير المنظور»(٢).

ويتفق المندائيون والبابليين حول هذه الرحلة التطهيرية للروح بعد الموت وحول مصير كل من الجسد والروح بعد الوفاة والملائكة التي تتولّى مهمّات المحاسبة ومراحل الموت.

---

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص١١٠.

(٢) مجلة التراث الشعبي: العدد ١٢، السنة الخامسة، ١٩٧٤، ص١٧٨.

«فباعتقاد المندائيين والبابليين أن الروح بعد مفارقتها الجسد تبقى تحوم ثلاثة أيام حول قبر المتوفى، بعدها تبدأ الرحلة إلى السماء حيث (المطراثي) كما هو الحال عند المندائيين لوزن أعمالها على يد أباثر (ملاك الميزان)»[1]. ونفس الصورة لدى البابليين «فروح الميت عندهم تبقى ثلاثة أيام بعد إيداع جثمانه في القبر بعده تبدأ الرحلة إلى ما وراء العالم وتجري محاسبة الروح على يد المثرا ومن ثم الراشنو الذي يتولى وزن الأعمال الخيرة والشريرة، وحتى إذا مال الميزان نحو جانب الخير فمازال أمام الروح البابلية أن تقدّم كفارة عن الذنوب ولطلب الرحمة وهذا ما يقابل المسنمثة التي تقام للنفس المندائية للغرض ذاته أما من ثقلت موازينة فالجسر الذي يتعينّ إجتيازه في الحالتي يغدو رقيقاً كالشعرة»[2].

والصابئة يعتنون بالصابئي قبل وفاته، لتخرج روحه طاهرة، فحينما «يشعر الصابئي أو أهله بدنو أجله بسبب مرضه، أو تقدمه في السنّ، يحضرون الماء من النهر، ويسخّن إذا كان الجو بارداً وتخلع عنه ملابسه، ويغسل ثلاث مرات من رأس إلى أخمص قدميه، ويوضع المريض فوق فراش نظيف، مواجهاً لنجم القطب ويلبس ملابس جديدة مع عدم عقد الزنار، وحين يشعر الجالسون معه أنه يموت فعلاً يسيلون يديه، ويطبقون جفينه ويضعون (الكليلة) في مكانها تحت العمامة،

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٦.
(٢) عزيز سباهي، أصول الصابئة، ص٦٨، عن هوك ديانة بابل.

وأوراقها الخضر تتدلى فوق الصدغ الأيسر، ويثبتونها بخياطتها في العمامة، لئلاّ تتزحزح من مكانها، كذلك ترتب «الرستة» وتوضع أقسامها كلّ في مكانه، ويخاط عليها قطعتي ذهب أو فضة، وتغطى القدمان بطرفي الطبرشيل (النصفية)»(١)، فإذا عاش المريض، فلا يمكن استعمال (الرستة) إلاّ للأغراض الاعتيادية ولا يمكن استعمالها لمحتضر آخر، وحين يتوفى أي شخص يقوم المجتمعون بعقد الزنار عقدة أخيرة، ويدسّ طرفاه إلى الجانبين ولا يتم دفنه إلاّ بعد وقت للتحقق من الوفاة.

«ومن المستغرب أن المندائيين منذ القدم لم يكونوا يهتمون بالمقابر والأضرحة التي تخلّد عادة صفوة القوم وهذا ما يؤكِّدُ تعصبهم للروحانيين فحسب رجل دين صابئي أهوازي التقيمة على هامش ممارسة التعميد أو الصباغة ومؤتمر حول المندائية. إن الاحتفاظ بالقبر لا يستمر أكثر من خمسة وأربعين يوماً فهو فيما يتخلّف في التراب لا يعني شيئاً بعد صعد الروح خلال ثلاثة أيام. وعدم اكتراثهم في القبور ليس خشية من الشرك كما يذهب إلى ذلك المسلمون الوهابيون بقدر ما فرضته عليهم فلسفتهم والبيئة المائية التي لا تجد الحي فيها محطّ قدم فكيف بالأموات! أما الآن فللمندائيين مقابرهم بالعراق والأهواز والدول التي هاجروا إليها مؤخراً لكن بناء القبر ليس من تعاليم الدين»(٢).

---

(١) دراور، الصابئة المندائيون: ٢٥٨- ٢٥٩.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب في العراق، ص٢١.

ولكن على الرغم من ذلك فهم يؤدون مراسم وطقوس دقيقة جداً أثناء الدفن، فما هي هذه الطقوس؟

حين يتوف أي شخص، يقوم أربعة من الحلالية (رجال دين طاهرين طقسياً) بعملية الدفن، فيقومون بإجراء الوضوء (الرشامة)، ويرتدون ملابسهم الدينية ويدسّ رئيسهم (ريش) بحزام الميت سكيناً من الحديد، لا قبضة لها (سكين دوله)، تتدلى من سلسلة متصلة في حلقة، يضعها الرئيس في خنصر يده اليمنى، وتعمل حصيرة البردي، تكفي للفّ الجنازة، ثم يعمل سطح من القصب والجريد، مثبّت بحبال خوص، يشبه الكرسي، ويقف الجميع متوجهين نحو نجم القطب، ويتلو الكاهن:

«(بشمهيون دهيى ربى لوفه ورواهه ادهي وشانق هطايى نهويله الهازا نشمثه دبلان بربلا نيثا اوهازا مسخثه وشانق هطايى نهويله) وتعني (باسم الحياة العظمى، لونه - مشاركة أو العشاء الرباني - ورواهه - حرفياً سبب التنفس ثانية، أي الانبعاث - وانبعاث الحياة، وغفران الخطايا تكون لروح فلان بن فلانة صاحب هذه المسنحثه[١] لتغفر خطاياه)»[٢].

---

(١) المسنحثة: غفران، قداس على روح الميت.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون: ص٢٦٣.

ثم يتقدّم رجال الدين الأربعة:

«ويرفعون الجسد الساجي، ويضعونه على حصيرة البردي، ويلقونها عليه، ويشدونها، ثم يرفعون الجنازة، ويضعونها على كرسي القصب.. ويرفعونه على رؤوسهم ويخرجون به من محل وفاته، ويتخطون (المندلثا)[(١)] القصبية التي ترمز إلى حدّ الإنسان من هذه الدنيا»[(٢)]. وحالما يفعلون ذلك يتوقفون، ويعود الرئيس فينحني على (المندلثا)، ويملط أعمدتها بالطين، ثم يختمها بـ (السكين دوله)، وهو يتلو الأدعية، وتتقدم الجنازة متجهة نحو المقبرة، يتبعها الرجال فقط، وتكون المقبرة عادة خارج المدينة أو القرية، وعند الوصول إلى المقبرة يأخذ (الحلالي) معولاً، يحفر ثلاث مرات في التربة، وهو يتلو الأدعية، ثم يتم الآخرون حفر القبر، ويفضل أن يكون عميقاً قدر الإمكان، وتحفر به حفرة إضافية خلف الرأس تترك خالية تدعى (لحدا)، بعد ذلك توضع الجثة في القبر، متجهة دائماً نحو الشمال، ويوضع فوق (الرستة) الميت بعض الأحجار، ويوضع حجر صغير على فمه، بعد ذلك يقوم (الحلالي)، وهو متجه نحو الشمال، بإهالة التراب على الجثة ثلاث مرات بوساطة معول، وهو يردد (باسم الحياة المعظمى لتكن

---

(١) المندلثا: عبارة عن حفرة بيضاوية الشكل، حوالي المتر، تحفر بالمعول، ويكون عمقها أكثر بقليل من طول اليد، توضع فيها كمية غير مربوطة من القصب بشكل عامودي، ثم توضع ثلاث قصبات على الأرض أمام الحزمة القائمة من القصب، وثلاث خلفها.

(٢) مجلة التراث الشعبي: العدد الثاني عشر، السنة الخامسة، ١٩٧٤، ص١٨١.

(الوفة) و (رواهة) الحياة غفران الخطايا من نصيب فلان بن فلان صاحب هذه المسنحثه ولتغفر لي خطاياي) ويقوم المجتمعون بملء الحفرة بالتراب، إلى أن يصبح القبر على شكل رابية صغيرة ثم ينحني الحلالي، ويبل القبر من جوانبه الأربعة، ويختم الطين بالسكين دولة، مبتدئاً من الرأس، ويعود بعد ثلاثة أيام ليزيل الأختام، وبعد الانتهاء من مراسم الدفن يبدأ اللوفاني (وجبة طعام على روح الميت) حيث تقرأ الدعوات، ليغفر الله ذنوب الميت، ويدخله عالم النور. من ذلك الوعاء التالي: «(باسم الحياة، اسم منداهي منطوق عليك أيها الطعام السليم (طابثة) أدنُ من صلاح الحياة ومن الأشياء الخيرة، لقد قام منداهيى الذي نطق باسم الحياة «طاب طابا الطابى» - دعاء يعني أن الخير والصلاح للصالحين وستثبت أسماء أولئك الذين سيذكرون أسماء الموتى نبحث، ونجد، ونتكلّم، ونستمع، وقد بحثنا فوجدنا وتكلّمنا واستمعنا بحضورك يا سيدي منداهي، رب الشفاء أغفر له (الميت) خطاياه، وزلاته وعثراته ونقائصه، وأغلاطه واغفر لأولئك الذين هيّأوا هذا الخبز وهذه (المسخثة) وهذا الطعام السليم، اغفر لهم خطاياهم، وزلاتهم، وعراتهم، وأغلاطهم يا سيدي منداهي، ويا أيتها الحياة العظمى الأولى، اغفروا أيضاً للذين أعطوا الصدقات، وعملوا الصالحات، لهم، ولأزواجهم ولأولادهم، ولكهنتهم، واغفروا خطايا فلان بن فلانة، صاحب هذه المسخثة) واغفر خطاياي وخطايا أبي وأمي ومعلمي وزوجاتي وأولادي وكهنتي واغفر لأولئك الذين هيئوا هذه

الخبز وهذا الطعام مانح الحياة (طبوثة)[1]، وأنتم يا أجدادي ومعلّميّ ومؤدّبيّ وأساتذتي، لتنقلوا من اليسار إلى اليمين ستقولون: (قامت الحياة في موطنها)، حمداً للحياة والنصر لها على جميع مخلوقاتها»[2]. وتظل هذه القراءة في الكتب المقدسة وبخاصة (الكنزه) مستمرة ليلاً ونهاراً من قبل كاهن حتى صباح اليوم الثالث بعد الوفاة. وفي اليوم الخامس والأربعين يتناول الصابئون (اللوفاني)[3] ويقرأون الأدعية لطلب المغفرة لنفس المتوفى.

المقابر:

لديهم مقابر خاصة في مدينة الاهواز (سخيرية - بهشت آباد - طريق برومى.

---

(١) طبوثة: نعمة الطعام.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص٢١٨.

(٣) وجبة طعام على روح الميت.

الآخرة عند الصابئة

ذكرنا في الفصل السابق الذي تطرّأنا فيه للتحدث عن الموت، وتناولنا مصير كل من الجسد والنفس اللذان يصلان في نهاية المطاف إلى عالم الآخرة أو عالم النور حسب قول المندائيين فقبل الخوض في كيفية انتقال الروح إلى عالم النور وطبيعة هيئتها هناك،

ما هو عالم النور بالنسبة للصابئة؟ ومن هم الذين يسكنون عالم النور؟ وما رأي الروحانيين الصابئيين بعالم النور؟

يذكر الصابئة في كتبهم قصة معراج دنانوخت الذي عرج إلى السماء ورأى الأعاجيب. فما حدث أنه بعد قراءته للكتاب الثامن انتصب أمامه ملاك نوراني هو هيبل زيوا دعاه إلى العروج معه إلى السماء، وتمّ العروج أثناء النوم ومن كوكب إلى آخر كان آخرها كوكب الشمس، وهو مكان النور ثم عرج إلى الجنة، مكان يسكنه النورانيون الأربعة الكبار وهم: ارهام هيبي، ابن هيي، سردم هيي وزيوا هيي (تعني كلمة هيي المندائية المصاحبة للأسماء الحي). وهناك حاول دونانوخت التوقف عن العروج، لكنّ هيبل زيوا أمره في مواصلة الرحلة حتى محل (ملكا ادنهورا) ومن عالم نوري إلى آخر حتى وصلا .

محل مملوء بالأثري حيث سماء السماوات، بحر الضياء ومياه النور وكانت غاية العروج أن يعود دونانوخت إلى الأرض فيقصّ ما شاهد من عجائب العوالم السماوية غير أنه حاول المكوث في عالم الضياء فقال له الملاك: «ألم أقل لك بأنك يجب أن تعود لتقصّ على الناس ما رأيت ولهذا سيتعلمون وسيؤمنون ولا ينكرون»[١].

أمّا ماذا رأى دونانوخت؟ وماذا قصّ على الناس؟

«وردت قصة عروج الحكيم دونانوخت[٢] كاملة في الكنزاربا باختلاف الترجمة إلى حدٍّ ما عمّا ترجمه المندائيان غضبان رومي ونعيم بدوي مع احتفاظ القصة بجوهرها في الترجمتين فقد ورد على لسان دونانوخت»[٣]: «رأيت الحي الذي كان منذ الأزل ورأيت الكشطا التي منذ البداية، رأيت الموت ورأيت الحياة ورأيت النور، رأيت الخطأ ورأيت الصواب، رأيت البناء ورأيت الخراب، رأيت المرض ورأيت الشفاء، رأيت هذا الرجل الفاضل الشيخ الواقف منذ القدم بين الأرض والسماء»[٤].

---

(١) كيف زار دنانوخت السماء السابعة، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي عن الكنزاربا، مجلة التراث الشعبي، : ٥٢/ ١٩٧٣.

(٢) ورد تعريف دونانوخت في الكنزاربا بالكاتب الحكيم، حبر الآلهة، الفخور المتكبر أو فقيه الدين الحكيم ودواة كتاب الآلهة والفخور المترفّع.

(٣) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٦.

(٤) الكنزاربا اليمين، ص١٦٦- ١٦٧.

وبعد أن تعرّفنا إلى عالم النور، نعود إلى كيفية عروج الروح إلى هذا العالم، حين تقترب منية الإنسان يأتي ملك الموت (صاوريل أي عزرائيل)، إلاّ أن (قماميز زيوا) يهبط ليساعد الروح وليدافع عنها ضد الأخطار، فيرد على لسان المحتضر كما جاء في النصوص المندائية ما يلي:

«أذهب إلى شبيهي وشبيهي يأتي إليّ يتذكرني ويحضنني كما لو أنني خارج من السجن»[١] وفي ذلك إشارة إلى اعتقاد المندائيين بأن لكل شيء في الوجود شبيهاً وأن هناك عالماً مماثلاً للأرض في السماء.

وفي اليوم الثالث «تغادر الروح الجسد نهائياً، وتكون حالتها كمن يغط في نوم عميق، ولا تعود إلى الوعي إلاّ تدرجياً، فهي ثقيلة لا ترى، وفجأة تتحرر ذاتها من هذا الثقل، وتبصر (صاوريل) و(قماميرزيوا) بانتظارها، فالأول روح ظلامية والثاني روح نورانية وهما مثل منكر ونكير ملكا الموت عند المسلمين، وكبريل وعزرائيل عند اليهود. وعندما مفارقتها الجسد تكون على شكل شخص يرتدي ملابس، إلاّ أنها من هواء، وليست حقيقية، فإذا كان المتوفى من فاعلي الشرّ تكون ملابسه سوداء اللون فإن سأل عن السبب أجابه الملكان: (أليست هنالك مقدسة منحت للإنسان منذ أيام آدم؟ ألم ترَ إلى الشمس والقمر والنجو؟ ووهبت عقلاً فهلا سألت: أمن صنع الله أم هو من صنع الإنسان؟) وتقول الروح: (يا ليتني أعدت إلى جسدي لأكون

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص١١٠.

صالحاً حيزاً، لا أفعل إلا حسنة). ويجيبه المكان: لا مفرّ لك فمن من الموتى عاد؟ بعد ذلك تذهب الروح إلى «أبثاميل» وتقاد إلى مقرّها في المطهر»[1]. وتستقبل الروح على بوابة المطهر بوجبة خفيفة تتناسب والطعام الطقسي الذي أكل باسمها على الأرض، فتعرف الروح أن ذويها قد ذكروها، وتستغرق الرحلة خلال المطهر خمسة وأربعين يوماً.

وإذا كانت الروح طاهرة فأربعين يوماً، وتصل الروح بعد ذلك إلى موازين (اباثر)، حيث توضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة الميزان الأخرى «فإذا رجحت كفة السيئات أو تساوت الكفتان بقيت الروح في المطهر؛ لنيل طهارة وعقوبة، تتناسبان وخطيئتها فإذا كانت روحاً مشاغبة، فستذهب إلى «مطارثة يزغ» مارس وإن كانت مختالة فخورة، فستذهب إلى مطر «بيل» - جوبيتر ويحتفظ بمطهرات خاصة للكهان، ويكون التطهير حسب الخطيئة، فتعذيب الشرير يتضمّن العذاب بالنار والثلج، ويمشّط بمشط من حديد، وتلدغه الحياة، وتنهشه السباع والذئاب والكلاب. فإذا كان على غاية الشرّ يهبط إلى جوف «أور»[2] وهي نار مرة، وجليد مرة أخرى حيث ينال التطهير النهائي عندما تقوم الساعة، وحينئذ تحمل الأرواح التي لا تزال تعاني التطهير إلى الأعلى بوساطة قوى النور والحياة أو بوساطة «هبشبة» نفسه،

(١) نفس المصدر، ص٢٨٠.
(٢) أور: عالم الظلام.

رحمة بهم، ثم يغمرون بمياه «فرات زيوه» السماوية، اليردنة السماوية في معمودية شفاء كبرى نهائية. وإذا كانت الروح، روح شخص تقي، فلن يأخذ تطهيرها وقتاً طويلاً، إذ بعد توقف طويل، تعود إلى الموازين، وتوزن مقابل روح «سنتيك» أتقى أرواح الكائنات البشرية. فإذا خفت كفة الروح عن كفة شتيك أرسلت لإعادة تطهيرها، وإن لم يكن كذلك دخلت سفينة نور تبحر في نهر يحيط بعوالم الأنوار، حيث يقيم ذووه الذين توفوا منذ أقدم الأزمان، وقد يكون مقامه النهائي في عالم «بوشامن زيوا» أو «هيبل زيوا»(١) أو «سيمات هيى» أو عوالم أرواح نورانية عظمى أخرى»(٢).

---

(١) هيبل زيوا: الروح المعلم للأرض.

(٢) الصابئة المندائيون، ص٢٨٢.

الوصية والميراث عند الصابئة

حينما كنت في الأهواز سألت صابئياً عن الإرث، فأجابني بأنه يشترط في الوارث أن يكون صابئياً، فإذا خرج عن عقيدته فقد الحق بالميراث. وغالباً ما يكون الابن الأكبر هو المسؤول عن العائلة بعد وفاة الوالد، وهو الذين يقوم بتقسيم الميراث، لكن المتبع عند الصابئة في تقسيم الإرث بشكل عام هو نظام التشريع الإسلامي نفسه في هذا المجال.

أما الوصية، فغير محرّمة في العقيدة الصابئية، بشرط أن يكون الموصي قد أنفق من ماله على الفقراء والمحتاجين بدون منٍّ أو أذى، أو نشر ذلك بين الناس إظهاراً لكرمه وافتخاراً بنفسه ومن يفعل ذلك لا يحق له أن يوصي، كما يفقد جزاء عمله وإنفاقه.

الذبح

قد يستغرب القارئ أنه على الرغم من وداعة الصابئة ورفضهم للعنف، هم يعتقدون بذبح الحيوانات ويمارسون ذلك، فللذبح أهمية خاصة عند الصابئة المندائية وهم يخصصون لذلك مراسم خاصة.

والدليل على أن المندائيين يمارسون الذبائح، ما جاء في مقالة الكشطيين: «إنه قبل كل شيء الحي العظيم فخلق من نفسه ابناً واسماه نجم الضياء ويسمونه الحي الثاني (لعله مندادهيي) ويقولون بالقربان والهدايا والأشياء الحسنة»[(١)].

ولكن على الرغم من ذلك نلمح في كتاب مُقدّس من كتبهم رفضاً لتقديم الذبائح والقرابين كأضحية رداً على من يتهمهم بعبادة الأوثان والأصنام. وقد جاء في ذلك: «من يقدّم الضحايا والقرابين تعقد خطاه في جبل الظلام (جهنّم) فلا يرى نور الله، أما من آمن واتقى فله من النور مرتقى حتى يبلغ بلد النور»[(٢)].

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٤٠٣.

(٢) الكنزاربا اليمين، ص١١٧.

مّما يوقعنا في حيرة من أمرنا، ويجعلنا نتساءل: هل هم يرفضون الذبح كمبدأ للقساوة والعنف وفي المقابل يؤمنون به كطقس من طقوس دينهم انطلاقاً من قيام النبي إبراهيم بذبح ابنه فاستعاض الله عنه بكبش كأضحية؟ أم أنهم يقبلون هذا الطقس ولكن بشروط؟

يمكننا أن نجيب أن للذبح أهمية خاصة عند الصابئة المندائية وله شروط، حيث أن يكون الشخص الذابح سالماً وليس مريضاً، وملابسه نظيفة وحين الذبح يجب أن يلبس الملابس الخاصة (رسته)، والسكين يجب أن تكون من حديد وتوضع في النار حتى تُحمَّى بقدر أن تحمّر وأيضاً الذبيحة يجب أن تكون سالمة وقبل الذبح توضع في الماء. وأثناء الذبح يَقرأ رجل الدين بعض البوثات (الآيات) من الكتب المقدسة ويذكر اسم الرب والملك (ملكا مندادهيي) ويذبحون الخروف لأن في كتاب الكنزاربا (الكتاب المقدّس) مذكور: «لا تذبحوا الحيوانات التي تحبل».

وكذلك بعد الذبح «لرقة منهم يعتذرون ويستغفرون بعد ذباحة الطير والحيوان»[1]. «ولأنهم اختصوا بالقول بخطيئة ذبح الحيوان، أوجدوا صلاة عرفت بصلاة أو دعاء الاستغفار أو مغفرة الذبح، وهو طقس يمارسه الذابح دون أن يعمدوا إلى تحريم اللحوم مع وجود نزوع إلى ذلك وعلى وجه الخصوص لدى المندينين والكهنة»[2].

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص١٩.

(٢) أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص٢٦١، الصابئة المندائيون، ص١٠١.

جاء في دعاء الاستغفار:

«ليباركني اسم الله المتعال واسم الملك ملكا مندادهيي المقرب من عرشه إنني قد أدّيت عمل الذبح بسكين حديدية بأمر من الله تعالى وإنه غافر لذنوبي اللهم أغفر لي ذنوبي وارحمني ولا تحرمني من شفاعتك ليبارك اسم المتعال وملكا مندادهيي فلان بن فلانة دائماً»(١).

---

(١) برنجي، الصابئة المندائيون، ص٢٣٧.

الصدقة

إن الدين الصابئي لم يغفل عن أي من تفاصيل الحياة المادية والروحية. وكان هذا الدين ميّال إلى النزعة الإنسانية ابتداءً برفض العنف والحرب وتشجيع السلام وصولاً إلى الشعور مع المحتاجين والفقراء من قومهم لذلك كانت من بين الطقوس المحبّبة لديهم الصدقة التي يسمّونها (زدقة بريخة). التي أصبحت فرضاً دينياً يقوم به الصابئة المندائيون اتباعاً لأمر النبي يحيى الذي قال:

«وآمركم بالصدقة (زدقه) وإن مثل ذلك كمثل دجل أسره العدو، فشدّوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال، هل لكم أن افتدي نفسي منكم نجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه»(١).

ويقول الصابئة محذّدين لتقديم الصدقة شروطاً ومعايير معنية للناس الذين يجب أن يتم التصدّق عليهم:

«أما الصدقة من المال، فتقدّم كهبة لأبناء الملّة المحتاجين ومن

(١) مجلة التراث الشعبي: العددان ٦-٧ للسنة الخامسة ١٩٧٤، ص٦٤.

شروط ثوابها أن تقدّم سراً والإعلان عنها خطيئة تعادل خطيئة الكفر»[1].

وتتعدّد الصدقة بتعدّد المناسبات، وأهم هذه الصدقات هي:

١ـ مسخثه المندي: ويتطلب القيام بها ثلاث كهان، وثلاثة طواقم من «الطرابين» وفيها يدخل «الكنزفره» إلى المندى مع المساعد الذي يكرّس أربعاً وعشرين فطيرة، ويجعلها في صفين، وحين يلتحق به الكهان الثلاثة يكرس كل منهم ٢٤ فطيرة ويضعونها في صفين صف باثنتي عشرة، وصفّ باثنتين، ثم يتبع ذلك «زردقة بريخه» مع الخمرة والآس.

٢ـ مسخثه «الكنزفره» الجديد، ويقوم فيها «الكنزفره» المرشّح بجميع المراسم، وتكريس الفطائر الست والستين ويتبع ذلك «راوتة بريخه».

٣ـ مسخثه شتيل، ويقوم بإجرائها ثلاثة كهان، أحدهم «كنزفره» وتقام للميت دون إكليل.

٤ـ «مسخثه زهرون رازه كسيه، وتجري لمن يموت في أحد الأيام المبطلة»[2].

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٧.

(٢) هناك أيام غير مباركة (مبطلة) عند الصابئة، كاليوم الثاني والعشرين من أول شهر بالسنة، واليوم الخامس والعشرين من الشهر التالي، والأيام الأربعة الأولى من شهر «نورا» (آيار).

الليدي دراور

لن يستغرب القارئ إن خصّصنا فصلاً كاملاً يتحدّث عن سيرة الليدي دراور، لأن اسمها وكتبها مرّت كثيراً أمام ناظريه في هوامش الصفحات السابقة إضافة إلى الاستناد إلى كثير من أقوالها حول الصابئة.

لذلك فإن شخصية الليدي دراور ودورها في جمع المعلومات عن الصابئة يستحقُّ التحدّث عنها مطولاً.

وذلك لأن الفضل في أكثر الدراسات التي ظهرت في بريطانيا بداية القرن العشرين حول الصابئة المندائيين للمستشرقة الإنجليزية الليدي دراور التي عايشتهم مدّة تزيد عن الأربعين عاماً في أماكن تواجدهم في بغداد وجنوب وادي الرافدين.

فلا عجب أن تصمد كلّ هذه الأعوام بين هؤلاء القوم ليزيحوا الستار عن مكنونات عقيدتهم، إذ لم يكن بالأمر السهل أن تقنع الصابئة بتحرير أفكارهم وقناعاتهم من السرية.

من هي هذه السيّدة؟ وما سرّ هذا الاهتمام البارز بالصابئة؟

انطبع في هوية هذه السيّدة اسماً رافقها قبل زواجها فقد وُلدت

«أثل مي ستيفنسن» سنة ١٨٧٩ في لندن وقضت طفولتها المبكرة وترعرعت بكنف والدها الذي كان يعمل قسيساً في كنيسة بيرلي حيث نشأت في نيو فوريست.

شبّت أثل متّبعة حدسها الذي كان يقودها دون أن تشعر إلى طموح دفين لم تكن تدري أنه سيبني لها مستقبلاً واعداً. فأخذت تتردّد على جماعات الفجر في منطقة فوريست فتعلّمت لغتهم فكان ذلك خطوة أولى لأول إنتاج مهم قامت به. فعندما انتقلت عائلتها إلى ساوث هامبتون بعد أن عُيِّن والدها رئيساً لأبرشية المدينة جمعت ما تعلّمته من لغة الفجر فترجمت تأثرها هذه بقاموس وضعته عن هذه اللغة بعد أن استعانت بكتاب خاص عن قواعد اللغة السنسكريتية. ولكن لم تسنح الظروف لأن ينشر هذا القاموس ولكنه كان بمثابة الدليل على اهتماماتها اللغوية التي تخصصت فيها فيما بعد.

سرعان ما لمعت ملامح الذكاء والتميز في عيني (أثل) فقد كانت متفوّقة في دروسها ولكن قد شابت مسيرة تفوّقها ظروف صعبة. إذ لم تتوفر لذويها الأموال الكافية لإرسالها للجامعة فسافرت إلى ألمانيا لدراسة الموسيقى والعزف على آلة الكمان فهي لم تقف مكانها لأن طبعها كان يقودها دائماً نحو الأمام مهام كانت الظروف ومهما كان نوع المعرفة التي ستتصدى لها. استمرّت في دراسة الموسيقى إلى أن تملّكها الملل سريعاً فعادت إلى بريطانيا بعدما شعرت أن لديها رغبة في الكتابة. فالجميل في شخصيتها أنها لم تكن تقمع نفسها وتسير وراء رغباتها

لتكون صادقة مع نفسها وتعرف أهدافها، لذلك التحقت بمدرسة خاصة بالصحافة في لندن أتاحت لها تدريباً ممتازاً في مجال مراجعة ونقد الكتب المعدّة للنشر وكذلك إعداد التقارير وإجراء المقابلات الصحفية. ثم سار بها قطار المجد لتتوفر لها فيما بعد فرصة طيبة للعمل سكرتير لـ (دوغلاس سليدن) صاحب موسوعة (Who Is Who) المعروفة التي كان يتهافت عليها المشاهير لنشر أسمائهم فيها مّما أتاح لها بفضل ذكائها الاجتماعي أن تتعرف إلى كثير من الأدباء والمؤلفين والنقاد والمترجمين والمستشرقين والشعراء وأقامت نوعاً من الصداقات مع بعضهم.

رافقت (أثل) (سليدن) وزوجته وابنه إلى جزيرة صقلية التي كان سليدن يعدّ كتاباً سياحياً عن منتجعها الشتوي في ساراكوزا، ومّما فتح لها آفاقاً واسعة وجديدة هي أنها تولّت مهمة جمع المعلومات المتعلّقة بتاريخ وتراث شعب صقلية. وهكذا اكتسبت أهمية خاصة بالنسبة لمديرها (سليدن) فأخذ يناديها باسم (ستيفانا) تحبّباً وبقي هذا الاسم مرافقاً لها وأصبح الجميع يناديها به، حتى عائلتها.

رافقت (ستيفانا) (سليدن) في رحلته وعائلته إلى تونس أيضاً لوضع كتاب سياحي عن معالمها وقد ساهمت هي بكتابة بعض فصوله مما زاد انجذابها لتونس وولهها بسحر هذه البلاد وشيوخها وأمرائها وآثارها الفريدة ومدنها القديمة كقرطاج فزاد تعلّقها بهذه البلاد مما دفعها لتعلّم اللغة العربية والكتابة عنها.

وبعد انتهاء مهمتها مع (سليدن) عادت إلى لندن وهناك تابعت رحلتها مع الكتابة فعملت في دار للنشر والتأليف ولكن حنينها لتونس جعلها تقترض بعض المال فعادت إليها بصحبة صديقة لها وأقامتا في مدينة القيروان التي كانت مهداً لروايتها الأولى (النقاب) وكانت رواية رومانسية قامت بنشرها مؤسسة (ويل أند بون) ولا عجب أن تلاقي هذه الرواية رواجاً كبيراً مما أمّن لها دخلاً جيداً أتاح لها التجوال في منطقة الشرق الأوسط خلال السنين التالية، فقامت بجولة جعلتها تتعرّف إلى حضارات جديدة وتتعايش مع شعوب مختلفة مما زاد تعطّشها للاستطلاع والاستكشاف أكثر وأكثر، فسافرت إلى إسطنبول أوّلاً ثم حيفا والقدس حيث التقت في جبل الكرمل بـ (عبد البهاء) الرئيس الروحي والديني للبهائيين، وأقامت صداقة حميمة مع بناته والذي سعى إلى ضمّ (ستيفانا) إلى عقيدته ولكنه لم يفلح فاستعان بإلقاء المواعظ الدينية الطويلة عليها وكذلك دون جدوى. ولكن ذلك لم يدعه إلى النفور من تواجدها لأنه توسّم فيها ذكاءاً متوقّداً والذي أكّد ذلك إنتاجها الثاني في المجال الروائي، ففي هذه الأثناء ألّفت روايتها الثانية (جبل الله) التي ما زال البهائيون يعتزون بها أيّما اعتزاز.

وفي العام ١٩١٠ حفلت أيام (ستيفانا) بالمفاجآت ولاقت انقلاباً نوعياً في حياتها حيث أبحرت من القاهرة جنوباً على متن زورق حكومي في النيل باتجاه السودان مخترقاً أراضي الدنكا والشيلوك التي تعجّ بالأفيال والتماسيح وألّفت أثناء ذلك رواية ثالثة. وعند وصولها

الخرطوم يستمر شريط التغيير في حياة (ستيفانا) حيث التقت بمحامٍ إنجليزي شاب يدعى (أدوين دراور) يعمل هناك فتوثّقت العلاقة بينهما إلى أن أدّت إلى زواجهما في لندن في إجازة الصيف التالي وأثمر هذا الزواج أن رزقا ببنت أسمياها (مارجريت) التي أصبحت عالمة مرموقة بتاريخ وآثار الحضارة المصرية، وولد هو (بيل).

وشاءت الظروف أن اندلعت الحرب العالمية الأولى فالتحق (أدوين) بالجيش وعُيِّنَ ضابطاً بشعبة تابعة للاستخبارات العسكرية البريطانية في نيويورك. أما زوجته (ستيفانا) فانتقلت مع طفليها (مارجريت وبيل) إلى وينشستر وهناك كتبت روايات عديدة كانت إحداها عن الغجر.

أثّرت ظروف (أدوين دراور) وتغيرات مجالاته جراء الحرب العظمى التي وضعت أوزارها في ربيع سنة ١٩١٩ على حياة (دراور) بشكل كبير لتقترب أكثر فأكثر إلى ما لمسناه من آثارها فيما يتعلّق بالصابئة. فالذي حدث أن عُيِّنَ (أدوين أدوارد) قاضياً في البصرة لإتقانه اللغة العربية ولضلوعه بالقوانين التركية وذلك بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية ووضع العراق تحت الانتداب البريطاني.

وبعد سنتين تم نقله إلى بغداد بصفته مستشار قانوني للدولة العراقية قبيل تأسيسها فالتحقت به زوجته (ستيفانا) أواخر سنة ١٩٢٠ وكانت سعيدة بقدومها إلى بلد عربي وكأن شيئاً خفياً كان يشدّها تحو

لترفع عن قوميتها الطوق الذي منعها من الانفتاح على حضارات غريبة عنها لا سيما إذا كانت عربية، وذلك رغم قلقها على طفليها اللذين تركتهما في إنجلترا برعاية جدتهم وجدهم لأبيهم.

لم تكن معوقات السفر وصعوبة الانتقال نحو البلدان العربية شغف الليدي دراور إلى التعرف على حضارات العرب والتجوال بين دولهم وشعوبهم. فقد كان السفر من بريطانيا إلى العراق عن طريق البحر يستغرق وقتاً طويلاً لكونه يمرّ حول الجزيرة العربية ومن ثم إلى الخلي فالبصرة، إلى أن قامت شركة (نيرن أخوان) بتسيير رحلات برية من بغداد إلى دمشق عبر الصحراء بواسطة سيارات مكشوفة ثم بالباصات، وكانت الرحلة تستغرق يومين. ومن دمشق كان باستطاعة المسافر إلى انجلترا أن يكمل رحلته إلى لبنان ومن ثم إلى حيفا حيث يستقل أحد المراكب المتوجهة إلى جنوا أو مارسيليا ومن هناك إلى كاليه في فرنس بالقطارات ثم بالعبارات إلى دوفر ومنها إلى لندن.

ولكن الذي يدهش له القارئ، أنه على الرغم من صعوبة خارطة الطريق هذه والوقت الذي تتطلبه، قامت السيدة دراور بهذه الرحلة أربعاً وثلاثين مرة على الأقل قبل تسيير خط سكك حديد موصل - حلب - اسطنبول الذي كان استهلالاً لتسيير قطار الشرق السريع المعروف.

وصلت (دراور) إلى العراق، فبدأ الدرب الحقيقي الذي انتهى بمعرفة فرقة الصابئة. فقد وجدت نفسها في مكان مألوف سهل عليها

الاختلاط بالعراقيين فأخذت تتوغل الشوارع والأزقة وتجول في أسواق بغداد وتتسلّل إلى نفوس الناس دون استئذان بفضل ذكائها وشخصيتها الاجتماعية فتعرفت على طبيعة الناس هناك على خلاف ما كانت تقوم به باقي زوجات الموظفين والضباط البريطانيين اللواتي كنّ يمضين وقتهنّ بلعب (البريدج) والتنس والسباحة في النادي البريطاني المعروف حالياً بنادي (العلوية).

سافرت (دراور) إلى الموصل وهناك التقت بالشيخ عُدي واليزيديين وانتهى بها المطاف إلى مضارب عشائر شمّر في بادية الموصل واستقبلها الشيخ عجيل الياور ورحّب بها. ولم تكتفِ بذلك فكما كانت في كل مكان تذهب إليه تترك فيه أثراً وتثمر فيها إنتاجاً فعالاً، كذلك حدث في العراق فقد شجّعها زوجها على جمع الموروث الفولكلوري العراقي وكانت مهتمة إلى حدٍّ بعيد بالقصص والحكايات الشعبية، تستمع لرواتها وتدوّن ما يحكوه لها. ومن بين تلك الروايات (ليلي) التي كانت تقابلها (دراور) باستمرار وتزورها وتجلس معها الساعات الطوال في حديقة دارها وهي تروي لها ما تحفظه. وقد جمعت هذه الحكايات في كتاب أصدرته سنة ١٩٣١ وكان بعنوان (حكايات شعبية من العراق). وبهذا الكتاب تكون هذه السيدة قد خلّدت التراث العراقي فيكون بمثابة سجلّ ينشر حكايات تجسّد العادات والتقاليد العراقية والعقلية العراقية في التعاطي مع الأمور إضافة إلى الأنماط العديدة من شخصيات وأطباع الشعب العراقي مّما يعرّف الناس أكثر إلى الشعب العراقي.

وأثناء إقامتها في البصرة وخلال مسيرها الطويل بنى أهل العراق أثار انتباهها وفضولها وزاد من تعطشها للمعرفة مجموعة غريبة من الناس تعيش في مناطق الأهوار ودلتا نهر دجلة وكذلك في المحمرة والأهواز مما جعلها تصمّم على الدخول إلى عالمهم. ولكن كلّما كانت تكتشف شيئاً عنهم كان ظمؤها لا يروى حتى قضت أربعين سنة من البحث المتواصل فكانت بيوتهم من البردى والقصب ويمتهنون صناعة القوارب والحدادة وصياغة الفضة والذهب ويتحدّثون بالعربية، ولكن لهم لغتهم الخاصة التي يدونون بها كتبهم المقدّسة التي استنسخوها جيلاً بعد جيل، ويطلقون على أنفسهم تسمية المندائيين أو مندائيي، ولكن جيرانهم العرب يسمونهم الصبّة ومفردها صبّي وتتمحور طقوسهم حول كوخ من القصب يسمونه (مندي أو تشمل هذه الطقوس الارتماس بالماء الجاري ويقوم بها رجال دينهم الملتحون. كما تشتمل هذه الطقوس على وجبة طعام قدسية لا تختلف كثيراً عن وجبة التناول المقدّسة لدى المسيحيين مما جعل الغربيين يسمونهم مسيحيو يوحنا المعمدان.

لقد أثارت هذه الطائفة فضول (دراور) الشديد فقررت التقرّب من المندائيين فرحبوا بها كثيراً وأبدوا استعدادهم لمعونتها في التعرّف على لغتهم ودينهم وعاداتهم وطقوسهم، فقضت الساعات الطوال وهي تراقبهم أثناء تأديتهم مراسيم ديانتهم وطقوسهم وتدونها بدقة وبكل تفاصيلها في سجل خاص ولتلتقط لهم الصور الفوتوغرافية بآلة التصوير التي لا تفارقها.

«شعب غريب الأطوار» هكذا وصفت (دراور) الصابئة وأطلقت هذا الوصف على فصل كتابها الثاني أثناء وجودها في العراق فنشرته عام ١٩٢٣ وكان الكتاب بعنوان (على ضفاف دجلة والفرات) إذ لم يكن مخططاً فقط للمندائيين بل لكل الفرق في العراق. وفي هذا الفصل الكامل الخاص بالمندائيين دوّنت بشكل مفصّل طقوس التعميد المندائية كما أشارت إلى بعض كتبهم المقدّسة.

وقد طلبت (دراور) من بعض رجال الدين المندائيين نسخ بعض الكتب المندائية والدواوين المقدّسة فتمّ لها ما أرادت. وكانت (دراور) تسافر من بغداد - محل إقامتها - إلى العمارة مرّة واحدة على الأقل في كل سنة لتلتقي بالمندائيين هناك ولكي تستكمل بحوثها عنهم وخصوصاً في أيام عيد الخليقة الذي يطلق عليه العامّة (البنجة) أي الخمسة أيام المقدّسة التي تتوافق مع أعياد الربيع.

ولكي يقوى التواصل بين (دراور) والمندائيين ولتمتين علاقتها بهم ليسهل عليها أمر تحصيل المعلومات وجدت أن تعلّم لغتهم هو الوسيلة الأقوى لذلك فاستعانت لهذا الغرض بأحد معارفها في فيينا ليحصل لها على أعمال المستشرقين الذين سبقوها بدراسة النصوص المندائية مثل البروفسور ليدز بارسكي ونولدُله والسيوفي وآخرين كخطوة مهمة أولى، وبدأت بتعليم نفسها ذاتياً اللغة المندائية ولصعوبة هذه اللغة وعدم توفر قاموس خاص بها يساعدها في هذه المهمة لذلك

قامت بتطبيق ما يقال بأنها خُلقت من الضعف قوة فشجعها الدكتور موسيس كاستور على البدء في عمل قاموس مندائي كما بيّن لها طريقة عمل القاموس وذلك بتدوين كل كلمة على بطاقة منفصلة وفق حروفها الأبجدية وفعلاً أوصت (دراور) على صندوق معدني ذو أدراج خشبية تحتفظ فيها بالبطاقات مفهرسة.

وفي عام ١٩٣٧ قامت بنشر كتابها الشامل عن المندائيين وكان بعنوان (مندائيو العراق وإيران) والذي قام بترجمته إلى العربية فيما بعد كل من المندائين نعيم بدوي وغضبان رومي باسم (الصابئة المندائيون).

حمل العام ١٩٤٢ معه ظروف سياسية صعبة أثّرت على مواصلة (دراور) عملها في مجال الصابئة فقد حدثت أزمة سياسية في العراق الذي كان يخضع لنظام الانتداب، تمثّلت هذه الأزمة بحركة رشيد عالي الكيلاني ضد حكومة نوري السعيد الموالية لبريطانيا، فاحتمى الموظفون البريطانيون داخل مبنى السفارة البريطانية وكذلك في سفارة الولايات المتحدة الأميركية التي لم تكن قد دخلت الحرب العالمية الثانية بعد. أما النساء والأطفال البريطانيين فتم إجلاؤهم بما خفّ حمله وهو عبارة عن حقيبة ملابس واحدة لكل عائلة بناء على الأوامر التي وصلت من لندن إلى السفارة البريطانية في بغداد على عجل.

وعلى الرغم من كل ذلك رفضت (دراور) مغادرة العراق ما لم يسمح لها بأخذ الصندوق الثمين الذي يحتوي على القاموس المندائي

وآلتها الكاتبة وكتبها ومدوّناتها الخاصة بالمندائين وبناء على إصرارها صرّح لها بذلك فغادرت مع البقية إلى البصرة ومن ثم بالباخرة إلى الهند.

واستفادت أيضاً من تواجدها بالهند بأن قامت بمقارنة طقوس (البارسي) بالطقوس المندائية فبعد الاطلاع عليها عن كثب اكتشفت أنهما متشابهتان فدوّنت الكثير من الملاحظات عنها والتي ضمنتها في كتابها على شكل هوامش ومقارنات.

انتهت الحرب العالمية الثانية حيث كانت تنتظر (دراور) بفارغ الصبر أن تعود إلى بريطانيا لتقوم بترجمة الكتب والنصوص المندائية ونشرها وإكمال القاموس المندائي. وشاء القدر في هذه الأثناء أن تمنح بريطانيا زوجها (أدوين دراور) لقب فارس لآرائه المتميّزة في خدمة التاج البريطاني ولكنّ صحته تردت بعد ذلك فتوفي في عام ١٩٥١ نتيجة عجز أصاب كليتيه بسبب حرارة الصين اللاهبة التي تعرّض لها أثناء خدمته في العراق.

وقد كان موت زوجها بمثابة الفاجعة التي أثقلت كاهل (دراور) فلجأت إلى الانتقال إلى أكسفورد حيث كان يسكن العديد من زملائها الباحثين وأصدقائها المقرّبين وكان قرارها صائباً إذ نعمت بزياراتهم ومواساتهم التي خفّفت عنها وحدتها وهي في بيتها الصغير، كما أن سكنها بالقرب من جامعة أوكسفورد أتاح لها ارتياد مكتبة (بولدين) الضخمة والتبعة للجامعة بسهولة ويسر.

اجتازت (دراور) هذه المرحلة الصعبة لتتابع عملها فيما يتعلّق بالمندائيين ولكنها توقّفت قليلاً عند شروط البحث العلمي فأدركت بأنه يترتب عليها القيام بتسجيل صوتي للغة المندائية مباشرة من رجل الدين المندائيين أثناء تأديتهم لطقوسهم الدينية وذلك ليكون عملها كاملاً وسليماً ومستوفياً للشروط.

فعادت إلى العراق سنة ١٩٥٢ وبدأت بتنفيذ هذا المشروع بعد أن ساعدتها شركة نفط العراق بإحضار آلة التسجيل جواً.

كما حظيت بمساعدة البعض فتبرع أحد موظفي الشركة المذكورة بتزويدها بكاميرا سينمائية وتطوّعت زوجة ذلك الموظف أيضاً بمرافقتها إلى العمار ومناطق الأهوار حيث يقيم المندائيون لمساعدتها في هذا العمل فسافرتا إلى قلعة صالح وأنجزتا تسجيل الفيلم بالرغم من مرض (دراور) الشديد نتيجة إصابتها بالملاريا.

وقد عرضت (دراور) الفيلم أوّل مرّة أثناء انعقاد المؤتمر الشرقي في جامعة كامبردج عام ١٩٥٣ والذي حضره جمع كثير من العلماء المختصين من كل أنحاء العالم. وفي أكسفورد لم تتوانَ (دراور) عن الاستمرار في إنجاز القاموس المندائي ولكنه شعرت أنها بحاجة إلى من يتقن اللغات السامية فقامت باستدعاء شاباً تشيكياً يدعى (رودولف ماتسوخ) يعمل أستاذاً في جامعة طهران لمساعدتها في إنجاز القاموس. وكان التعاون مثمراً وتكلّلت جهودهما المشتركة بإصدار أوّل قاموس للغة الآرامية المندائية وذلك في أوائل سنة ١٩٦٣.

سعت (دراور) جاهدة لامتلاك الكتب المندائية فاستطاعت شراء كثير من الكتب من رجال الدين الصابئة ومنهم الشيخ نجم فجمعت نحو ستين منها كوّنت مجموعة نادرة ولكنها ارتأت في إهدائها إلى مكتبة بولدين مع التسجيلات الصوتية والأفلام إيفاء لما تستحقه هذه الكتب من مكانة في هذه المكتبة وانتفاعاً لطالبي العلم. وقد قامت بترجمة تسعة كتب منها من المندائية إلى الإنجليزية.

العام ١٩٥٤ كان حافلاً بمثار عمر من الجهد والبحث والدأب عوّضت عن الحرمان من دخول الجامعة، فقد منحتها جامعة أوكسفور شهادة الدكتوراه الفخرية لبحوثها المهمّة في مجال دراسة طائفة الصابئة المندائيين مّما أسبغ عليها سعادة غامرة عوّضتها عن عدم التحاقها بالجامعة عندما كانت شابة في مقتبل العمر، وليس هذا فقط فقد منحتها أيضاً جامعة (أوبسالا) السويدية شهادة مماثلة تقديراً لجهودها العملية الكبيرة في مجال الصابئة المندائيين.

وفي صيف عام ١٩٦٤ استدعتها السفارة الألمانية في لندن وقلّدتها نيابة عن الحكومة الألمانية أعلى وسام في الدراسات السامية وهو وسام ليدزبارسكي تثميناً لها على ما قامت به من بحوث وتراجم حول المندائيين والتي استمرّت لأكثر من نصف قرن.

قضت الليدي دراور أيامها الأخيرة بسلام في دار لرعاية المسنين شمال لندن وكان يزورها أفراد أسرتها وأصدقاؤها وزملاؤها باستمرار وتوفيت سنة ١٩٧٢ عن عمر ناهز ٩٢ عاماً.

وقد دوّنت في مذكراتها عن طائفة الصابئة المندائيين ما يلي:

«أن تتمكّن طائفة غنوصية قديمة من البقاء حتى وقتنا الراهن هو أمر مثير للعجب، وأن تصان الكثير من كتبهم وتعاليمهم السرية ودواوينهم الطقسية هو أقرب ما يكون للمعجزة. إن هذه الطائفة تضمحلّ بسرعة، رجال دينهم طاعنون في السن وأعداد المؤمنين منهم في تضاؤل سنة بعد أخرى، إني أشعر بالفخر كوني عاصرت عن كثب ديناً ربما سيندرس بعد حين».

فرق الصابئة

هناك آراء عديدة وردت حول انقسام الصابئة إلى فرق متعدِّدة، فمنهم من يعتقد بأن العقيدة الصابئية هي واحدة انقسمت إلى عدّة فرق، وهذا الاعتقاد ويفتقر إلى الصحة والدّقة فالتاريخ يناصر الرأي الآخر الذي يبيّن أن هناك فرقاً متعددة وطوائف مختلفة ارتبطت بالعقيدة الصابئية فسميت باسم الصابئة.

وقد أولى العلماء عناية لا بأس بها بما يتعلّق بأقسام الصابئة فقد بيّن لنا العلماء والباحثون هذه الأقسام وعرّفوا كل قسم ومعتقداته الخاصة به، والفروقات التي تجعله يختلف عن غيره ومن بين هؤلاء العلماء والباحثين من كان أفضل من كتب عن هذا الموضوع هو الفقيه الأصولي سيف الدين الآحدي[١] في مخطوطه (كتاب أبكار الأفكار) وأبو الفرج محمد بن اسحق الدراق البغدادي، المعروف بابن النديم، «والإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني الذي ذكر بعض فرق الصابئة»[٢].

(١) الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكنّى بأبي علي بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي الملقّب سيف الدين الآحدي، المتوفى سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م).

(٢) الشهرستاني، موسوعة الملل والنحل، ص١٤٦.

١. أصحاب الهياكل:

بعد قراءة اسم هذه الفرقة، من الطبيعي أن يراودنا للوهلة الأولى شعوراً بتدخل معينَ لتقديس الأصنام أو إعطائها مكانة ودوراً معيناً. ولتوضيح الأمر أكثر نستعين بمعرفتنا السابقة بأن الصابئة كانوا ميالين للروحانية ولكنهم عندما غاصوا في هذا النزوع وتعمّقوا في ممارسته عرفوا إنه لا بدّ للإنسان من متوسط، وأنه لا بدّ للمتوسط من أن يُرى فيُتوجَّه إليه، ويتقرّب به ويستفاد منه فنزعوا إلى الهياكل التي هي السيّارات السبع، فتعرّفوا أولاً بيوتها ومنازلها؛ وثانياً: مطالعها ومغاربها؛ وثالثاً: اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها؛ ورابعاً: تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها، فعلموا الخواتيم وتعلّموا العزائم والدعوات، وعيّنوا ليوم زحل مثلاً يوم السبت وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختّموا بخاتمة المعمول على صورته وهيئته وصنعته، ولبسوا اللباس الخاص به، وتبخّروا ببخوره الخاص، ودعوا بدعواته الخاصة به، وسألوا حاجتهم منه: الحاجة التي تستدعى من زحل، من أفعاله وآثاره الخاصة به، فكان يقضي حاجاتهم، ويحصل في الأكثر مرامهم، وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب، وكانوا يسمونها أرباباً آلهة، والله تعالى هو ربّ الأرباب وإله الآلهة.

ومنهم من جعل الشمس إلهة الآلهة، وكانوا يتقرّبون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيات، ويتقرّبون إلى الروحانيات تقرباً إلى الباري تعالى،

لاعتقادهم بأن الهياكل أبدان الروحانيات ونسبتها إلى الروحانيات، كنسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء المناطقون الحياة الروحانيات، وهي تتصرف في أبدانها تدبيراً، وتصريفاً وتحريفاً، كما نتصرف في أبداننا.

٢. أصحاب الأشخاص:

كان أصحاب الأشخاص متفقين مع أصحاب الهياكل في مبدأ ضرورة وجود متوسطات فقالوا: «إذا كان لا بدّ من متوسط يتوسّل به، وشفيع يتشفّع إليه، والروحانيات وإن كانت هي الوسائل، لكننا إذا لم نرها بالأبصار ولم نخاطبها بالأسف لم يتحقق التقرّب إليها إلاّ بهياكل».

إذاً هم ينسجمون مع أصحاب الهياكل بأن معيار التقرب والتوسل والشفاعة هو رؤية ومخاطبة هذه المتوسطات، ولكن أصحاب الأشخاص يلتفتون إلى أمر لم يستدركوه أصحاب الهياكل فهم يقولون: ولكن الهياكل قد ترى في وقت ولا ترى في وقت، لأن لها طلوعاً وأفولاً، وظهوراً بالليل، وخفاءً بالنهار، فلم يصفُ لنا التقرب بها والتوجّه إليها، فلا بدّ من صور وأشخاص موجودة قائمة، خصوبة نصب أعيننا، فعكف عليها ونتوسّل بها إلى الهياكل، فنتقرّب بها إلى الروحانيات، ونتقرّب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى، فنعبدهم ويعتبرون ذلك تصديقاً وتطبيقاً للآية الكريمة ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1].

(١) سورة الزمر، آية: ٣.

من هنا، اتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة كل شخص في مقابلة هيكل، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل وتقرّبوا إلى أصنامهم لتقضي لهم حاجاتهم.

من هنا يمكننا تصنيف أصحاب الهياكل تحت عنوان عبدة الكواكب وأصحاب الأشخاص تحت عنوان عبدة الأوثان، إذ سمّوها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1].

٣. الحلولية:

هذه الفرقة تحيل التركيز الأكبر والأهمية الكبرى إلى طبيعة الخالق فيقعون في جدلية الوحدة والكثرة ويوضحون بطريقة خاصة مكانة الله تعالى وكيفية صدور وتفرع الكواكب عنه وادّحارها وقد تمّ تعريفهم من قبل العلماء على الشكل التالي: «هؤلاء زعموا أنّ الإله المعبود واحد في ذاته، وجعل الكواكب مدبراً في العالم السفلي، فالكواكب آباء أحياء ناطقة، والعناصر أمهات، وما يؤديه الآباء من الآثار إلى الأمهات تقبلها بأرحامها. فتحصل من ذلك المواليد وهنّ مركبات (سنعود إلى موضوع الكواكب في فصل خاص بها). والإله تعالى يظهر في الكواكب السبعة، ويتشخص بأشخاصها، عن غير تعدد في ذاته، وقد يظهر أيضاً في الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة، وهي ما كان من المواليد، وقد

(١) سورة يوسف، آية: ١٨.

يتركب من صفو العناصر دون كدرها. واختصّ بالمزاج القابل لظهور الربّ تعالى فيه، إمّا ذاته، وإمّا صفة من صفات ذاته، على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص، وزعموا أن الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح، والأشياء الخسيسة الدنيئة، كالحشرات الأرضية ونحوها، بل هي واقعة ضرورة اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة».

٤. الصابئة الفلاسفة:

العقل هو المدماك عند هذه الفرقة فما يرتضيه العقل ويؤثره هو الخير والصلاح وما ينهى عنه ولا يتقبله هو الشرّ. وهذه الفرقة لا تدين بدين معين ولكنها تتفق مع أصحاب الهياكل فيما يتعلّق بروحانية الكواكب.

ويعرّف بعض الباحثين هذه الفرقة بما يلي:

«هم طائفة كانوا لا يعتقدون بشريعة معينة، ولا يلتزمون مذهباً خاصاً، بل يؤمنون بروحانية الكواكب فقط، ويأخذون من محاسن ما دلّت عليه العقول، سواء وافق ذلك الأديان أم لم يوافقها، وهي تعرف الدين بأثره، فإن أورث السلامة، والرحمة، والكف عن الأذى فهو الحق، وأن أورث الشرّ والهلاك فهو الباطل»[1].

(١) محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، ص٣٠.

٥. الصابئة المعتدلون:

وهم الذين يسوّون بين الأديان، ويقتبسون الفضائل ويلتزمون الحدود ويحرّمون المحرّمات، يؤمنون ببعض بشارات الأنبياء، ويتشدّدون كثيراً في الطهارات وهي طهارة البدن والثياب.

٦. الصابئة المنكرون:

وهم الذين لا يدينون بشيء في هذا الكون وإنما يؤمنون بوجود الصانع الحكيم.

٧. الصابئة الحرنانية:

لتعريف هذه الطائفة نستعين برواية نقلها ابن النديم عن أبي يوسف أيشع العُطيعي النصراني ووردت في كتابه (في الكشف عن مذاهب الحرانانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة):

«إنّ المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مصر، يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرانانيين، وكان زيّهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة، وبفرات كوفرة قرّة جد سنان بن ثابت، فأنكر المأمون زيّهم، وقال لهم، من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرنانية. قال: أنصارى أنتم؟، قالوا: لا، قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا، قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا، قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟

فجمجموا في القول فقال: فأنتم إذن الزنادقة، عبدة الأوثان وأصحاب الرأي في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم، فقالوا: نحن نؤدّي الجزية، فقال لهم: إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في كتابه، ولهم كتاب، وصالحه المسلمون على ذلك، فأنتم لستم من هؤلاء، ولا من هؤلاء، فاختاروا الآن أحد أمرين: إما أن تنتحلوا دين الإسلام، أو ديناً آخر من الأديان، التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه، وإلاّ قتلتكم عن آخركم فإني قد أنذرتكم إلى أن ارجع من سفرتي هذه، فإن أنتم دخلتم الإسلام، أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم.

ورحل المأمون يريد بلد الروم، فغيروا زيهم، وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية، وتنصّر كثير منهم، ولبسوا زنانير، وأسلم منهم طائفة، وبقي منهم شرذمة بحالهم، وجعلوا يحتالون ويضطربون، حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران، فقيه فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به، وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً من بيت مالهم، أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية أعدّوه للنوائب، فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره، فقولوا له: نحن الصابئون، فهذا اسم دين قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن الكريم، فانتحلوه فأنتم تنجون به، وقضى أن المأمون توفي في سفرته تلك بالبذندون فانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمّون بالصابئة.

فلما اتصل بهم بعد وفاة المأمون، ارتدّ أكثر من كان تنصّر منهم ورجع إلى الحرانية، وطولوا شعورهم، حسب ما كانوا عليه قبل سرور المأمون بهم، على أنهم صابئون، ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية لأنه من لبس أصحاب السلطان.

ومن أسلم منهم، لم يمكنه الارتداد خوفاً من أن يُقتل فأقاموا متسترين بالإسلام، فكانوا يتزوّجون بنساء حرانيات، ويجعلون الولد الذكر مسلماً والأنثى حرانية.

وهذه كانت سبيل كل أهل فرعون وسلمسين، القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حران، أي منذ نحو عشرين سنة»[١].

---

(١) ابن النديم، الفهرست لابن النديم، ص٣٢٠.

أسطورة الماء في الأديان فكراً وطقساً

الإنسان والطبعة صنوان لا يفترقان وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به. فالإنسان بما يكتنفه عالمه من مفارقات وتلاوين، ذلك العالم الصغير الكبير بقوته وضعفه وتفاعله مع من حوله ومع الطبيعة ككل، هو وحدة لا تقبل الفصل من هذا الكون الفسيح. ويمكننا تفسير ذلك من خلال الترابط الروحي وحتى المادي ما بين الإنسان والطبيعة التي تعيش في كنفها.

لذلك كان لهذا التفاعل والتكامل بين الإنسان والطبيعة بجميع عناصرها ومظاهرها تأثيراً كبيراً جداً، بل كان يشكّل العامل الأساسي والمجال الواسع الذي ترعرعت فيه بذرات الفكر الإنساني.

من مظاهر ثمار هذا الفكر خلق وتكوين أروع وأعظم الأفكار الإنسانية التي أنبتت شيئاً فشيئاً من التلاقح أو الاتصال الروحي ما بين الإنسان وطبيعته إلى أن اجتازت مسافات الزمان ومساحات المكان لتصل إلى ما هي عليه الآن.

ومن ضمن ما يضمنه التاريخ من معتقدات وأفكار كانت نسيج

أعماق سحيقة في التاريخ الإنساني ذكر التعميد أو طقوس الاغتسال الذي يدعو إلى التوصل إلى الحديث عن الماء ودوره التاريخي في روحية وأفكار الأقوام والشعوب، لأن ما بين التعميد والماء اللذان يشكِّلان وحدة طقسية مهمة في ممارسات الأديان عموماً، ما بينهما تلازماً وعلاقة رمزية صحيحية حياتية لا تتجزأ، لأن الماء هو الوسيلة الوحيدة لإقامة طقوس الاغتسال الديني أو ما يعرف (بالتعميد) وبذلك يكون الماء هو الأسطورة السحرية التي عاصرت الإنسان وهو يبني حضارته وفكره الديني منذ بدايات طفولته الفكرية إلى الآن، فالماء كان ملازماً ولا زال عقلاً وفكراً وطقساً للإنسان.

إن من المنطقي بل من البديهي ما يمكن أن يتوجه به الإنسان من نظرة حول الماء، فالإنسان فطر وجبل في غريزته على تقدير الماء.

فلا يمكن أن يوجد امرئ في هذا العصر، وعلى هذا الكوكب الأرضي ناضج عقلياً، لا يعرف ما للماء من أهمية كبيرة في حياة الكائنات الحيّة فحتى الإنسان في تاريخه المبكر (الإنسان القديم)، ومن جملة اكتشافاته الأولية، شعر وأدرك بغرائزه ما لهذا العنصر من أهمية له وحياته الخاصة، فكانت عبادة الماء وتقديسه من الأفكار الدينية المنتشرة في كثير من مناطق وحضارات العالم القديم، لذلك لا يهمّنا في هذا الآونة أن نبحث في أهمية هذا العنصر ودوره عن الناحية العلمية.

ونكتفي بالإشارة إلى الهمّ الأكبر للعلماء وهو محاولة اكتشاف

ولو أثر بسيط على وجود الماء في الكواكب الأخرى، لكان دليلاً قاطعاً على وجود نفس الحياة في تلك الكواكب.

من هنا، الماء بكل بساطة رمز وتجسيد واضح وجليّ للحياة لكل عاقل ولكل امرئ يتمتع بالصفات الإنسانية، بل الماء هو الحياة عينها والعثور على هذا العنصر الحيوي يعني العثور على كائنات فضائية أخرى غير الإنسان. فالماء بالنسبة إلى العلماء والمستكشفين بمثابة جهاز إنذار مبكر رفيع المستوى يحمل مؤشراً يكشف عن وجود حياة من أي نوع كانت، وفي أي منطقة، لذلك ما يمكن أن تتوصل إليه من كل ذلك أن الماء يساوي الحياة.

اعتبر عنصر المياه على مرّ العصور وفي كافة المجالات العلمية صمام الأمان الذي يشكل الشريان الحيوي الذي لا يمكن الاستغناء عنه في حياة الكائنات الحية جميعاً فبجانب هذه الأهمية والمكانة الكبيرة التي احتلها من الجانب العلمي، احتلّ أيضاً حيزاً كبيراً وواسعاً في نطاق العقلية الدينية والروحية لكثير من أديان ومعتقدات الإنسان قديماً وحديثاً لا تقلّ عن أهميته العلمية. وهذا يبدو جلياً وواضحاً عندما نتتبع النصوص الدينية، بغضّ النظر عن الممارسات الفعلية والطقوس المطبقة المصاحبة لهذا العنّصر (الماء) فلا تكاد تخلو عقيدة دينية إلاّ وكانت تقدّس هذه العنصر، بطريقة معيّنة سواء فكراً أو طقساً. وهذا يرجع ما للماء من أهمية كونية، ولما له من ارتباط وثيق بحياة الإنسان سواء أكان شعباً أم فرداً.

فيأخذنا هذا العنصر موغلاً في التاريخ الميثولوجي للحضارات القديمة، ومنها الحضارة الرافدينية القديمة. فنرى أن الآلهة أنانا قد استعادت الحياة بتناولها طعام الحياة وماء الحياة، بعد أن أوشكت على الموت ونجد التفريق واضحاً بين المياه العذبة (الإلهة أبو) والمياه المالحة (الإلهة تيامت).

فالإلهة (تيامت) مصدر أساسي للموت والأمراض عند البابليين وهي سبب جميع الشرور والأمراض في هذا العالم ولذلك كان يحتفل بفشلها رمزياً في بداية كل سنة جديدة وفي عيد (الأكتيو) استبشاراً بطرد الشرور والأمراض. أما الإله (أيسو) الذي يعتبر مصدر الشفاء والطب، لأنه إله المياه العذبة، فهو أبو الإله (أيا) الذي هو رب الطب الأعلى.

«وقد وردت أسطورة (أيتوما أيليش) البابلية في الكنزاربا وملخّصها، أن الكون كان المياه الأولى في آمن لا شيء غيرها وحدث أن ظهر الآلهة العظام، جيل بعد جيل حتى جاء الإله خالف البشر»(١).

وليس الماء الذي يفترش وجه الأرض وباطنها فقط هو المقدّس في الأديان وإنما الماء الذي يستحيل قطراً من المطر تنهمر من السماء لتزيد في إرداء وإخصاب وإنماء الأرض، هذا الإبداع الربّاني كان له أيضاً مغزى كبيراً وأثراً عميقاً في التفكير الإنساني فهذه القطرات تمثّل

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٧.

في الأساطير الدينية القديمة كالمني الذي يطلقه الذكر (المتمثل في السماء الواهبة) لتخصيب الأنثى (المتمثلة في الأرض المستلمة) فهذه عملية حياتية في عمق فلسفة الأديان ولها دور كبير جداً في فكر الإنسان وتأمّلاته.

والعامل المهم أيضاً الذي دفع إلى تركيز معظم الأديان على استخدام الماء يتمثّل بكونه عنصراً رمزياً لتنظيف والطهارة وغسل الذنوب عند البشر خاصة وأن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من ماء وتراب.

وكان يوحنا المعمدان وقومه يعيشون قرب المياه كي يعمدوا أطفالهم به وللمنتمين الجدد، وهناك طوائف أخرى كثيرة تربط حياتها الاجتماعية والدينية بالمياه وتعيش على ضفاف الأنهر. فالماء مقدّس في كل الأديان القديمة والحديثة دون استثناء، ففي الفكر الإسلامي وخير دليل على ذلك الدور والأهمية التي أولاها القرآن للماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، ففي هذه الآية وهب الإسلام دور استمرار الحياة ومنبع وجود الموجودات وديمومتها ليس فقط الإنسان بل أيضاً الحيوان والنبات أي أنه أساس لكل شيء وهذا تقديس كبير للماء. والجدير بالذكر، أنه لا يخلو أي مسجد من مصدر للمياه النظيفة السائلة يستخدمه المسلمون للوضوء قبل الصلاة خمس مرات في اليوم.

وإذا تعمّقنا في الديانة المسيحية نجد في الماء عنصراً مهماً في

إقامتها لمراسيم التعميد ولا يستعاض عنه وما يثبت ذلك أن السيد المسيح عليه السلام تعمّد بالماء الجاري (نهر الأردن) على يد النبي يحيى (يوحنا) عليه السلام فكان لهذا التعميد أثره الخاص والمهم بلاهوت المسيح والكنيسة من بعده. فيدخل الماء في عملية التعميد الكنسي وصلوات القربان المقدس عند المسيحيين كرمز للتطهير من الذنوب. وقداسة الماء وأهميته لا تستثنى في الديانة اليهودية، فالمراسيم الدينية اليهودية تظهر ذلك بشكل واضح وبارز، وليس فقط في المراسم اليهودية بل أيضاً في فكر هذه الديانة ويثبت ذلك ما يزد في التوراة (التكوين): «روح الله يرف على وجه المياه» حيث تمّ تخصيص عنصر المياه ليتلقف روح الله فلو لم يكن الماء مقدساً عندهم لتمّ استخدام عنصر طبيعي آخر لهذا المقام الرفيع (روح الله).

ففي بعض الطقوس اليهودية التي تعتبر من الفرائض يكون الماء هو الوسيلة والعنصر الأساسيين كما في طقوس التنظيف وتبرئة الذات من الذنوب وفي التعميد أحياناً. كما يعمد اليهود إلى غسل أياديهم قبل كل وجبة طعام وعن طريق تقليب الماء بين الكفين اليسرى واليمنى بمثابة التبرّك.

ويسير بنا تيار قداسة الماء هذه الأسطورة السحرية عن الأديان السماوية وصولاً إلى الديانات القديمة التي يجلّلها وشاح القدسية الخاصة للمياه لهذا فقد اعتبر الإغريق القدماء أن بعض الأنهر والبحار

مقدّسة ومنحوا المياه الآلهة مسؤولة عن الخير والخصوبة والكوارث وكأن الماء هو مصدر قوة للآلهة ليصدد عنها كل خير للوجود وكل شيء يتعلّق بالحياة والاستمرارية.

ويرى الدكتور جواد علي بأن القدماء كانوا يرون في أعمال الآبار والينابيع والأنهار العذبة قوى خفية مؤثرة تمنح مياه تلك المواضع قدسية خاصة وفي الواقع نحن نرى ولا نزال هذا التقديس باقياً حتى الآن عند كثير من الشعوب.

بعد هذه الجولة على بعض الديانات والتعرف إلى مدى أهمية المياه بالنسبة لهذه الديانات يلفت نظرنا أن هناك ديانة تجعل المياه محور تعاليمها وطقوسها، ألا وهي الديانة المندائية التي تعطي للماء قدسية عظيمة حيث «عُرِفَ الصابئة المندائيون بارتباط طقوسهم بالماء إذ نحت اسمهم من عملية الارتماس في الماء الجاري ويسمى (مصبتة) وهو مأخوذ من صبأ الآرامية أي اغتسل»(١). ويزيد على ذلك، أبو فرج النديم، الذي «سمّى المندائية بالمغتسلة وهو أقرب الأسماء تعبيراً عن ماهية طقوسهم»(٢) حيث قال: «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح وهم صابئة البطائح يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلونه»(٣).

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥١.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٢.

(٣) سعد الأشعري، المقالات والفرق، ص٤١.

إن الماء الحي (ميا هيي) شعار وصفة ملازمة من الناحية الفكرية والطقسية للديانة المندائية وهنا لا بدّ من الإشارة إلى تفاصيل أكثر تتعلق بهذا الشعار وعلاقة المياه بعالم الظلام وعالم النور بالنسبة للصابئة، حيث يعتبر المندائيون أن «الإله واحد، هو الحي القديم يكون منه يرونا (الماء الحي العظيم) ومن الماء كانت الحياة الثانية وهي الملاك منداهيي العارف بالله، وبقدرته ظهر الأثريون ينزل هؤلاء إلى عالم الظلام حيث المياه الآسنة والشياطين أرض العوز والنقصان ثم يأتي ملاك هيبل زيوا (واهب النور على حدّ عبارة دراور) لمطاردة ملكة الظلام الروهة، وبعد القضاء عليها يأمر الحي المتسامي الملاك بثاهيل الذي ينسب له مع كائنات نورية أخرى تكوين السماء والأرض بخلق جسد آدم ينتظر الجسد بلا حراك حتى يجلب منداهيي الروح من موقعها العلي ويتم خلق الكون ليظهر فيه الإنسان ليعبد الحي الأزلي»[1].

نلاحظ من كل ذلك، أنه ليس كل ماء هو مقدس في المندائية وإنما فقط الماء الجاري الحيّ الذي يطلق عليه (يردنا) فهناك الماء الراكد أو الميت الذي ترفضه الديانة المندائية والذي يرمز إلى الظلام والموت. أما الماء الجاري الحي (يردنا) فهو الماء الذي يحمل كل صفات الحياة أي الماء الذي ينقي نفسه بنفسه.

فـ (يردنا) لها أهمية رمزية كبيرة في عملية الخلق وانبثاق الحياة

(١) عزيز سباهي، أصول الصابئة، ص٦٩- ٧٠.

والعوالم. فهي تعتبر من صفات الخالق المقدّسة والعظيمة التي انبثقت في آخر يوم من أيام الخلق العلوي الخمسة (البرونايا).

وتذكر بعض النصوص الدينية المندائية بأن اليردنا هو مخلوق كائن بذاته، له القابلية على الخلق أيضاً (عبارة رمزية).

وينشأ به مع المندائيين ملة من الملل سمّاهم النديم بالرشيين في موضع الماء الحي وهذه القابلية الرمزية على الخلق التي يتمتع بها.

«وقد تحدّث النديم عنهم كفرقة مستقلة عن المندائيين ولم يعنِ بقوله الدين المندائي مع أن اهتمامهم بالماء الحي والظلام وتعلق التسمية برش الماء يكشف بوضوح عن هوية مندائية. أما ماذا قال الرشيون: «لم يكن غير الظلمة فقط وكان في جوفها الماء، الريح، وفي الريح الرحم، وفي الرحم المشيمة، وفي المشيمة البيضة، وفي البيضة الماء الحي، وفي الماء الحي ابن الأحياء العظيم، وارتفع إلى العلو فخلق البريات والأشياء والسموات والآلهة»[(١)] والجدير ذكره «أن مفردة الماء الحي مفردة مندائية خالصة»[(٢)].

نلمح من خلال هذه النصوص، إشارة واضحة تؤكّد على أن اليردنا أو الماء الحي هو الذي كان سبباً في إنعاش الحياة على الأرض. وكأنه بمثابة مادة الحياة (الدم) في الإنسان وجريانه بدوريته الكبيرة

(١) سعد الأشعري، المقالات والفرق، ص٤٠٣.
(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٣.

والصغيرة المعروفتين وسبب في بقاء الإنسان على قيد الحياة. لأن الأرض عند خلقها لم تكن روح الحياة متيسرة، فكانت مليئة بالماء الآسن الأسود الذي خرجت منه الأرواح الشريرة والشر، فبامتزاج (يردنا) السماوي في مياه الأرض غير الحية ازدهرت الأرض وانتشرت رائحة الحياة عليها.

وليس كل ماء جار هو يردنا، وإنما جزء منه يردنا سماوي والذي يغذى من قبل عوالم النور العليا السماوي (الmي أو نهورا) فعملية امتزاج (يردنا) السماوية الجارية في عوالم النور والمحملة بالحياة والنور بـ (يردنا) الأرضي، تعطي للأخيرة صفة الحياة والقوة على البعث والإخصاب. فلذلك إن وجود يردنا السماوية في يردنا الأرضية يثبت وجود العلاقة الحياتية بين عوالم النور (آلمي أو نهورا) وعوالم الظلام (آلمي أد هشوخا) والتي من ضمنها الأرض (أرا اد تيبل). وهذا يعني أن روح الحياة متيسرة في هذا العالم. وحسب الفكر المندائي إن هذا الاتصال مهم جداً بين الماء الجاري الحي العلوي والماء الجاري الأرضي. وإن لم تصب المياه العلوية في المياه الأرضية ستبقى الأخيرة سوداء غير حيّة كما كانت بعد الخلق. فـ (يردنا) السماوية كانت مصدراً وسبباً في ازدهار الحياة على الأرض بعد الخلق وأصبحت مهيّئة لخلق الإنسانيّن الأولين (آدم وحوا) عليها.

الخلاصة إذن، أن (يردنا) الأرضية تغذى من قبل (يردنا) السماوية والتي تعطيها صفة الحياة والديمومة، وهي عبارة عن نور الله المتجسّد

في الماء. كما أن يردنا هي المادة أو المصدر الذي تتزود منه الكائنات الأثيرية والأرضية على حدٍّ سواء، القوة والحياة.

لقد ذكرنا سابقاً، بأن الماء الحي (مياهيي - يردنا) هو جوهر طقس (المصبتا - الصباغة) التعميد المندائي و (يردنا) عموماً يرمز إلى صفة الأب وعنصر الحياة (السائل الحيوي للحياة والتكوين) فهي الفكر ولممارسة الطقسية المندائية. فـ (يردنا) هي نفسها التي سيولد بها الإنسان المصطبغ (المتعمّد) مرة أخرى تاركاً خطاياه بعيدة، فالماء إذن، فغذّ ومنعش ومطر دائماً.

وكما قُلنا سابقاً، كلمة (مصبتة) مشتقة من جذر الفعل الثلاثة المندائي (صبا) بسكون الصاد وفتح الباء وتعني مندائياً التعميد أو الصباغة بالذات ومن هذه الكلمة جاءت تسمية المندائيين بالصابئة أي الصابغة أو المتعمدين أو السابحة. والأخيرة اقترحها عباس محمود العقاد في كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء)، جعل سببها كثرة الاغتسال في شعائرهم (أي الصابئة المندائيين) وملازمتهم شواطئ الأنهار من أجل ذلك. «وللدلالة على ذلك خاصة وأن المندائيين كانوا يرتبطون بالفرات ودجلة فهم يجعلون هذه العلاقة ارتباط بالقيامة والعذاب بجفاف النهرين»[(١)].

وقد جاء في الكنزاربا في هذا الصدد: «كل من عمل باطلاً سيبقى هنا.. مكبلاً بعذاب ربه إلى أن يجف الفرات من منبعه إلى مصبّه

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٥٠.

ويجري دجلة خارج مجراه، إلى أن تجف جميع المياه في البحار وفي الجداول والأنهار والعيون والآبار بعدها»[١].

وطقس الاغتسال بالمياه الجارية أو التعميد ليس محصوراً فقط بديانة الصابئة المندائية بل هو موجود في الأديان الأخرى أيضاً ولكن بأقسام وطرق وشروط مختلفة إلاّ أن المغزى من هذا الطقس وجوهر فعل الاغتسال والهدف منه يبقى واحداً وهو التطهير واكتساب منحة الحياة والاتصال بالقوى الحياتية، لما للماء مثلما أوضحنا، من أهمية بالغة في عقيدة الأديان.

والكثير من هذه الأديان تعتقد بوجود القوى الخفية التي تحمي هذه المياه وتعطيها البركة الإلهية والقوة على الإنعاش والتواصل مع الحياة، والتي تظهر مميزات هذه القوة في المياه عندما يرون بأن الماء باعث الحياة للأرض الميتة، ومعطيه جرعة الحياة للإنسان والكائنات الحية.

ولا يخفى بأن شعوباً وأقواماً عديدة قد مارست هذا النوع من الطقوس المصاحبة للمياه اندثرت بعضها ولم يبقَ منها غير الذكر التاريخي، والقسم الآخر موجود حالياً يمارس لحدّ الآن وتمارسه كثير من الأديان والمذاهب بصور تختلف أو تتشابه فيما بينها.

ويذكر لنا التاريخ أن هناك فرقاً يهودية قديمة عديدة كانت تمارس

(١) الكنزاربا اليسار (ترجمة بغداد)، التسبيح الثامن، ص٦٤.

مثل هذا النوع من الطقوس. فاليهود الذين سكنوا بلاد ما بين النهرين (الشتات) لجأوا إليه حين بشروا بدينهم هناك، إذ كانوا يلزمون من ينضمّ إلى اليهودية بالتعميد حيث كان المتهودون يعمدون أو يغطسون بالماء في نهر قريب عادة علامة تطهير. وهذه الأخيرة موجودة في الدين الإسلامي حيث يلزم من يدخل الإسلام الاغتسال وقراءة الشهادة، يقصد به أيضاً التطهير والدخول للدين الجديد.

وكانت الديانة اليهودية تفرض تطهيرات عديدة بالماء، وتفرض في العديد من حالات النجاسة، اغتسالات طقسية، تطهر وتواصل للعبادة. ونلاحظ في التوراة والتاريخ العبراني أسماء لمواقع مائية مقدّسة جداً في عقيدتهم، وهذا نستطيع أن نجده في الكثير من الأديان.

ولقد اكتشف في السنوات القليلة الماضية منطقة تقع شرق نهر الأردن، وقد أكّد بعض الباحثين بأن البلدة المكتشفة ترجع للنبي يحيى يوحنا عليه السلام ولتلاميذه من بعده، وربما ترجع لطائفة الأسينيين، وخاصة أنها قريبة من مركزهم الرئيسي في منطقة قمران وهذه البلدة المكتشفة تحتوي على العديد من الأحواض المختلفة الأحجام وهي بالتأكيد لأغراض الاغتسال والتطهير الديني.

وعلى الجانب الغربي من نهر الأردن، هنالك طائفة الأسنيين التي اكتشفت لها أحواض خاصة في منطقة خربة قمران (شمال غرب البحر الميت) لأداء هذه المراسيم على الرغم من اندثار هذه الطائفة. فلقد كانت

الحمامات المرتبة طقسياً مألوفة لدى هذه الطائفة مثلما كانت عند جماعات دمشق وقمران.

إن البحوث جارية للكشف عن هذه الطائفة التي تعتبر التعميد أو الغطس بالمياه الجارية، الطريق الذي يوصلهم إلى الاتصال بالخالق، فمن تعاليم هذه الطائفة انغمار المرء كلياً في الماء ثم يشرع في رش الماء على نفسه. ويقول جوز يفوس المؤرّخ اليهودي الذي ادّعى معرفته بالطائفة، في كتابه (حروب اليهود) المجلّد الرابع ص ٢٢٢، إن الطهارة لدى الأسنيين هي شكل من أشكال التعميد لأنها كانت تمارس قبل وجبة الطعام اليومية العمومية. أو إذا تدنس أخ بتماسه مع أفراد فئة أدنى منه دينياً، أو في حالة قبول مرشح عضواً في النظام الكهنوتي.

وبما أن الأساطير الدينية عن خلق الإنسان الأول من التراب والماء، وكان الإنسان قد حاول في فكره الديني أن يحوّل أسطورة خلقه الأول إلى ممارسة طقسية يقوم بها بحياته وكلما احتاج إلى أن يولد ويخلق من جديد فهي إذن عملية تواصل مع الخالق الأول والتجديد في الحياة.

ويظهر عمق التفكير عند الصابئة وميلهم إلى استقاء الأبعاد المعنوية من خلال ما يمكن أن يعيشوه من عناصر مادية فيمولونه إلى طقوس تذكرهم بالخالق وأسرار الخلق. فعملية الغطس وقطع النفس عند انغمار المرء تحت الماء أثناء مراسيم الصباغة المندائية (مصبتا - التعميد) ليست إلاّ دلالة قيّمة وواضحة ترشدنا إلى عملية الخلق الأول

للإنسان كما تعني الموت والانحدار ومن ثم الخروج من على سطح المياه، دلالة الخلق والولادة والازدهار.

كذلك، إنّ طقوس الاغتسال الديني التي كانت تجري في بابل أو مصر أو ربما غيرها أيضاً كانت تجري في الأنهار الجارية، ومن المعلوم أيضاً أن ارتداء الملابس البيضاء التي ترمز إلى النظافة والطهارة عند التعميد والاستحمام الديني كان شائعاً لدى العديد من الأقوام.

من باب آخر، يذكر التاريخ وعلى لسان الكثير من المؤرّخين والباحثين وكما ترويه لنا الشواهد الأثرية، بأن هذا النوع من الطقوس امتدّ بعيداً في التاريخ فحتى الديانات المصرية والسومرية والبابلية والكلدية والآشورية لها ممارسات على مثل هذه الطقوس والتي تقام بمصاحبة المياه الجارية النقية، والتي تمتلك صفة الحياة، فمثلاً، في مصر كان التلميذ المرشّح للكهانة إذا نجح في الامتحان القاسي الذي يجري له، يخلع ملابسه ويستحمّ (يتطهر) في الماء ويطيبونه بالعطور ثم يرتدي زي رجال الدين، ويجب أن يقوم الكاهن بطقوس التطهير لنفسه وللمعبد، وذلك قبل الشروع في أداء شعائر العبادة. ويقوم الفرعون بمراسيم تبخير المعبود وتطهيره بسكب المياه المقدّسة عليه، ثم يقدّم القرابين لأبيه الذي يمنحه الحياة، وللعلم أن المصريين القدماء قد عرفوا الأحواض المقدّسة المملوءة بالمياه الخاصة للتطهير.

ويعتبر تناول الماء المقدّس عند الحضر، من طقوس الاحتفال الديني المهمة جداً، ويكون حوض الماء المقدّس دائري الشكل ويستعمل

لأغراض التطهير. كما ويعتبر الوضوء عند المسلمين وغسل الجنابة شكلاً من أشكال الاغتسال والتطهير في الماء أيضاً. وإن الغسل في الماء بقصد الطهارة والوضوء في الديانة الإسلامية، ويتحقق الغسل الارتماسي بغمس الجسد في الماء دفعة واحدة.

من هنا نرى آثار الصابئة المندائيين تفصح عن حرصهم على أن يكونوا في سكناهم قريبين من مصادر مياه جارية وحية على ضفاف الأنهار، وخاصة دجلة والفرات في عراق اليوم، لذلك «ذكر المؤرخون المسلمون المندائيون الحاليين بتفاصيل أشارت إلى كبتهم وطقوسهم ومناطق تواجدهم في جنوب العراق، حيث وفرة الماء الحي بمساحات شاسعة»[1].

والمهاجرون منهم، في استراليا خاصة، يمارسون طقوس تعميدهم بكل حرية على ضفاف نهر نيبين في مدينة نبرث. وفي هذا الصدد يؤول الصابئة علاقتهم بالماء الحي رداً على بعض الأباطيل التي وجهت إليهم، ومن بينها بأنهم يسلّمون على الأنهار المقدسة فيبررون ارتباطهم بالماء الحي وتعريفهم لعالم النور «بأنهم إذا يجعلون للماء منزلة في طقوسهم كوسيلة للعبادة، لا يسلمون على الأنهار وإنما يذكرون الحي القديم وهم وسط النهر»[2].

---

(١) الخيون رشيد. الأديان والمذاهب بالعراق، ص٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٧.

وإن هذا التعميد الذي يقوم به الصابئي المندائي والذي يسميه شعبياً (صباغة) وفي اللغة الرسمية الدينية (مصبتا) له تأثير أنه على أصول وتطبيقات طقوس ومراسيم الاغتسال عند بعض الأديان الأخرى مثل المسيحية.

ومن الجدير ذكره أيضاً، اكتشاف الأحواض والبرك الجارية في كثير من الحضارات القديمة، والتي يؤكّد بعض الباحثين على أن الناس كانوا يستحمون (يغطسون) من ضمن المراسيم الدينية (أي بمصاحبة القراءات الدينية).

من هنا تبدأ أهمية المحافظة على المياه العذبة، وعدم تلويثها لأنها من العناصر الجوهرية في المحافظة على البيئة وجعل الطبيعة مزدهرة دوماً. فعليه تلويث المياه والعبث بها بما يؤدّي إلى نقصانها أو زوالها، يدخل من ضمن المحرّمات الدينية التي نصّت عليها كثير من أديان العالم القديمة والحديثة، إضافة إلى الأعراف الدولية في المجتمع المدني الجديد.

الأدب عند الصابئة

أ- الشعر

لا غرو أن يهتمّ الصابئة بالأدب، وهم قوم يحملون ثقافة فريدة من نوعها، فلا يجب أن نستبعد أن يتركوا آثاراً أدبية خالدة وهم متأثرون بحكم النبي يحيى ويتبعون كتباً مقدّسة ومن ضمن هذا التاريخ الفكري الصابئي يمكن أن نتكلّم عن الشعر الذي أتحف سجلاتهم الفكرية.

وقبل الغوص في خضمّ طريقهم إلى الشعر لا بدّ من الإشارة إلى العوامل التي دفعتهم إلى التعبير الأدبي، فنحن نعرف أن الصابئة عاشوا يتظلّلون بنفح خرير الأنهار لضرورة دينية، ويتفيأون بنسيم عليل أضفى على حياتهم صبغة الهواء والبساطة، كبساطة لباسهم، وطعامهم وأعمالهم، ولكن على الرغم من ذلك فكان شبح العزلة يخيّم على حياتهم فكانت حياة متقوقعة منزوية عن المجاورين، لاختلاف عقيدتهم، وفرادتها وسريّتها، ولاختلاف لغة الدين وخصوصيتها.

كل هذا التاريخ الحافل بالتنوع واختلاف أحواله، دفعهم إلى التعبير عن سعادتهم وكآبتهم بلغة شعرية عذبة، مشحونة بعواطفهم

الفطرية الصادقة، فاتسعت لجميع الأغراض التي يرغبون في التعبير عنها، فأثمرت عن ولادة (الأبوذية) كطريق للتعبير «وهي من الفن الشعري العالي، وفيها طور خاص غناه الصابئة بلحن حزين جداً، يستدرّ الدموع، أطلق عليه (الصبية) نسبة إليهم وأغلب شعرائهم نظموا فيها، ويندر من لم يفعل ذلك، وصفة الغزل تطغى على غيرها»[1]، والذي يميّز الشعر الصابئي أن الشخص العادي لا يستطيع فهم الحقيقي للشاعر، إلاَّ بعد أن يحلّ رمز اللفظة، **فاللغة العامية هي المستعملة في هذا الفن، فهي:**

عذول اللي سعى بصدك وحالك إبليل أظلم سهرت أنا وحالك
يهل تنشد على حالي وحالك هم عندك مثل ما صار بيه؟

يذكر الشاعر هنا على أوتار القلب فيخاطب الوجدان شاكياً حاله تحت وطأة البعد، ناشداً أن يشعر الطرف الآخر بمرارته فيكون تفسير البيت: (العاذل الذي سعى لكي يبعدك عني سهرت بالليل حالك الظلمة، فهل تسأل عن حالي وحالك كما أسأل، وهل أصابك ما أصابني).

وينشد الشاعر سوادي واجد (عم عزيز كاري) متغزلاً فيقول:

قرينا طلسم صدرك بهنداس يشعّ بليلة الظلمة بهنداس[2]
يتخطه وجتن جعوده بهنداس تحفظ لا يصير تلك منية

---

(١) مجلة التراث: العدد الثامن، السنة الرابعة، ١٩٧٣، ص٣٦.

(٢) قرينا: قرأنا، طلسم: رمز، بهنداس: آلة هندسية.

يتجلى في هذين البيتين الوصف بأروع ما يكون، فيستحيل وصفاً يلامس الإحساس ويدغدغ الروح وتلمس ذلك من خلال التفسير: (قرأنا رموز صدرك بآلة هندسية، ونوره كان يشعّ بليلة مظلمة بإشعاعات منتظمة المسار، وكان يتمايس في مشيته وضفائره مجدولة بطريقة منتظمة، كأنها من صنع مهندس فاحذر أن تكون منيتك بسببها).

الذي يزيد من رونق هذا الكلام، الحكمة والعبرة التي يخبّئها الشاعر خلف هذا الوصف الرائع، فهو يشير إلى مصير المختال ونتيجة الغرور أي الموت بطريقة جميلة ومقنعة.

عاطفية صادقة التعبير، مختصرة الكلمات، مثال ذلك ما أنشده الشاعر عزيز كاري:

نظرت الزمن مني العقل شتيت ابجله وبلباس الطيف شتيت[(١)]

كوم اللي تفق عدو استيت نفع ماكو الحكتهم كل أذية[(٢)]

يمكننا تفسير هذين البيتين من الشعر المندائي، كما يلي: (نظرت إلى أمور حياتي وزماني، وفكري شارد مشتت، وكيف لا، وقد أمضيت الشتاء البارد بلباس الصيف الحار، أما قومي الصابئة الذين تفرّقوا فأصبحوا مشتتين في كل مكان، فلم تقتصر نكبتهم وكآبتهم على الابتعاد عن الأحباب والأصحاب، بل كانت المصائب والأضرار والأذى تلاحقهم إلى كل مكان).

---

(١) شتيت الأولى (متفرق)، شتيت الثانية (أمضيت الشتاء).

(٢) ماكو: لا يوجد، الحكتهم: لحقت بهم.

نلاحظ، أن الشاعر يخفي وراء هذه الكلمات القليلة معانٍ ومشاعر لا تنحصر بحاله فقط وإنما تتسع لتشمل هموم وأحزان قومه. لذلك هو يعبّر عن مصير الصابئة وما يتعرّضون له من الطبيعة ومن المحيط.

وإليكم نموذجاً آخر من شعر الصابئة:

عليك الله يحلو الطول دن دن   يمشي والحجل بالساك دن دن[1]

من أمت تخسر للأهل دن دن   كل هذا وتلحكك هم خطية[2]

أما تفسير هذين البيتين، فيتلخّص بما يلي: (بالله عليك يا حلو القوام، حينما يمشي الحجل يدندن ساقه، لو مت حسرة عليك سيخسر أهلي مادياً ومعنوياً ومع هذا فإنك سوف تلام).

ويقول الشاعر درباش غافل:

شلت همي وهمك وليحادي   أشاب الون لكلبي ولحادي[3]

دشيت بخطيتي وليحادي   طريق الشناك وخنت بيه

يخاطب الشاعر من أسماه المحبوب الذي وصفه بالخائن ويبيّن له صبره وتضحيته لأجله ويشكو حزنه من جراء ظلم المحبوب إياه: (وحملت همي وهمك لوحدي فمن جلب الحزن والأسى لقلبي، وأنا

---

(١) الحجل: نوع من الطيور؛ بالساك: بالساق.

(٢) تلحكك: تنحق بك؛ خطية: اللوم بسبب الأذى.

(٣) شلت: حملت؛ وليحادي: وحدي، أشجاب، من جلب؛ الون: الحزن؛ لكلبي: لقلبي.

وحيد، ظلمتني أيها المحبوب، صنعت كل شيء من أجلك، ومع هذا خنتني، ولم تتذكري عذابي من أجلك).

«وعرف الشاعر رابع زغير - ١٩٤١ - بلطفه وارتجاله الشعر الماجن الجريء فقال»[١]:

ما يحوج غسل وجهك ولا ماص　　العسجد لا مثل خدك ولا ماص
لا شم الشفة كلبي ولا ماص　　الشفة من يلجن انهودك عليه

(لا داعي لغسل وجهك جيِّداً ولا حتى غسله بمسحه، لأنه لا الذهب ولا الألماس يماثلان خدك، الشم لم شف قلبي ولا المصّ، ولا يتمّ شفائي إلا حينما يلتصق نهداك بجسمك).

أما الشاعر لميعة عباس عمارة، فقبل أن تقرض الشعر الموزون، كانت تنشد الشعر الشعبي، ومنه قولها:

حبيبي من ورا لطوفة وأبص له　　وأريده لو على خبزة وبصله
نعنة الله علبو الواشي وأبو أصله　　الفرك رصينا الجانن سوية[٢]

هذه بعض الأمثلة عن أدب الأبوذية، وهم لم يتوقفوا عنده بل تناولوا الوطنيات، والحكمة، والفخر والصياغة، والغزل وهذه أمثلة منها:

---

(١) مجلة التراث الشعبي: العدد الثامن، السنة الرابعة، ص٤٠.

(٢) الطوفة: الحائط أو الجدار، وأبص له: أنظر له، نعنه: لعنة؛ الفرك: الذي كان بسبب الفراق. الجانن: سوية: خلقنا معاً.

١. الوطنيات:

ينشد الشاعر عزيز كاري حبه للوطن فيقول:

على العدوان نفزع يوم نأخذ حيف
لا نخشى البرودة ولا أبحر الصيف
إحنا البحرب عدنا سوية الكيف
اجلاجه بالحبر للوطن سودنشه
اجلاجه بالبحر نفزع ونمحي العار
تتلازم الأيدي بقوة الجبار
ابتكا قفنا وتآزرنا العدو ينهار
بسلاح وذخيرة فقط مدونه
مغوار ومذائي أنا وصرت قناص
وسرائيل دوم الدوم ملعونة
ملعونة اتحدا الناطقين الضاد
لا بد يوم نتواعد فرد ميعاد(١)
مو منها الشجاعة من وراها أسياد
أمريكا وحكام الذي جانوا يحكمونه

(١) اجلاجه: مركب نهري، البحرب: الحرب، سوية الكيف: تساوي الراحة والمتعة، فرد ميعاد: ميعاد واحد.

٢. الحكمة :

اتخذ الشعر الصابئي أيضاً الطابع الحكمي الذي يقصد الوعظ وإيصال رسالة وعبرة معينة تفيد القارئ، فيقول منصور خيطان :

يا صاحب أوصيك ابكل مكارم جلب (تمسك)
صدك لها وشوق بوجوه المعالم جلب (اشباه)
الناس ما هي سوية بيهم جريم وجلب (كلب)
وبيهم من تحسبه وللنسب ينسب (يصل إلى نسب شريف)
وبيهم شبه اللاسعة ينسب (ينساب كالأفعى)
يسبك نذل ماله عرض يشب (ليس له شرف)
وللي يعضه جلب قابل يعض الجلب (لا حدّ يعض الكلب)

٣. الصياغة :

لم ينسَ الصابئة ذكر صناعاتهم في الشعر، فحتى أعمالهم ومعاشهم دفعهم إلى التعبير فقد أتى الشعراء الصابئة على ذكر صناعاتهم، كصناعة القوارب والصياغة والنسيج من ذلك المحادثة بين الصائغ والعدة التي صنع بها مجوهراته، وقام بأداء الدورين الشاعران عبد النبي رابع (العدة) ومنصور درباش(الصائغ)، وكان ذلك بمناسبة الكساد الاقتصادي عام ١٩٣٦ في العراق، فتوقّفت الأعمال :

الصائغ :

يا صياغ الطموا ماتت العدة وأخبرتكم رزقها ماي وتبده

العرة :

أنا موش ميته أريد بس أستاذ

أسوي عيشته حلوة وعلى المعتاد

جنوني الكمتريه وخلفه الحداد

والصياغة لا لبوه ولاهيه لجده(١)

الصائغ (يسخر) :

بينا بالصياغة حيل معتوبه

أسباع الشغل ليش اليوم مطلوبه(٢)

العدة :

أنا بحاصلي يشهد إلي السندات

بترجيه وحجل ومخشخش وخلخل(٣)

بكلامك يا منصور بأن جنال

رزقك من يكصدك محد يرده

الصائغ :

كلبي يا جماعة كام حيل يفور

وأنا من الصياغة أصبحت مقهور

---

(١) الكمتريه: الذين يتسلقون على هذه الصناعة، وهم من الحدادين لا الصاغة؛ لا لبوه: ليست له مصلحة.

(٢) مطلوبه: مديونه.

(٣) السندان: من أدوات الصياغة؛ الحجل ومخشخش وخلخال: من حلي النساء.

على ساعة واكط المطركة على الكور
والفنج واحطج بالنهر سده[1]

ب ـ الحكمة:

لقد حفل الفكر المندائي بالطابع الحكمين وكان التراث المندائي عامراً بالعبر الهادفة التي تدعو الإنسان إلى المثالية الواقعية، ونلمح هذه الصبغة في الأشعار كما أشرنا آنفاً والأمثال والكتب الدينية، مثل كتاب (كنزه فره) الذي يتجلى فيه هذا النوع من الحكم بشكل واضح «فهناك فصل خاص دوّنت فيه حكم النبي يحيى عليه السلام وأمثاله»[2].

وقد قام بترجمتها الأستاذ غضبان الرومي من اللغة الآرامية المندائية إلى اللغة العربية، فأضافا بذلك إلى التراث العربي مادة أدبية وفكرية وعقيدية تعبر عن تجارب إنسانية هادفة وعن فكر رائع ومبدع.

وإليكم ترجمتها:

بأسماء الحي العظيم تنير عقولكم وذكاءكم (خبرتكم) وعلمكم أن هذه الحكمة والوصايا هي ما أوصى به، وما قاله، وأمر به يحيى بن زكريا للمتعبّدين، وأصحاب العهد المتعمّدين والمتزهدين، وللأمة المجتمعة حوله، وهم الذين يبتغون التقى والصلاح للاستنارة بكل

---

(١) المطركة: (المطرقة)؛ والكور: من أدوات الصياغة.

(٢) مجلة التراث الشعبي: العددان ٦ - ٧، السنة الخامسة، ص٦٦.

الشعائر، وهم كأخوة ملك تاجه مستقر على رأسه معلناً الحرب على دنيا الشر والكذب، معتمداً على المحيطين به، الأخوة البررة وهؤلاء (الناصروررائيين) أصحاب العهد والحق، وهم كالفلاحين الذين يشتركون معاً بالآم فلاحة الأرض، ومن الصالحين بأعمالهم، ويهبهم القوة والصبر والجلد، وهذه الحكم مستندة من سلاح أهل الصلاح البررة والمتصفين بصفات ذوي العهد والإيمان والعدل والمعرفة والبصيرة والحكمة والتعلّم، العقيدة والحق، الصلاة والتسبيح والكرم والصدقات، والطيبة والتواضع والمساواة والإنصاف وحسن التصرّف، والطهارة والزكاة، والسلام، والمغفرة، والتوبة، ومحاسبة النفس، والتفكير بالحي، والتماس الرحمة للمعاهدين.

- رأس العهد هو أن لا تفسد عهدك، ولا تعتاد على الكذب والفتن.
- رأس إيمانك هو الإيمان بالله، ملك علم الأنوار القيوم الدائم الذي يثيب الذين يزكوه ويطهرون.
- رأس عدلك هو أن تحاسب نفسك.
- رأس مترفتك أن لا تشرك بالله.
- رأس بصيرتك هو أن لا تلقي بنفسك بالتهلكة.
- رأس حكمتك هو أن لا تفتن ولا تستهزئ بالذين سلّموا أمرهم لله.

- إن سرّ ثقافتك هو أن تعلم وتشرح ما يأمر به إلهك.
- إن رأس عقيدتك فروض من الفضائل من مدبر بصير، فلا تكفر به.
- إن سرّ صدقك هو أن لا تحلف على ما ليس لك.
- إن سرّ صلاتك وتسبيحك هو أن لا تعتاد على التفرقة.
- إن سرّ صدقاتك وإنعامك هو في إطعام الجائع وسقي العطشان.
- إن سرّ شفقتك ومساواتك، هو أن لا تشتم ولا تغضب ولا تميل للشرك.
- إن سرّ عبادتك هو أن لا يزول ذكر ربك من فمك.
- إن سرّ مساواتك هو أن تعدل وأن تتقبل الحكمة.
- إن سرّ استقامتك هو أن لا تقول ما لا تعرفه.
- إن سرّ نجاحك هو أن توقّر الإنسان.
- إن سرّ أمانتك هو أن تحاسب نفسك على ما تقوله.
- إن سرّ غناك هو أن لا تطمع أو تشتهي ما ليس لك.
- إن سرّ طهارتك هو أن تتجنّب النجاسة.
- إن سرّ سلامتك هو أن لا تتكبر على من هو أكبر منك.
- إن سرّ تعبدك هو أن توقف النفس من الجسد وما يتصل به.
- رأس تسبيحك هو أن تستغفر لمن أتيت منه (أنجبك).

- إن سرّ بصيرتك هو إيمانك بالموت.
- إن سرّ رحمتك هو أن تتمسك برحمة العهد الذي أعطاه ربك إلى الذين يطلبون رحمته من اتباعنا.
- كن كالميزان المتقن المملوء، الذي لا نقص في حركته.
- تمثّل بديانة العهد التي لا كذب بأقوال علمائها.
- كن كالفلاح الذي يزرع وينبت الأشجار التي تحمل المعرفة والطيبة.
- تصور البناية المنسقة البنيان بكل عناية وبصيرة.
- تصور الذي صوّر الأجسام بكل حكمة وجمال.
- كن كالماهر المنظم لكل رغبة بالمعرفة والشرح والترتيب المنظّم.
- كن كالسراج المنير الذي ينير اليسار إلى اليمين بالحق والإيمان.
- كن كالجبل الشامخ الذي لا تزحزحه الرياح، إنه يشع عبادة وتسبيحاً.
- تمثّل بالتاجر الذي خسر الألوف، لكنه لا يزال يتصرّف بلياقة ووسامة.
- كن كالمائدة المملوءة، التي تقدّم للجياع، وهي مبتهجة.
- كن كالشجرة الحلوة العطرة الخاضعة.

- كن كالماء الذي ينساب وينتشر في كل مكان بإرادة الله، دون أ، يتورط في ترتيب.
- تصور هذا التشبيه البادي المكلل المرتب المزدهر.
- كن كجبل الورد والبراعم والريحان الطيب الازدهار.
- تصور دنيا العهد التي لا باطل فيها، إنها متقنة الكمال.
- تصور الطعام الجيد اللذيذ الطعم من كل شجرة طاهرة.
- كن كالعين الطاهرة، التي لم يدخلها الباطل، إنها طاهرة.
- كن كالمرآة الصقيلة، التي تميّز كل وجه متفرّس فيها طلباً للرحمة والغفران.
- تصور النسيم الزاكي العطر، الذي يهب في كل باب وكوّة محتسبة أنها دائمة، وهي لا تدوم.
- كن مثل الفراشة التي تؤسر في بيت محكم، وهي تظنّ أن وقت خلاصها من الأسر قريب، ثم أطلقت، إنها كمثل من يطلب رحمة مليئة بالإيمان.
- لتكن كالأب الطيب الذي يربيّ أبناءه وأولاده تربية صالحة بالعبادة والإيمان، احترسوا وأبعدوا نفوسكم عن الخداع والشرّ والكذب والضلال والغشّ، والخزي والمسكنة، والكفر والقسوة، والحماقة والطرب، وتصغير النفس والزنا، والفجور.

والعصبية وغواية الشيطان، وغمز العيون والسكر والرقص والسبي والاشتهاء والتعلّق ببنات الهوى.

- أيها الناس إن الحسد، والغيرة والهم، والكره والغضب، والفخر واللمز والمضايقة، والعصيان والزنا والخطف والاستحواذ بالظلم، والقوة والنهب، وغزل الشر، والنجاسة، وقذارة الجسم، والاحتقار، والازدراء، الخبيث، وإضمار الشر، لعباد الله المسالمين، كل هذه الصفات لا تدل على الإيمان بالله العظيم، وشتّان ما بين رمانة ممتلئة بالصدق (مغلا) وأخرى ممتلئة زيفاً.
- تصوّر المبكر من الفجر يعمل للحياة، لكنه متمرّد ويرمي بشباكه ضد طالبي الرحمة، وهو كاذب.
- تصوَّر لساناً يسبّح بلباقة بكل الأديان لكنّه دجال.
- تصوّر البحر الهائج الذي يجرّ سفينتك إلى الشرّ.
- تصور الشجرة المرة التي تثمر فاكهة سامة، على هيئة فاكهة طيبة ليس فيها نقص.
- تصوّر البرّ ذا الماء الحي الساري، مبتغياً الازدهار ولم يدر بالخلل.
- تصور لبنة من بعر البعير، رميت بالماء الأسود، مفتكرة أنها كقسوة الحصاة.

- تصور البيت الذي لا يترطّب بكل رطوبة إنه كالخطيئة.
- تصور شجرة الدردار التي تدّعي بأن ثمرها أحسن الأثمار وهي بلا ثمر.
- كن كالدهن الذائب الذي يجري في حوض، ويروي بلا مرارة.
- تصوّر حالك بعد زوال نعمتك وقد كنت لاهياً فاسداً مؤذياً.
- تصوّر حال النار المستعرة بالنفيخ.
- الحكيم من لا يترك بيته بلا سقف.
- الحكيم من لا يسلك طريقاً لا يلابسه (يناسبه).
- الحكيم لا يصطحب مرآةٍ غير صقيلة.
- الحكيم لا يمتطي جواد، بلا سرج.
- الحكيم من لا يقدّم طعاماً بلا طعم (فائدة).
- الحكيم من لا يقدّم لك الطعام مع الإغلال.
- الحكيم من لا يصدق أن جيشاً بلا فائدة.
- الحكيم من لا يلقى القول جزافاً كمن يبني بيتاً بلا مدخل.
- الحكيم من لا يثور في الأرض السالمة.
- الحكيم من لا يطلق سفينة بدون ملاحين.
- الحكيم من يوقف كلامه الوديع في نداء، ويصغي ثم يقدم السلام.

- الجاهل من يوقف كلام الكبير، ويظهر الرعب ويتمسّك به ويسلم بأطراف أصابعه.
- العاقل من يوقف كلامه الطيب، ويتجه إلى كل أعمال الخير.
- الحكيم من يقدّم الطعام للذين في داره ولكن مسالم يتعبّد.
- الجاهل من أغلق فمه، وحاسب غير حساب الشيطان، ومدّ يديه إلى الدانق والدرهم.
- الحكيم من ملأ قلبه إيماناً من إيماننا وابتعد عمّا يتناهي، ويتمسّك بالسلام.
- الجاهل قد يأتيك بدين مدغوش، وقول قاس، كصورة السيف المسلول.
- أمن الحكمة أن لا يتحرر المرء، ويكتم قوله ويسكت، والقول كثير (ليس من الحكمة أن تسكت وفي القول متسع).
- أمن الحكمة أن يكون المرء مشعاً بالخير كالضوء ويحسب أن الخطيئة أقسى من الحجر.
- أمن الحكمة أن تفكر بأن الحجر لا يترطب بالدهن.
- ليس من الحكمة أن تكون عصبياً هائجاً.
- أمن الحكمة أن تكون كالمطر بأرض خراب.

- ليس من الحكمة أن تظن أن كل بياض زجاج (ما كل ما يلمع ذهباً).
- ليس من الحكمة أن تكره المريض.
- أوليس من الجهل أن تفكر باتخاذ دهن البلسم لتكون صياداً.
- أوليس من الحمق أن تزوّج البتول للخصي.
- أوليس من الحمق أن تزيد من أسعار النار بقوة الماء.
- أوليس من الحمق أن تكون دلالاً للطرش والخرس.
- من الحمق وزنك لكل الحال وصبوان الجهلاء المخجلة وتقييمها وقبولها.
- زن وتقبّل ما يقوله الحكماء، إذ لا حكيم أحمق فتصدق حكمته، تصور الحال من لا رحمة في قلبه؛ إذ لا حكيم جاهل يصدق.
- لا تعمل أعمالك التي لا تنبض من القلب.
- لا تحاسب الشرفاء.
- على الإنسان أن لا يظلم أهل الأديان المنزلة، فإن خالفت فأنت أحمق.
- تصوّر الزنديق إنه كالدلو الممتلئ الذي لا يروي حتى أصدقاءه إنه أحمق.
- تصور الإنسان الذي يكره حتى نفسه، إنه كالصنم المنتفخ إنه كالمعصية بذاتها، إنه أحمق.

- تصور لقاصر بياض ملابس الملوك، ويشتري منه الأحمق.
- تصوّر الأصم في كل تزمير أنه كالنائم الذي لا يسمع، إنه الجاهل.
- تصوّر من لا يبني بناء لنفسه إنه أحمق.
- تصوّر المستهزئ الذي لم يجد القتل من الدببة وحينما استيقظ وجد أنه لم يحدث شيء.
- تصور المستهزئ الذي لم يجد إكليلاً لنفسه (يتعمد) إنه أحمق.
- تصوّر من لا يتعبّد ويدّعي بأن زوجة متدينة.
- الويل لهؤلاء الحمقى المخادعين الذين يغيّرون أوامرنا ويغيّرون ما أوضحنا لهم، إن الإنسان الذي يظهر إيمانه ثم يراوغ ثم يعلق رغبته في التعبد قرب موته، ويبدأ يسمع ويتفهم كلم الرب، ولا يبدي صبواته إن الله لن ينسى، وقد يرحمه الله، أما أولئك الذين قرأوا وسمعوا وأطاعوا وملأوا أفواههم بدون كذب ما أملاه عليهم الحكماء وشرحه، وقاله لهم يحيى بن زكريا بمدينة القدس والله المزكي لكل عباده الصالحين وهو المزكّي.

ج ـ القصة والأسطورة:

يعدّ التراث المندائي الصابئي مترعاً وغنياً بالقصص والأساطير والحكايات الشعبية التي تترجم خيالات القصاصين وما يختلج في صدورهم من تصوّرات وآمال أثمرت نوعاً رفيعاً من ضروب الأدب نسب إلى كثير من القصاصين الشعبيين والأدباء المحلّيين. وهذا الأدب يتسم «بطابع صابئي خاص يميّزه عن شعبيه من سائر القصص الشعبي العراقي»[1]، والإيرانيين كما يحتوي على أساطير دينية ذكرتها الكتب الدينية المندائية المقدّسة، وقد قامت الليدي دراور الجمع هذه الحكايات والأساطير في كتاب (المندائيون في العراق وإيران). وقد قام الأستاذان نعيم بدوي وغضبان رومي، بترجمته إلى اللغة العربية، ونشر عام ١٩٧٣ وعددها ثمانٍ وعشرون حكاية وأسطورة هي:

١ـ أساطير الخليقة والطوفان.

٢ـ إبراهيم ويوربا.

٣ـ كيف جلب هيبل زيوا الروهة من عالم الظلام

٤ـ قصة قيفل ووفاة يحيى.

٥ـ كيف صبأت ابنة بنوختنصر.

---

(١) أساطير وحكايات شعبية صابئية، ص٥.

٦ــ قصص الشمس.

٧ــ الجسر في شيشتر.

٨ــ عابد النار وآدم بو الفرج.

٩ــ كيف زار دنانوخ السماء السابعة.

١٠ــ العصر الألفي.

١١ــ جبل مداي وكيف جاء الأتراك لاحتلاله.

١٢ــ كيف ترك المندائيون والكنزفره جبل مداي إلى إقليم أحسن في الشمال.

١٣ــ الطفل الذي حملت به أمه في التاسع والعشرين من الشهر القمري.

١٤ــ كنش وزهلي (الكنس والنظيف).

١٥ــ الأشباح.

١٦ــ الطاعون في شيشتر.

١٧ــ زمي الحجر

١٨ــ الغول (الشيبة).

١٩ــ أولاد بيبي ومغامراتهم الغريبة.

٢٠ــ شيخ زبد.

٢١ـ إدراك الحوادث أثناء الغيبوبة.

٢٢ـ إساءة الجن إلى الموتى.

٢٣ـ الموتى يعودون إلى الحياة.

٢٤ـ قوة مشاهدة الأرواح.

٢٥ـ حقيقة قصة رستم وابنه.

٢٦ـ هرمز شاه.

٢٧ـ الرجل الذي حاول أن يرى «سين» «القمر».

٢٨ـ العنقاء «السيموزغ» وهرمز شاه.

الفلك عند الصابئة

يحمل الصابئة أفكاراً فلكية غريبة، ولكن إذا دققنا فيها نلمس عندهم خيالاً خصباً وعمقاً في الاهتمام بالفلك. فبعض الصابئة يعتقد أن عمر العالم من آدم إلى نهاية الحياة /٤٨٠٠٠٠/ سنة، وتحكم كل فترة من هذه المدة إحدى علامات البروج، فالحمل (أنبرة) مدته /١٢٠٠٠/ سنة، ومدة الثور (تورا) /١١٠٠٠/ سنة، ومدة الميزان (صلمى أصيلميا) /١٠٠٠٠/ سنة وهكذا يستمر حساب الزمن وعلامات البروج. وقد ذكرتها دراور على الشكل التالي:

البرج	الحمل أو الكبش	القيمة العددية
أبنارا (السنة الجديدة)		١
تورا (الثور)		٢
صيليميا (الميزان)		٣
سرطانة (السرطان)		٤
أريه (الأسد)		٥
شمبلتا (السنبلة)		٦
قينة (القصب)		٧
أرقبة (العقرب)		٨
هطية (الفرس)		٩

كدية (الجدي)		١٠
دولة (الجمل أو الدول)		١١
نونه (السمك)		١٢

وللشمس مكانة خاصة عند الصابئة فهي قوة للخير لا للشدّ فالشمس (شامش) «كسائر الأرواح الفلكية في دورته عبر الفلك كوكب ودي واعتباره قوة للخير لا للشرّ واضح على الأغلب في كتب الصابئيي، وأكثر من ذلك فلدى الصابئين سنة شمسية وأعداد شمسية مقدّسة ويدخل قرص الشمس في رسم الحروف الأبجدية، ويظهر شامش (راكب السفينة الرئيس) مطابقاً لياور زيوا والصلوات له ذات صفة شمسية والتقاليد تعين له بحارة سبعة (اثرى) نورانيين ولو أن الصورة في ديوان أباثر لا تحتوي إلا على أربعة شخوص يتفون بجانب شامش في زورق الشمس»[١].

ومع شامس عشرة أرواح للقوة والإشراق وهي ترى ما يصنع كل واحد في العالم ولا يغيب عن نواظرها شيء. ويفسّر ذلك ما يقوله المندائيون بأن «الشمس ليست مضيئة بل تستمدّ الضوء من أرواح أو كائنات نورانية كونية تماماً كما تعكس المرأة الصورة تعكس الشمس ملكه زيوا وشامش (الشمس) سيد جميع ملائكة الدنيا المادية»[٢].

ويظهر القمر (سين) بوصفه ذا تأثير منحوس نوعاً ما.. إذ لا بدّ

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص١٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٧.

أن يكون هناك ظلام ونور وليل ونهار. والأرواح النورانية في القمر تحوّل بينه هو وملك الظلام وبين تضليل أبناء البشر، فبأثير هذين الاثنين يأتي الناس بأعمال معينة يخجلون من الإتيان بها نهاراً.

«إن ملك الظلام يعجز عن أن يؤذي رجلاً يسيطر على نفسه وله إيمان ثابت، فيجب على المرء أن لا يخامره الشك وأن يكون دائماً ذا إيمان وطهارة متينين. وعليه، أن لا يقول (لا يوجد، بل يوجد)، فالمرء حين يقول إن الله غير موجود، فهو واقع تحت سيطرة ملك الظلام بصورة مطلقة ومن الخطر مجالسة ومصاحبة هذا الشخص»(١).

ولكل صابئي إسمان، اسم فلكي (ملواشه) واسم دنيوي(٢) واسمه الفلكي (الروحي) هو اسمه الحقيقي، ويستعمل في المناسبات الدينية والطقسية، وينسب هذا الاسم إلى الأم، وللإسم الديني مكانة مهمة، فلو غرق شخص، أو احترق، أو اختفى، ولم يعثر على جثته، يبحث عن شخص حي تشبه أوضاعه (الروحية) أوضاع المفقود، ويحمل اسماً يقع ضمن دائرته الفكلية، ويقوم الأخير بتمثيل المفقود وقت إجراء الصدقة المباركة (زدته بريخا) التي يكفر بموجبها عن نقص في طقوس الموت والدفن.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٢) غالباً ما يكون الاسم الدنيوي متأثراً بالمحيط، وفي جنوب العراق يسمي الصابئة أبناءهم بأسماء غريبة والاسم الدنيوي هو الاسم الذي يعرف به الشخص وبه تتم المعاملات الرسمية والعقرية والقانونية وكل الأمور الدنيوية.

«ينسب المندائيون التدبير إلى الفلك وأجرامه ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها ويعظمون الأنوار»[١]، «وما قاله البيروني كان صحيحاً وينطبق تماماً على المندائيين اليوم لكنهم لا يحسبون للكواكب هذا الحساب إلاّ من باب التنجيم»[٢].

لذلك يلجأ بعض الصابئين إلى الكهان للتنبؤ بالمستقبل حيث يحاول الكهان معرفة ذلك عن طريق التأمّل في السماء والنجوم، أو يقوم الكهان بإخبار الأشخاص عن اليوم السعيد للزواج أو عن وقت إرسال الطفل للمدرسة، وبكتابة الوصفات الطبية المصنوعة من الأعشاب للمرضى، الذين يطلبون ذلك، وغالباً ما يرفض الصابئة تناول الدواء شرباً، ولو كان بأمر الطبيب وهم يؤمنون بالأدهان، ولا يمانعون بأخذ الحقن العضلية أو الجلدية.

«وتقسم السنة عند الصابئين إلى اثني عشر شهراً، ولكل شهر ثلاثون يوماً، مع خمسة أيام كبيسة شمسي (بروانا) وتلفظ أحياناً (برانويا)، أو (البنجة)، وهي تقع بين الثلاثين من شهر (شمبلته)، واليوم الأول من شهر (منينه) وتقسم هذه الأشهر الاثنا عشر إلى أربعة فصول: الشتاء (ستوه)، والربيع (أبهار)، والصيف (كبطه)، والخريف (بايز) وكل فصل يوزّع على ثلاثة أقسام»[٣].

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) دراور، الصابئة المندائيون، ص١٣٤.

أما أسماء الأشهر فهي :

رقم الشهر	الفصل	البرج	الشهر
١.	أول ستوا	قام دولة	شباط
٢.	ميصاي ستوا	قام نونه	آذار
٣.	خير ستوا	قام امباره	نيسان
٤.	أول أبهار	قام تورا	أيار
٥.	ميصاي أبهار	قام صلمى	سيوان
٦.	خير أبهار	قام سرطانة	تموز
٧.	أول كيطه	قام آريا	آب
٨.	ميصاي كيطه	قا شمبلتا	أيلول
٩.	خير كيطه	قام قنا	تشرين أول
١٠.	أول بابيز	قام ارقبة	شروان
١١.	ميصاي بابيز	قام هيطه	كانون
١٢.	خير بابيز	قام كديه(١)	طابيت (طابيث)

وتسمى كل سنة باسم اليوم الذي تبدأ فيه من الأسبوع سنة (هبشيه)، أي سنة يوم الأحد، وسنة (أرهاطى)، أي سنة يوم الجمعة، والاسم الذي يطلق على رأس السنة هو (دهفه ربه) آخر يوم من السنة يسمى (كنشي وزهلي).

أما الأرض فإن لهم بها اعتقاداً خاصاً، فهم يعتقدون أن الأرض كروية ثابتة ولكن لها حركة خاصة وهي مقامة على هوائيين، هواء

(١) قام: أي برج.

داخلي وآخر خارجي، وتحت الأرض ماء انبطث عليه، فلما تمّ خلق الأرض، أنزلت الملائكة من عامل الأنوار بذوراً للأشجار، وفتحت طريقاً للهواء ولماء الحياة الذي تقوم عليه الحياة، وفتحت طريقاً آخر للنور تستمد منه الشمس أشعّتها لتنير بقية الكواكب بالوساطة، ويعتقدون أن السماء تتكوّن من سبع طبقات.

أما آدم (آدم بفره) فإن الله حينما أراد أن يخلقه على صورته أنزل (بثا هيل بن هيبل زيوا) إلى الأرض، فخلقه على صورته من التراب وخلق من ضلعه الأيسر زوجته حواء. ومن ثم أنزل الروح القدس إلى جسمي آدم وحواء وعلم الملائكة آدم كل ما هي الدنيا من صنائع وحرف وجريان الماء وحساب الزمان بسنينه وأشهره وأيامه ثم أنزلت عليه الكتب المقدّسة المحتوية على العبادات والفرائض ثم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا (هادبيثه) أي إبليس فإنه رفض السجود وقال: خلقتني من النار، وخلقته من تراب، فكيف أسجد له؟ فلعنه الله وطرده من الجنة.

«وقد اعتقد المندائيون ربما لاهتماماتهم الفلكية بوجود بشر خارج كوكب الأرض فالكواكب السماوية عندهم ما دون عالم النور اتخذت سكناً للبشر (الشبه روحيين) والكائنات النورية وكتبهم الدينية ترشد إلى عوالم»(١) «يسكنها بشر مثلنا وتركز بالدرجة الأولى إلى عالم العهد مشوي كشطه وتذكر أيضاً أن البشر في هذا العالم لا يختلفون عنا كثيراً وعلى هذا

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٢٢.

الأساس فقد أمر هيي دبي قدماي الحي الأزلي بنقل بنات آدم من هذا العالم (أده أوتبيل) الأرض ويجلب زوجات من عالم شوني كشطا لأولاده»[1].

لذلك وبطريقة أخرى أكثر وضوحاً «يرى الصابئة أن لكلِّ كائن وجوداً علنياً ووجوداً سريّاً، ويرون دائماً أن للوجود السري امتيازاً على الوجود العلني فالعالم السري فسيح أكبر من العالم العلني، الذي هو عالمنا المسكون، وهو عالم مستور عنا لا يمكننا مشاهدته في حياتنا، ويعتقدون أن سكان ذلك العالم هم بشر مثلنا إلا أنهم صابئة، منزّهون عن كل وصمة.. أما العالم الثاني، فاسمه (اره تيبل) كما ذكرنا أو الأرض البالية وهو عالمنا المنظور. ولما كان الوجود السري مماثلاً للوجود العلني، كان في العالم السري آدم مخصوص به اسمه (كاسيا) أي آدم المستور ويسمّون زوجته (كانات) أي (تامة الجمال..)»[2]، ولعالمنا هذا آدم يدعى (آدم بفره) أي آدم المادي وتسمى زوجته حواء.

«ولكي يتخلص الصابئة من قضية الزواج بين الأخوة في بدء الخليفة اضطروا للقول أن لكل من هذين الآدميين ابنة وولد فجمع بينهما (هيبل زيوا)[3] وزج كلاً من الولدين بأخت الآخر ليتم التناسل البشر على طريقة مشروعة»[4].

---

(١) أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص٢١٥، غضبان رومي، الصابئة؛ ص١٨٠.
(٢) أقوام تجوّلت بينها فعرفتها، ص٦١.
(٣) هيبل زيوا: هو جبرائيل في العالم المنظور.
(٤) الصابئون، ص٥٩- ٦٠.

أما حديث الطوفان ونوح، فهو قريب بما جاء في الكتب السماوية الأخرى أما الدنيا فإن عمرها من ظهور آدم حتى الآن فهو أربعمائة وأربعة وسبعون وخمسمائة وعشرون عاماً (٤٧٤٥٢٠) عاماً وتفصيلات هذه الأعوام تظهر بشكل جليّ أكثر في بعض الكتب المقدّسة خاصة «الكنزاربه».

ويقول الصابئة عن مصير الحياة وكيفية نهايتها: «سيبقى العالم على شكله القائم ٢٦٤٨ عاماً حتى ظهر المسيح المرتقب وهو غير المسيح الأول الذي جاء إلى الدنيا بمظهر جسماني فتتبدل العادات وينبذ السلاح وتمحى الديانات ويكون العالم على دين واحد»[(١)]. «وتستمر الحالة على هذا المنوال ألف سنة ثم يرجع الأمر إلى شريعة آدم السابقة ومنه إلى (هيبل زيوا) فيبقى تحت حكمه خمسين ألف سنة ثم يصير إلى إمامات ويستمر مئة وسبعين سنة ثم تفنى الأرض لتعود إلى عالم الأنوار»[(٢)].

أي بقي للحياة على الأرض / ٨١٨.١١٢/ سنة ويعتقد الصابئة بأن الله رسم للإنسان طريق الخير والشر والإنسان مخيّر في الطريق الذي يسلكه خيراً كان أم شرّاً وهو يحاسب على هذا الأساس.

(١) هو الدين الصابئي المندائي (كما يعتقد الصابئة).

(٢) الصابئون، ص٦٣.

الصياغة عند الصابئة

اشتهر الصابئة بحرفة أبدعوا في ابتكارها حتى ذاع صيتهم في وسط سكناهم وحتى البيئات المجاورة، هذه الحرفة هي صياغة الحلي والفضة، والمصنوعات الفلزية من الفضة والذهب مزيّنة بالمينا والرسوم الآخاذة.

وتشتمل هذه الحرفة على طرق فنّية في تطعيم الفضة بالميناء تتخلّلها أسرار يفضّلون الاحتفاظ بها وعدم اطلاع أحد عليها وقد جاء في كتاب دليل الجمهورية الذي أشرف على إعداده الدكتور مصطفى جواد: «اشتهروا بصياغة المينا (المنية)، أي نقش الفضة والذهب، وحفرها وتلبيسها بالميناء، وهي حرفة احترفها أغلبهم وبرعوا فيها وكادوا يختصون بها دون غيرهم»[1].

والذي يميّز صياغة المندائيين ويجعلها منسوبة إليهم، وما يبيّن دقّتها وصوبتها أن أشهر الصائغين في وقتنا الحاضر «خمسة فقط، والسادس في إيران، وهم حسني زهروت، وعبد الله يحيى واسمر

(١) دليل الجمهورية لسنة ١٩٦٠، ص٤٢٩.

هرمز، ويقال خنجر، ونصر باحور، وعبد الكريم عبد العزيز من عبدان»[1] . (آبادان) .

والذي ساهم في لمعان نجم الصابئة هي عالم الصياغة أن بعض الصاغة منهم قام بعرض صناعتهم في معارض اشتركوا بها في دول أوروبا وأمريكا. أما محلات الصاغة لديهم فتنتشر في جميع أنحاء خوزستان .

وتتلخّص مهاراتهم في الصياغة بابتكارات وإبداعات غاية في الدقة والجمال فالصائغ الصابئي يستطيع أن ينقش صورة فوتوغرافية للزبون بمهارة وحذق فائقين، وأحياناً تكون النقوش على الفضة الملوّنة، وطلب هذا الفن يتدرّب عملياً بضع سنوات في غربلة وتمرين مستمرين تحت إشراف أبيه، أو قريبه، أو أي شخص آخر متمرّس وهي فترة قد تستغرق عشرين عاماً أو أكثر، وتمرّ عملية الصناعة بعدة مراحل هي: الحفر، ثم الجمع، ثم التلحيم، ثم البرده، ثم تركيب المنيا.

والأدوات المستعملة في هذه الصناعة هي:

المطرقة والسنداه والمنفاخ والمبارد (جمع مبرد)، والمسن والغاز السائل عوضاً عن المنفاخ.

أما الحلي المصنوعة فهي على أنواع، منها النسائية كالأقراط (تراجي) واخجول، والخلاخيل، والأساور، والقلائد، وغيرها..

(١) مجلة التراث الشعبي، العددان: ٥- ٦، سنة ١٩٧٢، ص٥٩.

ورجالية مثل أزرار الثياب، والخواتم، وهناك حلي خاصة بالأطفال، وبعض التحف، كالمزهريات والسكاكين، والملاعق وعلب السجائر، كؤوس.

«كما لم يغفل الصابئة عن صناعة الزوارق فهم إلى ذلك كانوا سبباً في معاش المنطقة، فهم لفترة طويلة كانوا منتجي وسائل الإنتاج من أدوات الصيد والزراعة والنقل»[(١)].

«والتعبير الشائع عن الزورق العريض، قليل الغور، في الأوار هو (المشحوف) وهو عبارة عن تصميم بسيط من الخشب المشروح، وأضلاع داخلية تتصاعد بانحناء من عمود فقري، منتهية برأس ومؤخّرة، ووظيفتها شق الطريق خلال البردي والقصب، وتسمّى الصغيرة جداً التي تستعمل لصيد الأسماك (جلابيه)، وتطلى الزوارق من الخارج بالقير»[(٢)].

أم الجيل الجديد، فقد التحق بالمدارس والمعاهد مواكبة للتطور وللحضارات الحديثة، ومع ذلك فقد سطع هذا الجيل في سماء العلم فتخرّج منهم الأطباء والمحامون والأساتذة والمهندسون.

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص٣٧.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص١٠٦.

العوائل المندائية في خوزستان

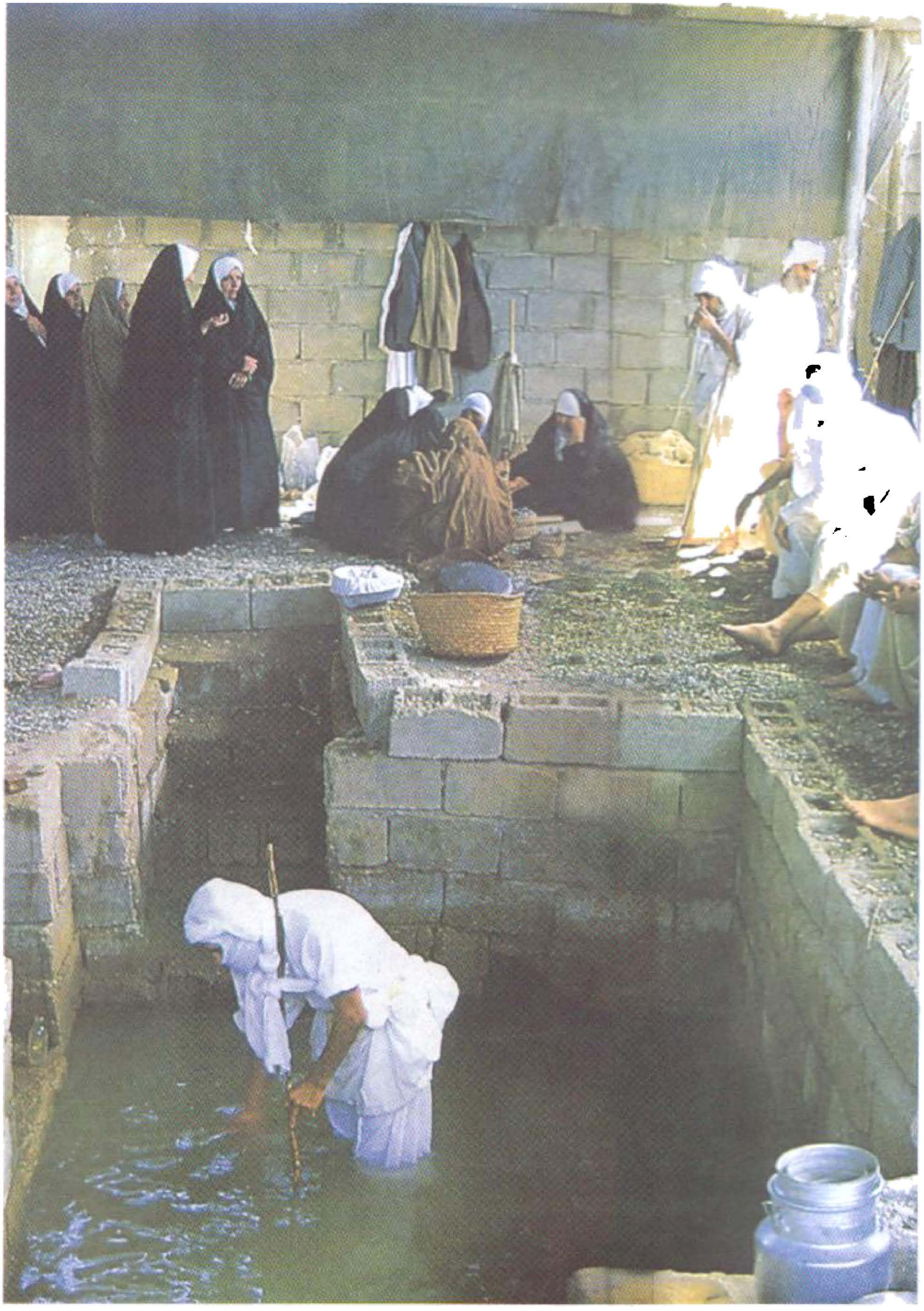
مندوى - البوزهرون - خميسى - خفاجى - دارائى - چهُيلى - برنجى - شوشترى - نظرى - صابورى - طاووس - عبادى - بركات - (بيت مال الله) كتانه - دوراجى - كشميرى - جيزانى - مشيرى - عذارى - ساهى پور - نقدى - سابوته - افشون كار - صبى زاده - يحيوى - البو خميس - البو حمد - سپهرى.

اللّفظ المندائي

العربية	التلفظ	مندائى
ابن - ولد (ذكر)	بر	ࡁࡓ
أسنان	شِنّا	ࡔࡉࡍࡀ
أنسان - بشر	بَرناش	ࡁࡀࡓࡍࡀࡔ
أبيض	هِوارا	ࡄࡉࡅࡀࡓࡀ
المزارع	اكارا	ࡀࡊࡀࡓࡀ
السنة / عام	شِتّا	ࡔࡉࡕࡀ
الشعير	سَارا	ࡎࡀࡓࡀ
القرية	دهات	ࡃࡄࡀࡕ
مدينة شوشتر	شوشتر	ࡔࡅࡔࡕࡀࡓ
المريض	ناساز	ࡍࡀࡎࡀࡆ
الطبيب	حَكيم	ࡄࡀࡊࡉࡌ
الدواء	حويج	ࡄࡀࡅࡉࡔ
الغذا	ميخل	ࡌࡉࡊࡀࡋ
الزوج - الزوجة	زَوّا	ࡆࡅࡀ
ظهر	قميث	ࡒࡀࡌࡉࡕ

التلفظ	العربية
يانقان	الأطفال
كداو	كتاب
كدويه	كَتَبَ
كادوِن	أكتب
قارِن	اقرء
نَهِر	النهر
كارون	نهر كارون
اهواز	مدينة الأهواز
تتورا	جسد
دكيا	نظيف
هِلى	حلو
مَنديان	المندائيين
دِهِوان	الأعياد
بوث	البوثه - الآية

مندائي	التلفظ
ࡊࡋࡀࡎ	كلاس
ࡔࡉࡕ	شيت
ࡃࡓࡉࡀ	دِريا
ࡀࡂࡌࡀ	اَغما
ࡈࡅࡓࡉ	طوري
ࡁࡌࡀࡍࡃࡀ	بمِنَدا
ࡉࡅࡌࡀࡍ	يومان
ࡔࡅࡕࡉࡀ	شوتيا
ࡄࡀࡁࡔࡀࡁࡀ	هِوشبّا
ࡔࡅࡐࡕࡀ	شفتا
ࡉࡀࡄࡓࡀ	يهرا
ࡍࡅࡍࡀ	نونا
ࡀࡕࡋࡀࡕࡉࡍ	اتلاثين



التعميد في المندي

المصادر والمراجع

الكتب:

١. القرآن الكريم.

٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل

ـ قصص الأنبياء: بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٨٨.

٣. ابن المعتز، عبد الله

ـ طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مصر، دار المعارف ١٩٥٦.

٤. ابن منظور

ـ لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب. ت.

٥. أداموف، الكسندر

ـ ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة: هاشم صالح التكريتي، البصرة، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٢.

٦. **الأشعري، سعد بن عبد الله**

ـ المقالات والفرق، تحقيق هلموت رترفرانزبفيسبان، ١٩٨٠.

٧. **برنجى، سليم**

ـ الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ترجمة: جابر أحمد، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٧.

٨. **البغدادي، الخطيب**

ـ تاريخ بغداد: بيروت، دار الكتاب العربي.

ـ الفقيه والمتفقّه، تحقيق: الشيخ إسماعيل الأنصاري، بيروت، دار الكتاب العلمية، ١٩٨٠.

٩. **الجاحظ، عمرو بن بحر**

ـ الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

ـ ثلاث رسائل: القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٤هـ.

١٠. **الخامنئي، سيد علي:**

ـ الصابئة.. حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية: بيروت، الغدير، ١٩٩٩.

١١. **الرصافي، معروف عبد الغني**

ـ كتاب الشخصية المحمدية، أو حل اللغز المقدس، ألمانيا، دار الجمل، ٢٠٠٢.

١٢. **دراور، الليدي**

ـ الصابئة المندائيون، ترجمة: نعيم بدوي وغضبان رومي، بغداد، ١٩٨٧.

١٣. **رومي، غضبان**

ـ الصابئة، بغداد، مطبعة الأمة، ١٩٨٣.

١٤. **سباهي، عزيز**

ـ أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية: دمشق، دار المدى، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.

١٥. **الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم**

ـ الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة.

ـ الملل والنحل، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، بيروت، المكتبة العصرية.

١٦. **الصنعاني، عبد الرازق بن همام**

ـ تفسير القرآن، الرياض، مكتبة الرشد، ١٩٨٩.

١٧. عبادة، عبد الحميد بن بكر

ـ كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمين، بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٢٧.

١٨. فضل الله، محمد حسين

ـ من وحي القرآن، بيروت، دار الملاك، ١٩٩٨.

١٩. القمني، سيد

ـ النبي إبراهيم التاريخ المجهول، القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩٠.

٢٠. القشقشندى

- صبح الأعشى

٢١. مراني، ناجية

ـ مفاهيم صابئية مندائية، بغداد، ١٩٨١.

٢٢. المسعودي، أبو الحسن علي

ـ مروج الذهب ومعان الجوهر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.

٢٣. مغنية، محمد جواد

ـ التفسير الكاشف، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٨.

٢٤. نجم، محمد يوسف

ـ رسائل الصابئ والشريف الرضي، الكويت، ١٩٦١.

٢٥. النديم، إسحاق

ـ الفهرست، تحقيق، رضا المازندراني، دار المسيرة، ١٩٨٨.

كتب صور

١. صابئين إيران زمين، طبع إيران، نشركليد ب.ت.

٢. كتاب الصابئة المقدّس الكنزاربا، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

٣. الكنزاربا، مارك ليبارسكي، سدني، منشورات الماء الحي، ٢٠٠٠.

المجلات

١. المجلة آفاق مندائية العدد ١٣، السنة الخامسة، بغداد، ٢٠٠٠.

٢. مجلة المشرق البيروتية السنوات: ١٨٩٩، ١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٧، ١٩٠٨.

٣. مجلة التراث الشعبي البغدادي: العدد ١٠، العام ١٩٧٣.

٤. مجلة المقتطف، بغداد، ج١، سنة ١٩٤٩.